بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المـقـدمــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد...

سورة الأنعام إحدى السور المكية، والشأن فيها شأن السور المكية عموما تهتم بالعقائد والتوحيد وإثبات البعث والمعاد والثواب والعقاب والحث على اتباع المرسلين والترغيب الترهيب وبيان مشاهد القيامة من حشر وجمع وجنةٍ ونار إلى غير ذلك مما تتناوله السور المكية عموما، وبشيء من التفصيل، أقول- وبالله تعالى التوفيق- لقد بدت بعض الأمور في هذه السورة الكريمة وتجلت، ومن هذه الأمور التي وردت في هذه السورة الكريمة ما يلي:

۞ التذكير بوحدانية الله ﷻ وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك وكذلك بيان قدرته ﷻ وواسع علمه وأن المهتدي من هداه الله، وأن الذي يكشف الضر هو الله ﷻ، وأن الذي بيد الخير هو الله ﷻ، وذلك في عدة آيات من هذه السورة المباركة كقوله تعالى تذكيرا بوحدانيته: (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) [الأنعام: ١٩].

۞ وبيان اختصاصه سبحانه بمفاتح الغيب في قوله تعالى: (۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) [الأنعام: ٥٩].

۞ وبيان أن ما السموات والأرض ملك له، كما في قوله: (قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ) [الأنعام: ١٢].

۞ وكقوله (۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) [الأنعام: ١٣].

۞ وكقوله تعالى بيانا لقدرته: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) [الأنعام: ٦٥].

۞ وكقوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) [الأنعام: ١٧].

۞ وكقوله تعالى بيانا لواسع علمه: (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) [الأنعام: ١٤].

۞ وبيان خلقه السموات والأرض، والظلمات والنور وجناتٍ معروشات وغير معروشات، وأنه أنزل من الأنعام ثمانية أزواج إلى غير ذلك مما ذكره الله ﷻ ممتنا به

على خلقه.

وكما أسلفت بيان أن المهتدي من هداه الل، قوله تعالى: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ) [الأنعام: ٣٥].

وكقوله تعالى: (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام: ١٤٩].

وكقوله تعالى: (مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩].

۞ وتذكير بنعم الله ﷻ يتلوه تذكير يتلوه تذكير، حتى إن من العلماء من سماها سورة النعم، ومن ثم، ولأن الخالق هو الله والرازق هو الله وهو المحي والمميت والمعز والمذل والقادر، إلى غير ذلك مما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، فمن ثم فهو المستحق للعبادة لا يستحقها أحد سواه، والتذكير بذلك: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

وكما قال: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) [الأنعام: ٥٦].

وفي السورة أيضا تذكير بالأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه

فأكبر سورة انتظمت أسماء أنبياء ومرسلين هذه السورة على ما ذكره بعض العلماء، ثم بيان بعض ما حدث للمرسلين مع أممهم وحث على الصبر كما صبروا وحث على الاقتداء بهم.

۞ وكذا تذكير بالكتب التي أنزلها الله عليهم، وتعنت الكفار والمشركين مع المرسلين وطلبهم الآيات والمعجزات كقولهم: (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام: ٨].

۞ وبيان أن المعجزات لا تنفع من ختم الله على قلبه كما قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ).

[الأنعام: ١١١]

وكما قال: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) [الأنعام: ٧].

وكما قال سبحانه: (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ).

[الأنعام: ٤]

والتحذير من الشقاق والعناد وبيان الذنوب والمعاصي والتمرد على أوامر الله ﷻ، وأوامر رسله عليهم صلوات الله وسلامه سبب لزوال النعم، وسبب للهلاك والدمار والعذاب قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٦، ١٤٧].

وفي ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

وفي السورة الكريمة بيان لضلالات المشركين وجهلهم وشدة غبائهم، وأقيستهم الباطلة التي يردون بها قول الله ﷻ وقوله رسوله ﷺ.

وفي السورة الكريمة ما يذكر بأن عداوات المشركين للرسل مستمرة وقائمة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي السورة بيان لبعض الأحكام والتشريعات والأوامر والنواهي:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الانعام: ١٢١].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وكقوله تعالى: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وكقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وتذكير بالصلاة والزكاة فضلا عن سائر أركان الإيمان والإسلام.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

وقال تعالى: (وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ) [الأنعام: ١٤١].

وفي ثنايا السورة المباركة الكريمة إرشاد لنا في دنيانا في طرائق التعامل مع النفس، ومع الناس، فمن ذلك:

قوله تعالى: (وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ) [الأنعام: ١٤١].

وكقوله تعالى: (وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام: ١٠٨].

وكقوله تعالى في بيان من نجالسهم: (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) [الأنعام: ٥٢].

وكقوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ) [الأنعام: ٦٨].

وتحذير من اتباع أهواء أهل الكفر قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقال: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنعام: ٣٢].

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة المباركة الكريمة فالمقام لا يتسع لذكر ما حوته هذه السورة الكريمة.

ثم إنها ختمت بجميل الختام ختام يحمل تذكيرا بالمرجع والمآب، والثواب والعقاب ويحمل ترهيبا وترغيبا لعل عاصيا أن ينزجر، وكافرا يقلع عن كفره، وكذا لعل مستغفرا أن يستغفر ومستدركا أن يستدرك وكذلك حتى لا يقنط قانط من رحمة الله ﷻ فدائما باب التوبة مفتوح.

قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ) [الأنعام: ١٦٥].

وبالجملة فالسورة المباركة الكريمة انتظمت أصول الدين وفروعه انتظمت أركان الإسلام والإيمان والإحسان.

انتظمت أمور الدين والدنيا على السواء، وبين فيها الحلال والحرام.

وهكذا دائما سور الكتاب العزيز سور جامعة شاملة.

ألا فهلموا بارك الله فيكم إلى كتاب ربكم ﷻ ففيه الهدى والنور، وفيه الأمن والأمان واطمأنينة القلوب.

جعلنا الله من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته وفقهنا الله في الدين وعلمنا التأويل والحكمة وصل اللهم على نبينا محمد وسلم والحمد لله رب العالمين وإلى السورة المباركة..

قَالَ تَعَالَىٰ: ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن
طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢
وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ
وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا
كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ
يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن
قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا
ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ
فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوۡ
نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ
وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا
لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢)

الكلمة	معناها
﴿خَلَقَ﴾	أنشأ وأوجد.
﴿يَعْدِلُونَ﴾	يساوون (يساوون الله بخلقه) يميلون (عن التوحيد إلى الشرك)- ينحرفون (عن عبادة الله إلى الشرك به).
﴿تَمْتَرُونَ﴾	تجادلون – تشكُّون.
﴿تَكْسِبُونَ﴾	تعملون (من خيرٍ أو شرٍّ).
﴿ءَايَةٍ﴾	معجزةٍ- حجةٍ وعلامةٍ ودلالة (على وحدانية الله ﷻ).
﴿مِّدْرَارًا﴾	متواصلًا- شيئًا بعد شيء- غزيرًا دائمًا كثيرًا.
﴿قَرْنًا﴾	جيلًا، وقيل: القرن مائة عام.
﴿قِرْطَاسٍ﴾	كتاب- ورق- صحيفة- كل ما يكتب عليه.
﴿مُّبِينٌ﴾	مظهر- موضح (لكهانة من قام به وتمكنه من السحر)، كذا قالوا.
﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾	لانتهت حياتهم وانقضت آجالهم.
﴿لَا يُنظَرُونَ﴾	لا يمهلون- لا يؤخرون- لا يؤجّلون.
﴿وَلَلَبَسْنَا﴾	خلطنا- شبَّهنا.
﴿فَحَاقَ﴾	حلَّ- نزل.
﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	لا شك فيه.

س: هل صح عن رسول الله ﷺ حديث في أن سورة الأنعام شيعها عند نزولها سبعون ألف ملك؟

ج: وردت عن رسول الله ﷺ عدة أسانيد بذلك مفادها أن هذه السورة شيعها عند نزولها سبعون ألفا من الملائكة قد سدوا الأفق لهم زجل بالتسبيح والتحميد.

وإلا أن كل إسناد من هذه الأسانيد لا يخلو من ضعف بل وضعفٍ شديد، وقد أوردها الحافظ ابن كثير خ في تفسيره.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؟

ج: قال بعض العلماء: معناه الحمد الكامل لله ﷻ وحده لا شريك له؛ وذلك لأن الشخص قد يحمد شخصا على معروف صنعه معه لكن المحمود على كل الأحوال وفي كل الأوقات حمدا كاملا دائما هو الله وحده لا شريك له.

وقال بعض العلماء:

إن المعنى: قولوا الحمد لله.

وقال آخرون: إن المعنى: أخلصوا الحمد والشكر لله.

هذا، وقد قال الطبري في معنى ذلك:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الحمد الكامل لله وحده لا شريك له دون جميع الأنداد والآلهة، ودون ما سواه مما تعبده كفرة خلقه من الأوثان والأصنام.

وهذا كلام مخرجه مخرج ينحي به نحو الأمر.

يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خلقكم، أيها الناس، وخلق السموات والأرض، ولا تشركوا معه في ذلك أحدا أو شيئا، فإنه المستوجب عليكم الحمد بأياديه عندكم ونعمه عليكم، لا من تعبدونه من دونه، وتجعلونه له شريكا من خلقه.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسه، وإثبات الألوهية؛ أي أن الحمد كله له فلا شريك له.

فإن قيل: فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره؛ فيقال: لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة، وأيضا فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون.

س: ما وجه الامتنان بخلق السموات وخلق الأرض؟

ج: وجه ذلك أن الله جعل السماء سقفا محفوظا، وجعل فيه من الآيات ما يدعو إلى التفكر والتدبر في وحدانية الله ﷻ فبذلك يستدل على وحدانيته ويقر له بذلك، ومن ثم يسلم لنا أمرنا وننجو من عذاب ربنا.

وكذلك خلق السموات وأنزل منها من الأرزاق ما أنزل، فبذلك أيضا تصفو لنا حياتنا الدنيا.

وكذا في الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ومع ذلك يفضل بعضها على بعض في الأكل، وكل ذلك، وغير ذلك يدعو إلى التفكر في وحدانية الله ﷻ والإقرار له بالوحدانية.

وكذلك جعلها لنا كفاتا أحياء وأمواتا.

وكذا أخرج منها من الكنوز ما أخرج، وكل ذلك نافع لنا ومفيد في دنيانا، ونهتدي به للنافع في أخرانا إذا أراد الله لنا الهداية.

هذا وقد قال القرطبي خ في تفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: الذي خلق أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع.

والخلق يكون بمعنى الاختراع، ويكون بمعنى التقدير، وقد تقدم، وكلاهما مراد هنا؛ وذلك دليل على حدوثهما؛ فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أودٍ، وجعل فيها الجبال أوتادا، وسبلا فجاجا، وأجرى فيها الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبين بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء.

س: ما المراد بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]؟

ج: قيل المراد بالظلمات ظلمات الليل.

والنور نور النهار.

وهذا قول جمهور المفسرين: نقله عنهم القرطبي وغيره، أي أن المراد سواد الليل وضياء النهار.

وقيل ظلمات الكفر ونور الإيمان.

قال القرطبي: واللفظ يعمه.

س: ما معنى قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾؟

ج: المعنى، أنه أظلم ليلهما (أي جعل ليلهما مظلما) وأنار نهارهما (أي جعل نهارهما مبصرا).

س: لماذا أفرد النور وجمعت الظلمات في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾؟

ج: ذلك -والله أعلم- لأمور ذكره العلماء:

أحدها: بيان فضل النور وشرفه، وهذا كقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل: ٤٨] فأفرد اليمين وجمعت الشمائل.

الثاني: لكون طريق الحق واحد، وطرائق الباطل متعددة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الثالث: أنه ترك جمعه استغناء بجمع السماء قبله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١].

الرابع: أن الظلمة اسم، والنور مصدر والمصادر لا تجمع.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾؟

ج: المعنى، ثم الذين كفروا- بعد أن علموا أن الله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور تفضلا منه عليهم بعد ذلك يجعلون له شريكا ويعدلون عن عبادته وحده لا شريك له فيعبدون معه غيره، وينصرفون عن توحيده إلى الشرك به.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، معجبًا خلقه المؤمنين من كفرة عباده، ومحتجا على الكافرين: إن الإله الذي يجب عليكم، أيها الناس، حمده وهو الذي خلق السموات والأرض، الذي جعل منهما معايشكم وأقواتكم، وأقوات أنعامكم التي بها حياتكم.

فمن السموات ينزل عليكم الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر باعتقاب واختلاف لمصالحكم.

ومن الأرض ينبت الحب الذي به غذاؤكم، والثمار التي فيها ملاذكم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها والذين يجحدون نعمة الله عليهم بما أنعم به عليهم من خلق ذلك لهم ولكم، أيها الناس ﴿بِرَبِّهِمْ﴾، الذي فعل ذلك وأحدثه ﴿يَعْدِلُونَ﴾، يجعلون له شريكا في عبادتهم إياه، فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثان، وليس منها شيء شركه في خلق شيءٍ من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره. فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن فكر فيها بعقل، وتدبرها بفهم!

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن عطية: فـ«ثم» دالة على قبح فعل الكافرين لان المعنى: أن خلقه السموات والأرض قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم والله أعلم.

وقال الشنقيطي خ في تفسيره «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، في قوله تعالى: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف، والميل عنه، وعلى هذا فقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَفَرُواْ﴾، وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن «الباء» بمعنى «عن» أي: يعدلون عن ربهم، فلا يتوجهون إليه بطاعة، ولا إيمان.

والثاني: أن «الباء» متعلقة بيعدلون، ومعنى يعدلون يجعلون له نظيرا في العبادة، من قول العرب: عدلت فلانا بفلان إذا جعلته له نظيرا وعديلا، ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحا   عدلت بهم طهية والخشابا

يعني أجعلت طهية والخشاب نظراء وأمثالا لبني ثعلبة وبني رياح، وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن، كقوله تعالى، عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾) [الشعراء: ٩٧، ٩٨]،

وقوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ) [البقرة: ١٦٥]، وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق، قبحهم الله تعالى، كقوله: (أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ)، وقوله: (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)، وقوله: (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ) [الروم: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وعدل الشيء في اللغة مثله ونظيره، قال بعض علماء العربية: إذا كان من جنسه، فهو عدل بكسر العين، وإذا كان من غير جنسه، فهو عدل بفتح العين، ومن الأول قول مهلهل:

على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا برزت مخبأة الخدور

على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا اضطرب العضاه من الدبور

على أن ليس عدلًا من كليب ... غداة بلابل الأمر الكبير

يعني أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب الذي قتله جساس بن مرة البكري لا يكافئونه، ولا يعادلونه في الشرف.

ومن الثاني قوله تعالى: (أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا) [المائدة: ٩٥]. لأن المراد نظير الإطعام من الصيام، وليس من جنسه، وقوله: (وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ) [الأنعام: ٧٠]، وقوله: (وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ) [البقرة: ١٢٣]، والعدل: الفداء، لأنه كأنه قيمة معادلة للفدى تؤخذ بدله.

|

س: من الذين عناهم الله بقوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ)؟

ج: ذلك آدم عليه السلام، فهو الذي خلق من طين.

أما ذريته فخلقت من مبني يمنى، قال تعالى: (أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ) [المرسلات: ٢٠].

فقوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن طِينٖ) أي: خلق أصلكم وأباكم آدم عليه السلام من طين.

س: ما المراد بالأجل، وما المراد بالأجل المسمى عنده؟

ج: قال بعض العلماء:

أما قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ هذا الأجل هو العمر الذي قضاه المرء في دنياه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ هو مدة بقائه في قبره إلى أن يبعث.

وقيل ثم قضى أجلا هو الحياة الدنيا، والأجل المسمى هو مدة الوقوف للحساب يوم القيامة.

وقيل: المراد بالأجل الذي قضاه الله هو مدة استقرار الذرية في الصلب.

والمراد بالأجل المسمى الأجل الذي يعيشه الشخص في دنياه.

وأورد ابن الجوزي (في زاد المسير) ستة أقوال في تفسير الأجل والأجل المسمى:

أحدها: أن الأجل الأول: أجل الحياة إلى الموت والأجل الثاني: أجل الموت إلى البعث.

والثاني: أن الأجل الأول: النوم الذي تقبض فيه الروح، ثم ترجع في حال اليقظة والأجل المسمى عنده: أجل موت الإنسان.

والثالث: أن الأجل الأول: أجل الآخرة متى يأتي، والأجل الثاني: أجل الدنيا.

والرابع: أن الأول: خلق الأشياء في ستة أيام، والثاني: ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة.

والخامس: أن الأول: قضاه حين أخذ الميثاق على خلقه، والثاني: الحياة في الدنيا.

والسادس: أن الأول: أجل من قد مات من قبل، والثاني: أجل من يموت من بعد.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿تَمْتَرُونَ﴾؟ ووضح يمترون في ماذا؟

ج: تقدم أن معنى تمترون تشكون (من الشك) فالمرية الشك، ويقال أيضا تمترون تجادلون. المراء الجدل وقوله: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون في البعث، وفي قدره الله عليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم أنتم تشكون في قدرة من قدر على خلق السماوات والأرض، وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيركم بالهيئة التي أنتم بها على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إياكم بعد عدمكم.

و«المرية» في كلام العرب، هي الشك.

س: ما الفائدة من مخاطبة المشركين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؟

ج: فائدة ذلك توبيخ أهل الشرك والتنديد بباطلهم فكيف تشكون في بعثكم وحسابكم والله هو الذي خقكم من طين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، وهو المعبود الذي يعبده أهل السموات وأهل الأرض، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي وهو الذي في السماء معبود، وفي الأرض معبود.

وقيل المعنى: هو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين، تعالى عن قولهم علوا كبيرا، بأنه في كل مكانٍ، حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال: أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبرا أو حالا.

[والقول الثاني] أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهرٍ، فيكون قوله ﴿يَعْلَمُ﴾، متعلقا بقوله ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقديره، وهو الله

(١٩) أحمر
أسود

يعلم سركم وجهركم، في السموات وفي الأرض، ويعلم ما تكسبون.

[والقول الثالث] أن قوله ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ وهذا اختيار ابن جريرٍ، وقوله ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها.

وقال الشنقيطي خ في «أضواء البيان».

واعلم أن ما يزعمه الجهمية من أن الله تعالى في كل مكان، مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض، ضلال مبين، وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض، الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده - جل وعلا - أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حال فيها، أو في كل جزء من أجزائها، لا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن رب السماوات والأرض أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣]، علوا كبيرا لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

|

س: الذي يعلم السر يعلم الجهر، فلماذا ذكر الجهر في قوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم، إن الجهر ذكر على سبيل المقابلة كما قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. على أحد الوجوه في تفسيرها. والله أعلم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا﴾ [الأنعام: ٤]؟

ج: المعنى، والله أعلم، أن هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بالآيات والمعجزات التي أتاهم بها الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه بل ازدادوا تكذيبا وعنادا، فلما رأوا القمر منشقا أعرضوا وقالوا: هذا سحر مستمر، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

يقول تعالى ذكره: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون أوثانهم وآلهتهم (ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ)، يقول: حجة وعلامة ودلالة من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أتيتهم به من عندي (إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)، يقول: إلا أعرضوا عنها، يعني عن الآية، فصدوا عن قبولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلت على صحته، جهلا منهم بالله، واغترارا بحلمه عنهم.

س: ما المراد بالحق الذي كذب به هؤلاء المعرضون؟

ج: قيل هذا الحق هو محمد ﷺ، وقيل هذا الحق هو القرآن الذي نزل على النبي ﷺ وبين هذين القولين تلازم، فالمكذب بمحمد ﷺ يعد مكذبا للقرآن.

هذا، وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فقد كذب هؤلاء العادلون بالله، الحق لما جاءهم، وذلك «الحق»، هو محمد ﷺ: كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم.

س: الآيات والمعجزات لا تنشيء إيمانا لمن ختم الله على قلبه دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا

سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجر: ١٤، ١٥].

وقوله تعالى: (وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا) [الأنعام: ٤].

وقوله تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) [الأنعام: ٧].

وقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ) [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى: (۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) [الأنعام: ١١١].

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير خ في تفسير هذه الآية الكريمة: (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ):

يقول تعالى مخبرا عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم مهما أتتهم (مِّنْ ءَايَةٍ)، أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها.

س: ما استفاد من إخبارنا بأن أهل الكفر لا ينتفعون بالآيات؟

ج: من المستفاد من ذلك طمأنينة قلوبنا وعلمنا بأن أمر الهداية موكول إلى الله عز وجل.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، سيأتي هؤلاء الكفار، ويتحقق لهم ما وعدناهم به من العذاب الذي كانوا يستهزئون به.

قال الطبري رحمه الله:

قال الله لهم متوعدا على تكذيبهم إياه وجحودهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك، يا محمد، من قومك وغيرهم (أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)، يقول: سوف يأتيهم

أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم. ثم وفى لهم بوعيده لما تمادوا في غيهم، وعتوا على ربهم، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسيف.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥] وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه، وليذوقن وباله.

س: هل أتاهم أنباء ما كانوا به يستهزئون؟

ج: نعم قد أتاهم فمن مات منهم أتاه ما كان به يستهزأ من سؤال الملكين في القبر وغير ذلك كنزول ملائكة العذاب عليه عند الاحتضار.

ومنهم من أتاه يوم بدرٍ حتفه، وما كان به يستهزئ وقد أصاب الله القرشيين بسنواتٍ عجاف، كان فيها قحط، وكانت فيه شدة شديدة حتى رأوا الدخان في السماء من شدة الجوع.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾؟

ج: قيل في معناها أعطيناهم من الدنيا ما لم نعطكمن وقيل قويناهم وكانوا أكثر منكم جمعا وأشد قوة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي الجاحدون نبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون، وهم الأمم الذين وطأت لهم البلاد والأرض وطاءة لم أوطئها لكم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطكم؟

وقال أيضًا:

أمطرت فأخرجت لهم الأشجار ثمارها، وأعطتهم الأرض ريع نباتها، وجابوا صخور جبالها، ودرت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه

بينابيعها بإذني، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا حتى حق عليهم قولي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب.

قال الحافظ ابن كثير خ :

قال تعالى واعظا لهم ومحذرا لهم، أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعا وأكثر أموالا وأولادا واستغلالا للأرض، وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ولهذا قال وأرسلنا السماء عليهم مدرارا أي شيئا بعد شيءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي استدراجا وإملاء لهم.

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾؟

ج: المراد —والله أعلم– وأرسلنا المطر من السماء.

س: كثيرا ما تهلك الأمم ويهلك الأفراد بسبب الذنوب، وكذا تحل عليهم البلايا والنقم بسبب الذنوب، دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٠- ١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ

خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) [سبأ: ١٦، ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ) أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها (وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب، وجعلناهم أحاديث (وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) أي: جيلا آخر؛ لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فم أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)؟

ج: المعنى –والله أعلم– إن الآيات والمعجزات لا تنشئ إيمانا عند من أراد الله له الغواية، فهؤلاء الكفار المعرضون الذين طلبوا أن تنزل على كل منهم صحف منشرة تأمره بأمر الله وتنهاه عما أراد الله أن ينتهي عنه، أراد كل واحد منهم ذلك لنفسه بخصوصه، كما قال تعالى: (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) [المدثر: ٥٢] هؤلاء مهما جاءتهم الآيات فلن يؤمنوا، ولو نزلنا عليك كتابا من السماء مدلى بحبل من السماء، وموجود بين السماء والأرض فأتى هؤلاء القوم ولمسوه بأيديهم وتأكدوا من كونه كتاب منزل من عند الله، لجادلوا في ذلك أيضا، وما استجابوا لذلك، بل لوصفوا ذلك بأنه سحر مبين، وهذا دوما شأنهم، كما وصفهم الله ع، قال تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجرات: ١٤، ١٥].

وكما قال (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) [الطور: ٤٤].

هذا، وقد قال الطبري خ :

وهذا إخبار من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثان والآلهة والأصنام.

يقول تعالى ذكره: وكيف يتفقهون الآيات، أم كيف يستدلون على بطلان ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله وجحود نبوتك، بحجج الله وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحق وبعدهم من الرشد، لو أنزلت عليك، يا محمد، الوحي الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قرطاس يعاينونه ويمسونه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرءونه منه، معلقا بين السماء والأرض، بحقيقة ما تدعوهم إليه، وصحة ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي، لقال الذين يعدلون بي غيري فيشركون في توحيدي سواي:(إِنَّ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)، أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة (مُّبِينٞ)، يقول: مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له.

س: ما وجه قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾؟

ج: ذلك والله أعلم، لتأكيد رؤيتهم له ومعاينتهم له، فلم يقف الأمر على رؤية العين، بل تأكدوا من ذلك بلمسهم له، هذا، وقد قال بعض العلماء: إن مراتب العلم ثلاثة، علم اليقين –عين اليقين– حق اليقين، وعلم اليقين مثلا أن تعلم أن هناك كعبة مثلا، وعين اليقين أن تراها بعينك، وحق اليقين أن تدخل الكعبة وتلمسها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ) أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ) أي فعاينوا ذلك ومسوه باليد وبالغوا في ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال.

وقال أبو المظفر السمعاني في تفسيره:

---

(١) أي: مسوه بالبشرة، أي: لمسوه.

(فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) فإن قال قائل: لم لم يقل: فرأوه بأعينهم؟ قيل: لأن اللمس أبلغ؛ لأن الملموس يصير مرئيا، والمرئي لا يصير ملموسا؛ فذكر اللمس ليكون أبلغ.

س: وصح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، أن هؤلاء الكفار طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتي معه بملكٍ من السماء يؤازره في دعوته ويصدقه ويطلب من الكفار أن يؤمنوا به ويتابعوه ويكون معه نذيرا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

ولو أجبناهم إلى طلبهم وأعطيناهم ما سألوا وأنزلنا الملك كما أرادوا فكذبوا به لجاءهم العذاب ولم يملهوا ولم يؤخروا، ولم يكن هناك ثم مجال – إذا كذبوا – للإمهال والتأخير والإنظار، بل لنزل عليهم العذاب فورا كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المكذبون بآياتي، العادلون بي الأنداد والآلهة، يا محمد، لك لو دعوتهم إلى توحيدي والإقرار بربوبيتي، وإذا أتيتهم من الآيات والعبر بما أتيتهم به، واحتججت عليهم بما احتججت عليهم مما قطعت به عذرهم: هلا نزل عليك ملك من السماء في صورته، يصدقك على ما جئتنا به، ويشهد لك بحقيقة ما تدعي من أن الله أرسلك إلينا!

كما قال تعالى ذكره مخبرا عن المشركين في قيلهم لنبي الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، يقول: ولو أنزلنا

ملكا على ما سألوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذاب عاجلا غير آجل، ولم ينظروا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، من تعجيل النقمة، وترك الإنظار.

س: ما هذا الأمر الذي قضى، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؟

ج: الذي يبدو أن هذا الأمر هو أمر دعوتهم وأمر إيمانهم وأمر إمهالهم وأمر عنادهم، وأمر عذابهم أي ما يتعلق بهم من الأمور عموما، وذلك بإنزال العذاب عليهم.

قال الشنقيطي خ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ يعني: أنه لو نزل عليهم الملائكة وهم على ما هم من الكفر والمعاصي. لجاءهم من الله العذاب من غير إمهال ولا إنظار.

لأنه حكم بان الملائكة لا تنزل عليهم إلا بذلك، كما بينه تعالى بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، ولو قدرنا أن ننزل إلى هؤلاء المشركين ملكا من الملائكة لجاءهم هذا الملك في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة على الحال التي خلق الله الملائكة عليها، فإذا كان الأمر بهذه المثابة،ونزل الملك في صورة رجل لازداد الأمر التباسا واشتباها ففريق سيقول إنه ملك، وفريق آخر سيقول ليس بملك بل هو بشر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلين بي، القائلين: لولا أنزل على محمدٍ ملك بتصديقه- ملكا ينزل عليهم من السماء، يشهد بتصديق محمد ﷺ،

ويأمرهم باتباعه (لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا)، يقول: لجعلناه في صورة رجل من البشر، لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك في صورته. يقول: وإذا كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكا أو بشرا، إذ كنت إذا أنزلت عليهم ملكا إنما أنزله بصورة إنسي، وحججي في كلتا الحالتين عليهم ثابتة: بأنك صادق، وأن ما جئتهم به حق.

وقال أيضا:

يعني تعالى ذكره بقوله:(وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم): ولو أنزلنا ملكا من السماء مصدقا لك، يا محمد، شاهدا لك عند هؤلاء العادلين بي، الجاحدين آياتك على حقيقة نبوتك، فجعلناه في صورة رجل من بني آدم، إذ كانوا لا يطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقته بها، التبس عليهم أمره، فلم يدروا أملك هو أم إنسي! فلم يوقنوا به أنه ملك، ولم يصدقوا به، وقالوا:«ليس هذا ملكا»! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوتك.

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ) أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكا، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: (قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا) [الإسراء: ٩٥] ، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنفٍ من الخلائق رسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعضٍ في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا) أي لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كله جنسٍ يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به،

ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطا في صورة الآدميين، وأتى جبريل النبي عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي. أي لو أنزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه، فإذا جعلناه رجلا التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك.

وقال الزجاج: المعنى (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم) أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكا في صورة رجلٍ لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون. واللبس الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسا أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه وقال:«للبسنا» بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال(مَّا يَلْبِسُونَ) فأضاف إليهم على جهة الاكتساب. ثم قال مؤنسًا لنبيه عليه الصلاة والسلام ومعزيا.

|

س: ما المستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية؟

ج: في هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتصبير له ووعد له وللمؤمنين بالنصر والانتقام من المستهزئين، وذلك بتذكيره بما أصاب إخوانه المرسلين من قبله، فيقال له: إن كنت قد أوذيت فقد أوذي إخوانك من المرسلين فمن ثم فاصبر كم صبروا، واثبت كثباتهم ففيه إذن حث على الصبر والثبات. كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**.

وكذلك فيه بيان لعواقب الظالمين، وذلك من قوله تعالى فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون أي أن هؤلاء المكذبين لك الساخرين منك سينزل بهم ويحل بهم أيضا جزاء تكذيبهم وعنادهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسليا عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقى منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هون عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك في وفي طاعتي، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدي والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيهم، وأصروا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمة لهم، وحلول المثلات بهم. فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومك بك.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؟

ج: قيل: المعنى فنزل بالكفار المكذبين العذاب الذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به وبمن أخبرهم به هذا وجه.

ووجه آخر فنزل بالكفار المكذبين المستهزئين جزاء استهزائهم وسخريتهم بالمرسلين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني بقوله: «فحاق»، فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم، ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، يقول: العذاب الذي كانو يهزأون به، وينكرون أن يكون واقعا بهم على ما أنذرتهم رسلهم.

يقال منه: «حاق بهم هذا الأمر يحيق بهم حيقا وحيوقا وحيقانا».

س: اذكر بعض الآيات الدالة على استهزاء الكفار بالمرسلين؟ مع بيان بعض صور هذا الاستهزاء؟

ج: من هذه الآيات ما يلي:

قوله تعالى في شأن نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]

هذا، ومن صور الاستهزاء ما أورده الشنقيطي حيث قال:

فمن استهزائهم بنوح قولهم له: «بعد أن كنت نبيا صرت نجارا»، وقد قال الله تعالى عن نوح: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وأمثالها من الآيات.

ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم من قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، وقوله عنهم أيضا: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]. وذكر ما حاق بهم من العذاب في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، وأمثالها من الآيات.

ومن استهزائهم بصالح، قولهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وقولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧] ونحوها من الآيات.

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦].

وقولهم له أيضا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات.

ومن استهزائهم بشعيب قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ونحوها من الآيات.

س: قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خطاب موجة لمن؟

ج: هذا يحتمل أن يكون موجها للكفار المعرضين عن طريق الله ﷻ المكذبين للرسل، فيقال لهم: يا هؤلاء يا من كذبتم رسلي وكفرتم بآياتي وحججي، انظروا في سير من كانوا قبلكم الذين سلكوا مسلككم، وانظروا ما حل بهم وما نزل بسبب تكذيبهم فلعل هذا يمنعكم مما أنتم فيه من الكفر، ويزجركم عما أنتم فيه من الطغيان.

ويحتمل أن يكون موجها للمؤمنين، فيقال لهم: يا أهل الإيمان اصبروا على أذى من آذاكم وتكذيب من كذبكم وانتظروا به وتربصوا فسيحل به ما حل بالأمم المكذبة من قبله.

ففيها- عل هذا الوجه تصبير لأهل الإيماان وتصبيت لهم. وتبشير بالفرج والنصر والانتقام من أهل الظلم والعناد والله أعلم.

س: كيف كان عاقبة المكذبين؟

ج: كانت عاقبتهم أن دمرهم الله ﷻ وأهلكهم- على اختلاف في صور التدمير والإهلاك – فمنهم من خسف به الأرض ومنهم من أغرقه الله، ومنهم من أرسل الله عليه حاصبا،ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أ×ذته الرجفة، إلى غير ذلك من صور الإهلاك والدمار.

قال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

أي: فإن شككتم في ذلك، أو ارتبتم، فسيروا في الأرض، ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوما مهلكين، وأمما في المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به، سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: (قُلْ)، يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد،

المكذبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي (سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ)، يقول: جولوا في بلاد المكذبين رسلهم، الجاحدين آياتي من قبلهم من ضربائهم وأشكالهم من الناس (ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)، يقول: ثم انظروا كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك، الهلاك والعطب وخزي الدنيا وعارها، وما حل بهم من سخط الله عليهم، من البوار وخراب الديار وعفو الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حجج الله عليكم، عما أنتم [عليه] مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل الذي حل بهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ)؟

ج: هذا، والله تعالى أعلم استفهام يحمل معنى التوبيخ للكفار المشركين الذين اتخذوا مع الله إلها آخر، فقيل: قل (يا رسول الله) لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر، قل لهم لمن ما في السموات والأرض؟ فسيقرون أن ذلك لله، كما قال تعالى: (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، فسواء قالوا ذلك أم لم يقولوه فقل أنت مظهرا دينك، وموضحا أمرك (لله) أي أن ما في السموات وما في الأرض ملكه لله، هو مالكه وهو المتصرف فيه بما يشاء، فإذا كان ذلك كذلك فكيف تجعلون مع الله إلها آخر.

ثم أخبر هؤلاء المشركين بأن الله ﷻ كتب على نفسه الرحمة فإذا سألوك لماذا لم يعاجلهم الله –بالعقوبة– وهم يعبدون معه غيره ويشركون به؟ فقل لهم إن ربكم ﷻ كتب على نفسه الرحمة وفتح لكم أبوابها ولم يعاجلكم عن طاعته، وترك عقوبتكم في الدنيا فإلى الله المرجع والمآب وسيجمعكم يوم القيامة ويحاسب كل نفس على ما قدمت من خيرٍ أو شرٍ في دنياها وهناك سيجازي أهل الشرك الذين ظلموا أنفسهم وجلبوا لأنفسهم العذاب بشركهم بالله، أسوأ الجزاء وذلك لتماديهم في الكفر ولعنادهم ولعدم إيمانهم حتى الممات.

هذا، وقد قال الطبري ﷺ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: (قُلْ)، يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم، (لِّمَن مَّا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)، يقول: لمن ملك ما في السموات والأرض؟ ثم أخبرهم أن ذلك لله الذي استعبد كل شيء، وقهر كل شيء بملكه وسلطانه لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلها من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعا ولا تدفع عنها ضرا.

وقوله: (كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ) [الأنعام: ١٢]، يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة.

وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة، يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العادلين بي، الجاحدين نبوتك، يا محمد، إن تابوا وأنابو قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء.

س: اذكر بعض الأحاديث في معنى قوله تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ) [الأنعام: ٥٤] وبعض الأحاديث الدالة على سعة رحمة الله ﷻ؟

ج: من ذلك ما يلي:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه- فهو عنده فوق العرش- إن رحمتي غلبت غضبي**».

وفي بعض الروايات: «**سبقت رحمتي غضبي**» (٢).

وقول رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**» (٣).

وقول رسول الله ﷺ (٤): «**جعل الله الرحمة مائة جزءٍ فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».

---

(١) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) مسلم (في طرق الحديث السابق).
(٣) مسلم (حديث ٢٧٥٥).
(٤) البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) واللفظ له.

وحديث سلمان[1] الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله مائة رحمة فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة**».

وفي الصحيحين[2] من حديث عمر رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولده في النار؟ قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها**».

س: ما موقع اللام في قوله تعالى: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ)؟

ج: قال ابن كثير رحمه الله:

هذه اللام هي: الموطئة للقسم.

وقال القرطبي رحمه الله: اللام لام القسم والنون للتوكيد.

---

(١) مسلم (حديث ٢٧٥٣).

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

قَالَ تَعَالَىٰ:

(وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ
أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ
قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن
يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن
يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ
ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ
وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ
أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي
بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا
يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ
شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ
وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ
وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ
وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن
يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ

يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ وَهُمۡ
يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ
٢٦ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ
مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨
وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ
إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ
فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ
ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا

(٣٧) أحمر
أسود

فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ
٣١ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ
يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ
لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ
رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ وَإِن
كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ
عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥) [الأنعام: ١٣-٣٥].

الكلمة	معناها

﴿سَكَنَ﴾	استقر.
﴿وَلِيًّا﴾	ناصرًا- مُعينًا.
﴿فَاطِرِ﴾	خالق على غير مثالٍ سابق- مبتدئ الخلق على غير مثالٍ سابق.
﴿يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾	يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ.
﴿أَسۡلَمَ﴾	انقاد (خضع) – استسلم – اعتنق الإسلام دينًا.
﴿يَوۡمَئِذٍ﴾	يوم القيامة.
﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾	أهلكوا بالذنوب والمعاصي وتسببوا لها في دخول النار.
﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾	اختلق- كذب.
﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾	نجمعهم- نبعثهم.
﴿تَزۡعُمُونَ﴾	تفترون.
﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾	حجتهم- قولهم- معذرتهم- جوابهم.
﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾	ما جعلنا لله شريكًا، وما دعونا أحدًا من دون الله.
﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾	غاب عنهم – فارقهم- هرب منهم.
﴿يَفۡتَرُونَ﴾	يكذبون (بادعاء الشريك لله) – يشركون.
﴿أَكِنَّةً﴾	أغطية- جمع كنان؛ وهو: الغطاء- الغلاف.
﴿يَفۡقَهُوهُ﴾	يفهموه.
﴿وَقۡرٗا﴾	صممًا- ثقلًا في الآذان.
﴿ءَايَةٖ﴾	معجزة- حجة.
﴿أَسَٰطِيرُ﴾	قصص وخرافات وحكايات.
﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾	القرون المتقدمة.
﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾	يبتعدون عنه.
﴿بَدَا لَهُم﴾	ظهر لهم – تبين لهم.
﴿إِنۡ هِيَ﴾	ما هي.

الكلمة	معناها

﴿بَغْتَةً﴾	فجأةً.
﴿يَحَسْرَتَنَا﴾	يا ندمنا.
﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾	قصرنا في العمل لها- ضيعنا.
﴿أَوْزَارَهُمْ﴾	آثامهم- ذنوبهم- أحمالهم من الذنوب.
﴿أَلَا سَآءَ﴾	ما أَسْوَأ.
﴿يَزِرُونَ﴾	يحملون.
﴿يَجْحَدُونَ﴾	ينكرون.
﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾	لا مغير- لا مانع يمنعها من التحقق والوقوع.
﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾	آيات الكتاب العزيز (المتعلقة بالوعد بالنصر) – الكلمات التي تكلم بها وقضى بها الأمور قبل أن تخلق.
﴿نَّبَإِي﴾	خبر.
﴿كَبُرَ﴾	عَظُم – شَقَّ.
﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾	نفورهم- انصرافهم.
﴿تَبْتَغِيَ﴾	تطلب- تلتمس- تجد.
﴿نَفَقًا﴾	سِربًا.
﴿سُلَّمًا﴾	مِصْعَدًا.
﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ﴾	تأتيهم بمعجزة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟

ج: لذلك والله أعلم تعلق بما قبله، فكأن المعنى: قل لهؤلاء المشركين كيف تكفرون بالله وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العلم؟!

أما قوله تعالى: ﴿سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ فمعلوم أن كل شيءٍ في الأرض له سكون، أم أنه يسكن- أي: يهدأ- ليلا أو يسكن نهارا، فلأن كل شيء يسكن فكل شيء ملك له.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لا يؤمن هؤلاء العادلون بالله الأوثان، فيخلصوا له التوحيد، ويفردوا له الطاعة، ويقروا بالألوهية، جهلا ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، يقول: وله ملك كل شيء، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكن في الليل والنهار.

فمعلوم بذلك أن معناه ما وصفنا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، يقول: وهو السميع ما يقول هؤلاء المشركون فيه، من ادعائهم له شريكا، وما يقول غيرهم من خلقه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، بما يضمرونه في أنفسهم، وما يظهارونه بجوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو يحصيه عليهم، ليوفي كل إنسان ثواب ما اكتسب، وجزاء ما عمل.

س: لماذا خص السكون بالذكر دون الحركة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾؟

ج: أجاب على ذلك ابن الجوزي في «زاد المسير» بقوله:

فإن قيل: لم خص السكون بالذكر دون الحركة؟ فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن السكون أعم وجودا من الحركة.

والثاني: أن كل متحرك قد يسكن، وليس كل ساكن يتحرك.

والثالث: أن في الآية إضمارا؛ والمعنى: وله ما سكن وتحرك؛ كقوله تعالى: ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أراد: والبرد؛ فاختصر.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم قل (يا رسول الله) لهؤلاء المشركين الجاحدين: كيف اتخذ وليا يتولاني وناصرا ينصرني، وربي خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وهو الذي يرزق ولا يرزق، فكيف اتخذ وليا غيره؟!

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيئا غير الله تعالى ذكره: ﴿أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾

استنصره وأستعينه على النوائب والحوادث.

قال أيضا: ويعني بقوله: (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) مبتدعهما ومبتدؤهما وخالقهما.

وقال كذلك: وأما قوله: (وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ) فإنه يعني وهو يرزق خلقه ولا يرزق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالى لعبده ورسوله محمدٍ ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم (قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) كقوله (قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ) [الزمر: ٦٤] والمعنى لا أتخذ وليا إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي خالقهما ومبدعهما، على غير مثالٍ سبق.

(وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ) أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياجٍ إليهم، كما قال تعالى: (وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ) [الذاريات: ٥٦] الآية.

وقرأ بعضهم هاهنا وهو يطعم ولا يطعم أي لا يأكل.

|

س: لماذا خص الإطعام من بين سائر النعم؟

ج: ذلك لاحتياج جميع الخلق إليه وأيضا لأن من يطعم يحتاج إلى تبرز، وإلى تبولٍ.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: قل يا رسول الله ﷺ، لهؤلاء المعرضين عن شرعك، المخالفين أمرك، من أهل الشرك وغيرهم، قل لهم: إنه قد قيل لي كن (أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ) أي أول من استسلم لأمر الله ﷻ وخضع لأمر الله وانقاد له وخضع وتذلل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ) أي من هذه الأمة.

وقيل لي أيضا: لا تكونن من المشركين الذي يجعلون مع الله إلها آخر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: (قُلْ)، يا محمد، للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله، ويحثونك على عبادتها: أغير الله فاطر السماوات والأرض، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد، أتخذ وليا هو له عبد مملوك وخلق مخلوق؟ وقل لهم أيضا: إني أمرني ربي: «أن أكون أول من أسلم» يقول: أول من خضع له بالعبودية، وتذلل لأمره ونهيه، وانقاد له من أهل دهري وزماني (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)، يقول: وقل: وقيل لي: لا تكونن من المشركين بالله، الذين يجعلون الآلهة والأنداد شركاء.

وجعل قوله: (أُمِرْتُ) بدلا من: «قيل لي»، لأن قوله(أُمِرْتُ) معناه:«قيل لي». فكأنه قيل: قل إني قيل لي: كن أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين= فاجتزئ بذكر«الأمر» من ذكر«القول»، إذ كان«الأمر»، معلوما أنه«قول».

وقال الشنقيطي خ : (أضواء البيان):

قوله تعالى: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) الآية، يعني أول من أسلم من هذه الأمة التي أرسلت إليها، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس، كما بينه تعالى بآيات كثيرة تدل على وجود المسلمين قبل وجوده – ﷺ – ووجود أمته، كقوله عن إبراهيم: (إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) [البقرة: ١٣١]، وقوله عن يوسف: (تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ) [يوسف: ١٠١] ، وقوله: (يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟) [المائدة: ٤٤]، وقوله عن لوط وأهله: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) [الذاريات: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

س: ما المراد باليوم العظيم، ولماذا قيل عنه عظيم؟:

ج: المراد يوم القيامة، وقيل عنه عظيم لشدة الأهوال فيه ولفظاعة شأنه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين بك المنكرين لما جئت به من الحق، قل لهم: إني أمرت أن أكون أول من أسلم فإن عصيت ربي

وتخلفت عن الإسلام، وإن عصيت ربي وأشركت فقد أعد العذاب العظيم لمن عصى وأشرك، فلذا إني أخاف العذاب في هذا اليوم يوم القيامة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم: إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه (إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى)، فعبدتها (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، يعني: عذاب يوم القيامة. ووصفه تعالى بـ«العظم» لعظم هوله، وفظاعة شأنه.

س: في قوله تعالى: (يُصْرَفْ) قراءتان وضحهما؟

ج: القراءتان هما يصرف بفتح الياء (أي يصرف الله عنه العذاب).

والثانية: يصرف أي يصرف عنه يومئذ العذاب، وقد ذكر القراءتين الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

س: ما المراد باليوم في قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ)؟

ج: المراد، والله أعلم، يوم القيامة.

س: وضح معنى كلمة (ٱلْمُبِينُ)؟

ج: المعنى –والله أعلم– المظهر الموضح للمؤمن بأنه قد فاز.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المبين) يعني الذي بين لمن رآه أنه الظفر بالحاجة وإدراك الطلبة.

س: اذكر آية في معنى قوله تعالى: (مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ)؟

ج: الآية التي في معناها هي قوله تعالى: (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) [آل عمران: ١٨٥].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ)؟

ج: يبين لنا ربنا أن الذي يكشف الضر هو الله ﷻ لا كاشف له إلا هو، فإذا حل بأحدٍ مرض مثلا فلا كاشف له ولا شافي إلا الله ﷻ، قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال النبي ﷺ: «اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك»(١).

وكذا فإذا أرادنا الله بخير فلا راد لفضله.

فإذا كان الذي يكشف الضر ويجيب المضطر هو الله فلماذا نعدل عنه إلى عبادة غيره.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك الله ﴿بِضُرٍّ﴾، يقول: بشدة في دنياك، وشظف في عيشك وضيق فيه، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، يقول: وإن يصبك بخير، أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، فتقر أنه أصابك بذلك: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يقول تعالى ذكره:

والله الذي أصابك بذلك، فهو على كل شيء قدير هو القادر على نفعك وضرك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقر لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟!

يقول تعالى مخبرا: أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٧٥).

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[(١)].

س: ما الحكم في هؤلاء الذين يسألون غير الله أن يكشف عنهم الضر ويجلب لهم النفع، ويطلبون المدد من غير الله ﷻ؟

ج: هؤلاء في خطر عظيم وفي ضلالٍ بعيد ويقعون بذلك في الشرك بالله، وذلك لأن الدعاء عبادة، ولأن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ولأن الله قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

فعلى هؤلاء أن يتوبوا ويوقنوا بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

س: اذكر حديثا في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؟

ج: من ذلك قول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس[(٢)] رضي الله عنهما: «يا غلام إني أعلمك كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟

ج: قال الطبري ؒ في معناها:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده، ويعني

---

(١) البخاري (حديث ٨٤٤)، ومسلم (حديث ٥٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) بإسناد يصح لشواهده، وانظر شواهده في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، وقال الترمذي عقب إخراجه: هذا حديث حسن صحيح.

بقوله: ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، المذلل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم. ومن صفة كل قاهر شيئا، أن يكون مستعليا عليه.

(فمعنى الكلام إذا: والله الغالب عباده المذللهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دوه)، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، يقول: والله الحكيم في علوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا يخفى عليه عواقب الأمور الأمور وبواديهان ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دخل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي وهو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له لوجوه، وقهر كل شيءٍ، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمته وعلوه، وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت قهره وحكمه.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون.

فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول الله ﷺ لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين نبوتك: أي الأشياء شهادتها أعظم؟! وبتعبير آخر؛ أي شيء شهادته أعظلم

الشهادات التي ترضون بها، أي ترضون شهادة من التي هي أعظم الشهادة؟!!، فبلا شك شهادة الله أعظم الشهادة، فإذا شهد ربي على شيء فشهادته أعدل الشهادات وأصدق الشهادات وقد شهد ربي لنفسه بالوحدانية كما قال: (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) [آل عمران: ١٨]، وشهد لنبيه ﷺ بالرسالة إذ قال: (مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ) [الفتح: ٢٩]، وشهد للقرآن بأنه من عنده، إذ قال: (إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر: ٩] وقال: (تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ) [فصلت: ٤٢].

فربي الذي شهادته أعظم الشهادات وقوله أصدق الأقوال، شهيد يوم القيامة بيني وبينكم يعلم الحق من الباطل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومك: أي شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة:(ٱللَّهِ)، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في [شهادة] غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب.

ثم قل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيد بيني وبينكم، بالمحق منا من المبطل، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضينا به حكما بيننا.

وقال القاسمي في محاسن التأويل:

وقال الزجاج: أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأن شهادة الله ﷻ في نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ) ففي الإنذار به دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي وفيه خبر ما كان وما يكون ووعد فيه بأشياء، فكانت كما قال.

س: ما وجه قوله تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ)؟

ج: وجه ذلك أن الله ﷻ أوحى إلي هذا القرآن الذي يشهد بنبوتي وصدقي.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَنۢ بَلَغَۚ)؟

ج: المعنى: ومن بلغه القرآن، فيكون قوله: (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ) أي: لأنذركم بالقرآن ومن بلغه القرآن من غيركم وممن جاء من بعدكم من الأمم.

وأخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال: أما (وَمَنۢ بَلَغَۚ) يقول: من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره. ثم قرأ (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف: ١٥٨].

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله: (وَمَنۢ بَلَغَۚ) أي: ومن بلغ الحلم، أي: لأنذركم به وأنذر كل بالغ عاقل.

والأول أولى، والثاني ليس بمرفوع المعنى والله أعلم.

س: اذكر الدليل على عموم رسالة النبي محمد ﷺ؟

ج: على ذلك جملة أدلةٍ، منها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]

وقوله تعالى: (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ) [الأنعام: ١٩].

وقوله تعالى: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا) [الفرقان: ١]

وقوله تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبأ: ٢٨].

وقوله ﷺ: «وبعثت إلى الناس كافة»(١).

وقوله ﷺ: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»(٢).

س: اذكر دليلا من الكتاب والسنة على مشروعية تبليغ الشريعة؟

ج: أما من كتاب الله ﷻ فقد قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة: ٦٧].

وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»(٣).

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٨)، ومسلم (حديث ٥٢١).

(٢) مسلم (حديث ٥٢١).

(٣) البخاري حديث (٣٤٦١).

وقوله ﷺ: «نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها»[١].

س: وضح معنى قوله تعالى: (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)؟

ج: المعنى، والله أعلم، سل يا رسول الله هؤلاء المشركين، وقل لهم أئنكم -وبعد ما بيناه لكم من الحجج والآيات- تشهدون أن هناك معبودات غير الله تستحق العبادة فمن ثم فأنتم تعبدونها؟!!

فإذا كان أمركم كذلك فأنا أخالفكم في ذلك ولا أشهد أبدا شهادة كشهادتكم، بل أمرت أن أقول: إنما هو إله واحد، وإنني أبرأ إلى الله من عبادتكم لهذه الآلهة وأتبرأ منها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوتك، العادلين بالله، ربا غيره: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، أيها المشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾، يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام.

(ثم قال لنبيه محمد ﷺ: (قُل)، يا محمد (لَّا أَشْهَدُ)، بما تشهدون: أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكره (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)، يقول: إنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)، يقول: قل: وإنني بريء من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئا، ولا أدعو غيره إلها).

س: من المعنيون بقوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) وما الكتاب؟

ج: أما الذين آتاهم الله الكتاب فهم اليهود والنصارى أما كتاب اليهود فالتوراة، وكتاب النصارى هو الإنجيل.

س: قوله تعالى: (يَعْرِفُونَهُ) يعرفون ماذا؟

(١) صحيح متواتر.

ج: قيل يعرفون أن الله إله واحد، وهذا المعنى يتأتى بالنظر إلى الآية التي سبقت هذه الآية.

والقول الآخر: يعرفونه، أي: يعرفون نبي الله محمدا ﷺ وصفته، وأنه رسول من عند الله كما يعرفون أبناءهم.

وقيل: يعرفون القرآن، وأنه من عند الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، التوراة والإنجيل- يعرفون أنما هو إله واحد- لا جماعة الآلهة، وأن محمدا نبي مبعوث، ﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، يعرفون أن الإسلام دين الله، وأن محمدا رسول الله، يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا، ولقد قال الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وورد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في «صحيح البخاري»[(١)] أنه قال: إنه -يعني: رسول الله ﷺ- لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظٍ، ولا سخابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

---

(١) البخاري (٢١٢٥).

وقصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه فيها الإشارة إلى ذلك؛ ففيها[1]:

أن صاحب عمورية قال لسلمان: أي بنى والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك ان تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فان [ص ٤٤٣] استطعت ان تلحق بتلك البلاد فافعل قال ثم مات وغيب فمكثت بعمورية ما شاء الله ان أمكث ثم مر بي نفر من كلب تجارا فقلت لهم تحملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه قالوا نعم فأعطيتهموها وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق لي في نفسي فبينما أنا عنده قدم عليه بن عم له من المدينة من بنى قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة فوالله ما هو الا ان رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي فأقمت بها وبعث الله رسوله فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ثم هاجر إلى المدينة فوالله انى لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس إذ أقبل بن عم له حتى وقف عليه فقال فلان قاتل الله بنى قيلة والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون انه نبي قال فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت سأسقط على سيدي قال ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول ماذا تقول قال فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال مالك ولهذا أقبل على عملك قال قلت لا شيء إنما أردت أن استثبت عما قال وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له انه قد بلغني انك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم قال فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه كلوا وامسك يده فلم يأكل قال فقلت في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت انى رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه

---

(١) أحمد (٥/ ٤٤١) بسندٍ حسن.

هدية أكرمتك بها قال فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه قال فقلت في نفسي هاتان اثنتان ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قال وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي فلما رآني رسول الله ﷺ استدرته عرف أني استثبت في شيء وصف لي قال فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكببت عليه اقبله وأبكى فقال لي رسول الله ﷺ تحول فتحولت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا بن عباس قال فأعجب رسول الله ﷺ ان يسمع ذلك أصحابه ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر واحد قال ثم قال لي رسول الله ﷺ كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية فقال رسول الله ﷺ لأصحابه أعينوا أخاكم فاعانونى بالنخل الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر يعنى الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية فقال لي رسول الله ﷺ اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فائتني أكون انا أضعها بيدي ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله ﷺ بيده فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة فاديت النخل وبقى على المال فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال ما فعل الفارسي المكاتب قال فدعيت له فقال خذ هذه فادبها ما عليك يا سلمان فقلت وأين تقع هذه يا رسول الله مما على قال خذها فان الله عز و جل سيؤدى بها عنك قال فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم وعتقت فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتنى معه مشهد.

س: وضح معنى قوله تعالى: (خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ)؟

ج: المعنى: أهلكوها وتسببوا لها في دخول النار، وذلك بإنكارهم أن محمدا رسول الله، مع معرفتهم به، وذلك أيضا بسبب شركهم بالله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ) من نعت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول.

ويعنى بقوله: (خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ)، أهلكوها وألقوها في نار جهنم، بإنكارهم محمدا أنه لله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون.

وقد قيل: إن معنى «خسارتهم أنفسهم»، أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعل الله لأهل الجنة منازل أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازل أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرط منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول الله تعالى ذكره: (ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)، [سورة المؤمنون: ١١].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)؟

ج: المعنى – والله أعلم- لا أحد أشد ظلما من شخصٍ اختلق قولا كاذبا ونسبه إلى الله ﷻ، ورب العزة لم يقله وكذا لا أحدٍ أشد ظلما من شخص كذب بآيات الله ووصفها بأنها سحر وكهانة وأساطير الأولين.

إنه لا يفوز بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وأوردوها لظى والجحيم وذلك بتقولهم على الله وتكذيبهم بآيات الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن أشد اعتداء، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا (مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)، يعني: ممن اختلق على الله قيل باطل، واخترق من نفسه عليه كذبا، فزعم أن له شريكا من خلقه، وإلها يعبد من دونه – كما قاله المشركون من عبدة الأوثان – أو ادعى له ولدا أو صاحبة، كما قالته النصارى (أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ)، يقول: أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود (إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاء في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه.

س: متى لا يفلح الظالمون؟

ج: لا يفلحون في الدنيا ولا يفلحون يوم نحشرهم.

س: ما صورة الافتراء الكاذب على الله؟

ج: لذلك صور:

منها: ادعاء أن الله له شريك، أو أن له صاحبه وولد.

ومنها: نسبة ما لم يقله ربنا إليه .

ومنها: دعوى أن الملائكة بنات الله ﷻ.

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] وما على شاكلتها من الآيات؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن هؤلاء كلهم في الدرجة العليا من الظلم، وهو سواء في ذلك. فالمفتري على الله كذبا، والذي منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه في الظلم سواء وهو في غاية الظلم ومنتهاه.

الثاني: أن ذلك ينزل منزلة الاختصاص، بمعنى: ليس من الكاذبين أظلم ممن كذب على الله، وليس من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: واذكر يوم نجمع الخلق جميعهم، وذلك يوم القيامة، و هنالك نقول لمن جعلوا لله شركاء: أين شركاؤكم الذين زعمتم أنهم لله شركاء.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

[القصص: ٦٢].

هذا وقد أورد الطبري قولا آخر فقال:

يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المفترين على الله كذبا، والمكذبين بآياته، لا يفلحون اليوم في الدنيا، ولا يوم نحشرهم جميعا- يعني: ولا في الآخرة.

ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظهر عما حذف.

وتأويل الكلام: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا،(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)، فقوله:(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ)، مردود على المراد في الكلام. لأنه وإن كان محذوفا منه، فكأنه فيه، لمعرفة السامعين بمعناه (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)، يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب، بادعائهم له في سلطانه شريكا، والمكذبين بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة (أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبا، وتدعونهم من دونه أربابا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين!

|

س: وضح معنى قولهم: (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)؟

ج: المعنى –والله أعلم-: والله وربنا ما كنا ندعو لك شريكا في دنيانا ولا دعونا أحدا سواك.

وقيل: المعنى: والله يا ربنا ما أشركنا في دنيانا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ) التفتنة: الاختبار، أي: لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي (إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين.

|

س: ما المراد بالنظر في قوله تعالى: (ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ)؟

ج: المراد بالنظر: النظر بالقلب.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والنظر في قوله تعالى: (ٱنظُرْ) يراد به نظر الاعتبار.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ)؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ) كذب المشركين قولهم: إن عبادة الأصنام تقربنا إلى الله زلفى، بل ظنوا ذلك وظنهم الخطأ لا يعذرهم ولا يزيل اسم الكذب عنهم، وكذب المنافقين باعتذارهم بالباطل، وجحدهم نفاقهم.

س: أهل الشرك كذبة في الدنيا والآخرة وضح ذلك؟

ج: أما كذبهم في الدنيا: فمتمثل في افترائهم على الله ﷻ واتخاذ الشريك له والند والولد.

أما كذبهم في الآخرة: فمنه قولهم: (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ)، وكما قال تعالى: (يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ)(١) [المجادلة: ١٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، فاعلم، كيف كذب هؤلاء المشركون العادلون بربهم الأوثان والأصنام، في الآخرة عند لقاء الله = على أنفسهم بقيلهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلقون في الدنيا، من الكذب والفرية.

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: (وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا) [النساء: ٤٢].

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:
ثُمَّ قِيلَ: كَذَبُوا بِمَعْنَى يَكْذِبُونَ، فَعَبَّرَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي، وَجَازَ أَنْ يَكْذِبُوا فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ دَهَشٍ وَحِيرَةٍ وَذُهُولِ عَقْلٍ.
وَقِيلَ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ كَذِبٌ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا دَارُ جَزَاءٍ عَلَى مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا- وَعَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّظَرِ- وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَمَعْنَى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ عَلَى هَذَا: مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ عِنْدَ أَنْفُسِنَا.

فقد أفادت الآية أنهم يصدقون يوم القيامة، وبين قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ التي مفادها أنهم قد كذبوا؟

ج: الجواب على ذلك حاصله: أن المواقف يوم القيامة تتعدد، فيوم كألف سنةٍ مما نعد تتعدد فيه الأحوال فأهل الكفر لما يروا الغفرة تتنزل على أهل الإيمان والتوحيد، يقول بعضهم لبعض: هلموا نقول لربنا والله ربنا ما كنا مشركين، فيقولون ذلك، فيختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم، فحينئذٍ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وأخرج البخاري[١] من طريق سعيد (وهو ابن جبير) قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧، الطور: ٢٥]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية.

فذكر الحديث وفيه: وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم وقال المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا.

وأخرج الطبري[٢] أيضا من طريق سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟ قال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: «تعالوا نجحد»، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]

ولمزيد انظر تفسيري لسورة النساء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٣].

---

(١) تفسير سورة فصلت (مع الفتح ٤١٨/٨)، وصورته في أوله مرسل، لكنه متصل فيما بعد.
(٢) الطبري (١٣١٤٣)، وفي سنده ابن محمد بن حميد الرازي متكلم فيه.
(٣) آية (٤٢) النساء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعلى جواز أن يكذبوا في الآخرة يعارضه قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ولا معارضة ولا تناقض، لا يكتمون الله حديثا في بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم، ويكذبون على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدم. والله أعلم.

وقال سعيد بن جبيرٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: اعتذروا وحلفوا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: أن أهل الشرك يوم القيامة لما أرادوا أن تنصرهم آلهتهم التي عبدوها في الدنيا، وذلك يوم القيامة أي: أرادوا أن تنصرهم ألهتهم وأن تشفع لهم تلك الآلهة يوم القيامة، فحينئذٍ غابت عنهم تلك الآلهة وغاب عنهم نصرها، فهذه الآلهة لم تنصر نفسها فضلا عن نصرتها لعابديها، بل وشهدت عليهم بكفرهم وتبرأت منهم.

فقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ معناه: وغابت عنهم الآلهة المفتراة من دون الله، أو غاب عنهم نصرها وغابت عنهم شفاعتها، وإن وجدت فتوجد للشهادة عليهم لا لهم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، يقول: وفارقهم الأنداد والأصنام، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها، لأنها هلكت، [وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتراء] أخذوا بما كانوا يفترونه من قيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياها، وإشراكهم إياها في سلطان الله، فضلت عنهم، وعوقب عابدوها بفريتهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: ومن أهل الشرك من يستمع إليك، واستماعه

بأذنه فقط، لا يتعداها ولا يتخطاها، إنما يسمع قراءتك وصوتك فقط بلا فهم ولا تدبر ولا تأمل ولا تعقل كالبهيمة التي تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها؛ وذلك لأننا جعلنا على قلوبهم أغطية وأغلفة فلا يصل إليها خير، وكذلك فقد جعلنا في الآذان ثقلا وصمما فإنما تسمع أحرفا فقط ولا يدخل مما تقرؤه شيء إلى القلب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام من قومك، يا محمد (مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)، يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول ولا يوعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جعل على قلبه(أَكِنَّةً).

وهي جمع«كنان»، وهو الغطاء، مثل: «سنان»،«وأسنة». يقال منه: «أكننت الشيء في نفسي»، بالألف،«وكننت الشيء»، إذا غطيته، ومن ذلك:(بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)، [سورة الصافات: ٤٩]، وهو الغطاء، ومنه قول الشاعر:

تحت عينٍ، كناننا ظل بردٍ مرحل

يعني غطاؤهم الذي يكنهم.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾، يقول تعالى ذكره: وجعل في آذانهم ثقلا وصمما عن فهم ما تتلوا عليهم، والإصغاء لما تدعوهم إليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ). [أفرد] على اللفظ يعني المشركين كفار مكة. (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم. وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم. والأكنة الأغطية جمع كنانٍ مثل الأسنة والسنان، والأعنة والعنان. كننت الشيء في كنه إذا صنته فيه. وأكننت الشيء أخفيته. والكنانة معروفة. والكنة (بفتح الكاف والنون) امرأة أبيك، ويقال: امرأة الابن أو الأخ، لأنها في كنه. (أَن يَفْقَهُوهُ) أي يفهموه وهو في موضع نصبٍ، المعنى كراهية أن يفهموه،أو

لئلا يفهموه. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ عطف عليه أي ثقلا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾؟

ج: قال عدد من أهل العلم: المعنى أن لا يفقهوه، أي: كي لا يفهموه -والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالى ذكره: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ بمعنى: أن لا يفقهوه، كما قال ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا؛ لأن «الكن» إنما جعل على القلب؛ لئلا يفقهه، لا ليفقهه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ [الانعام: ٢٥]؟

ج: وإن يرى الكافرون الجاحدون عابدوا الأوثان والأصنام كل معجزةٍ دالة على صدقك وحقيقة ما أخبرتهم به من أن الله واحد لا شريك له لا يصدقون بهذه الآية، مهما أتيتهم به من آيات؛ وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وكما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]؛ وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]...

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام، الذين جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوا عنك ما يسمعون منك ﴿كُلَّ ءَايَةٖ﴾، يقول: كل حجة وعلامة تدل أهل الحجا والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾، يقول: لا يصدقون بها، ولا يقرون بأنها دالة على ما هي عليه دالة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أن اهل الكفر يستمرون في تكذيب الآيات، وكلما جاءتهم آية كذبوا بها، حتى إذا حتى جاءوك وقد استمعوا الآيات الدالة على صدقك والتي كان ينبغي أن يؤمنوا بها إذا هم يجادلونك ويخاصمونك ويقول العتاة في الكفر منهم وأكابر المجرمين منهم والجاحدون لآيات الله، يقولون: ما هذا الذي تخبرنا به تقصه علينا إلا قصص وحكايات تؤثر عن المتقدمين الذي سلفوا ومضوا كانوا يذكرونها في مجالسهم يتفكهون بذكرها ليس إلا ذلك.

هذا، ومن أهل الكفر من كان يجادل أيضا في الآيات، فكان منهم من يقول: كيف تحرمون المنية والذي أماتها هو الله؟

فيكف تأكلون ما قتلتم بأيديكم (أي ذبحتم بأيديكم) وتذرون ما أماته الله.

ومنهم من كان يقول أيضا- إذا قيل له أنفق مما رزقك الله -(أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ) [يس: ٤٧] فيقولون حقا يريدون به باطلا.

وكان منهم من يقول: (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) [الانعام: ١٤٨]. إلى غير ذلك من صور المجادلات التي كانت تصدر منهم.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»:

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ) أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل.

ثم فسر المجادلة بقوله: (يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) أي: أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها. وعد أحسن الحديث وأصدقه، من قبيل الأباطيل وهو الذي (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ)- رتبة من الكفر لا غاية وراءها.

س: وضح قوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ)؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدهما: وأهل الشرك ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ وهم أنفسهم أيضا يتباعدون عنه أي: أنهم يتخلفون عن الإيمان، وينهون الناس أيضا عن الإيمان.

الثاني: وهم ينهون الناس عن القرآن ويبتعدون هم أنفسهم أيضا عن القرآن.

الثالث: ومنهم من يدافع عن النبي ﷺ وينهى الناس عن إلحاق الأذى به، ومع

ذلك فهو ينأى (يبتعد) عن هديه صلوات الله وسلامه عليه.

هذا، ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن أهل الكفر لا ينتفعون بالقرآن ولا بالإسلام ولا بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يدعون غيرهم ينتفع.

وأورد البعض هنا حديثا في سنده ضعف وفيه: أن النبي ﷺ قال لأبي طالب: «تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي»، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك يقينا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: وما يهلك هؤلاء الكفرة الذين يبتعدون عن النبي ﷺ وعن القرآن ويصرفون عنهما، ما يهلكون إلا أنفسهم بصنيعهم السيء، فهم الذين يجنون عواقب عملهم السيء الوخيم.

قال الطبري رحمه الله:

(﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾)، يقول: وما يهلكون بصدهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم - إلا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسبونها بفعلهم ذلك، سخط الله وأليم عقابه، وما لا قبل لها به، ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: يقول: وما يدرون ما هم مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم).

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؟

ج: أورد ابن الجوزي في «زاد المسير» جملة أقوالٍ في ذلك فقال: قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ في معنى «وقفوا» ستة أقوال:

أحدها: حبسوا عليها، قاله ابن السائب.

والثاني: عرضوا عليها، قاله مقاتل.

والثالث: عاينوها.

والرابع: وقفوا عليها وهي تحتهم.

والخامس: دخلوا إليها فعوفوا مقدار عذابها، تقول: وقفت على ما عند فلان، أي: فهمته وتبينته، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج، واختار الأخير. وقال ابن جرير: (عَلَى) ها هنا بمعنى «في».

السادس: جعلوا عليها وقفا، كالوقوف المؤبدة على سبلها، ذكره الماوردي.

والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ، والوعيد للكفار، وجواب «لو» محذوف ومعناه: لو رأيتهم في تلك الحال، لرأيت عجبا.

س: وضح معنى قول الله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)؟

ج: في ذلك وجوه:

أحدها: ولو ترى الكفار حين حبسوا في النار ودخلوها لرأيت منظرا عظيما هائلا مروعا مخوفا لرأيتهم قالوا: يا ليتنا نرجع إلى الحياة الدنيا وإذا رجعنا إليها لا نكذب بآيات ربنا وسنكون حينئذٍ من المؤمنين.

فيخبرون عن أحوالهم إذا رجعوا إلى الدنيا وعما كانوا يعملونه.

الثاني: أن معنى قوله: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ) أي: وقفوا على حافتها وشفيرها قبل أن يقذفوا فيها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، يقول: فقال هؤلاء المشركون بربهم، إذ حبسوا في النار: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، إلى الدنيا حتى نتوب ونراجع طاعة الله (وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، يقول: ولا نكذب بحجج ربنا ولا نجحدها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ونكون من المصدقين بالله وحججه ورسله، متبعي أمره ونهيه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا (يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملا صالحا، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

قال الله تعالى: (بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ) أي بل ظهر لهم حينئذٍ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسيرٍ (ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ) **[الأنعام: ٢٣، ٢٤]**.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبرا عن موسى، أنه قال لفرعون (لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ) [الإسراء: ١٠٢] الآية، وقوله تعالى مخبرا عن فرعون وقومه (وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ) **[النمل: ١٤]**.

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفةٍ من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورةٍ مكيةٍ، وهي العنكبوت، فقال (وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ) **[العنكبوت: ١١]** وعلى هذا فيكون إخبارا عن قول المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذٍ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

أما القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال:

قوله تعالى: (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ) [أي إذ] وقفوا غدا و (إذ) قد تستعمل في موضع (إذا) و (إذا) في موضع (إذ) وما سيكون فكأنه كان، لأن خبر الله تعالى حق وصدق، فلهذا عبر بالماضي.

ومعنى «إذ وقفوا» حبسوا يقال: وقفته وقفا فوقف وقوفا.

وقرأ ابن السميقع «إذ وقفوا» بفتح الواو والقاف منالوقوف (عَلَى ٱلنَّارِ) أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم.

وقيل: «على» بمعنى الباء؛ أي وقفوا بقربها وهم يعاينونها.

وقال الضحاك: جمعوان بمعنى على أبوابها.

ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم.

وفي الخبر: أن الناس كلهم يوقفون على متن جهنم كأنها متن إهالةٍ «٢»، ثم ينادي منادٍ خذي أصحابك ودعي أصحابي. وقيل: (وقفوا) دخلوها- أعاذنا الله منها- فعلى بمعنى (في) أي وقفوا في النار. وجواب (لو) محذوف ليذهب الوهم إلى كل شي فيكون أبلغ في التخويف، والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حالٍ، أو لرأيت منظرا هائلا، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير.

س: وضح معنى قوله تعالى: (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ).

ج: معنى ذلك، والله تعالى أعلم، أن أهل الكفر الذين قالوا يا يلتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ما رغبوا في الرجوع إلى الدنيا للإيمان حقيقة، ولكنهم لما رأوا أعمالهم السيئة قد ظهرت أمام أعينهم تلك الأعمال النسيئة التي عملوها خافوا مما هو حال بهم (فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) لا رغبة في الإيمان وال حبا فيه ولكن خوفا مما هو نازل بهم ومما سيلقونه من العذاب.

قال الطبري خ :

يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء العادلين بربهم، الجاحدين نبوتك، يا محمد، في قيلهم إذا وقفوا على النار: (يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) الأسى والندم على ترك الإيمان بالله والتصديق بك، لكن بهم الإشفاق مما هو نازل بهم من عقاب الله وأليم عذابه، على معاصيهم التي كانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم، فأبداها الله منهم يوم القيامة وأظهرها على رؤوس الأشهاد، ففضحهم بها، ثم جازاهم

بها جزاءهم.

يقول: بل بدا لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة التي كانوا يخفونها من قبل ذلك في الدنيا، فظهرت ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾، يقول: ولو ردوا إلى الدنيا فأمهلوا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، يقول: لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك، من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربهم ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، في قيلهم: «لو رددنا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين»، لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيمانا بالله.

وأخرج الطبري[١] بإسنادٍ حسن عن قتادة قالك ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ بل إضراب عن تمنيهم وادعائهم الإيمان لو ردوا. واختلفوا في معنى ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾ على أقوالٍ بعد تعيين من المراد، فقيل: المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم، فعاد الضمير على بعض المذكورين، قال النحاس: وهذا من الكلام العذب الفصيح.

وقيل: المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يفطن بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة، ولهذا قال الحسن: (بدا لهم) أي بدا لبعضهم ما كان يخفيه عن بعضٍ.

وقيل: بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشرك فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾

---

(١) الطبري (١٣١٨٦).

فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ). قاله أبو روقٍ. وقيل: (بَلْ بَدَا لَهُم) ما كانوا يكتمونه من الكفر، أي بدت أعمالهم السيئة كما قال: «(وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ) [الزمر: ٤٧].

قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه.

وقيل: المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، لأن بعده (وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال مخبرا عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه (من الكفر والمخالفة) (وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) أي: في قولهم: (يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)، (وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ).

أي: لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون ولقالوا: إن هي لا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)، ثم قال: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ) أي: أوقفوا بين يديه (قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ) أي: أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون، (قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه، (أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) [الطور: ١٥].

س: في قوله تعالى: (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ....) دليل على تمكن الكفر من قلوب الكفار وشدة عتوهم وعنادهم، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه أن أهل الكفر، والعياذ بالله- مع شدة ما يرونه ويطلعون عليه، حتى إنهم رأو النار بأعينهم وقفوا على شفيرها، بل ودخلوها ومع ذلك كله لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والعناد والشر والفساد.

ومما ورد في معنى الآية الكريمة قوله تعالى: (۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ) [المؤمنون: ٧٥].

وقوله تعالى: (فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) [العنكبوت: ٦٥].

وقوله تعالى: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) [الزخرف: ٥٠].

س: ما المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾؟

ج: المستفاد من ذلك: إعلامنا وإخبارنا بأن أهل الكفر ينكرون البعث، ويقولون: لا حياة بعد الموت، فإذا كان هذا شأنهم فما الحامل لهم إذن على الإيمان والتصديق؟! وما المانع من ارتكاب الفواحش؟! ومال الرادع لهم من من ظلم العباد؟!

فلنحذرهم إذن وليكن التعامل معهم في ضوء ما أخبرنا الله ﷻ به.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبرعنهم.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، يخبر عنهم أنهم ينكرون أن الله يحيي خلقه بعد أن يميتهم، ويقولون: «لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء». فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثوابا على إيمان بالله وتصديق برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقابا على كفرهم بالله ورسوله وسيءٍ من عمل يعملونه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ الآية.

ج: قال الطبري خ في معناها:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴿إِذۡ وُقِفُواْ﴾ يوم القيامة: أي حبسوا، ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ يعني: على حكم الله وقضائه فيهم. ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ يقول: فقيل لهم: أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فأجابوا فقالوا بلى والله إنه لحق. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ يقول: فقال الله تعالى ذكره لهم: فذوقوا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ يقول: بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في

الدنيا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ (وقفوا) أي حبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أي على ما يكون من أمر الله فيهم.

وقيل: (على) بمعنى (عند) أي عند ملائكته وجزائه، وحيث لا سلطان فيه لغير الله ﷻ، تقول: وقفت على فلانٍ أي عنده، وجواب «لو» محذوف لعظم شأن الوقوف.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ تقرير وتوبيخ أي أليس هذا البعث كائنا موجودا؟! ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾. وقيل: إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث و هذا العذاب حقا؟ فيقولون: (بلى وربنا) إنه حق. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

|

س: اذكر بعض الأدلة على لقاء العباد ربهم يوم القيامة؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

وأخرج ابن أبي حاتم(١) وغيره بسندٍ صحيح عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يلقى العبد يوم القيامة، فيقول: أي فل. ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع، فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. يقول: فإني أنساك كما نسيتني**».

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]؟

---

(١) ابن أبي حاتم (٧٢٢٢).

ج: المعنى، والله أعلم، قد وكس الذين انكروا البعث وخسروا في صفقتهم لما عرض عليهم الإيمان والجنة مقابله، فأبوا أن يقبلوا الإيمان واعتاضوا عنه بالكفر فجاءتهم آجالهم فجأة فهماتوا على الكفر فهنالك تنادوا: يا حسرة، يا ندم، تعالى يا حسرة، تعال يا ندم، فأنزل بنا وحل بنا على ما ضيعناه في أعمارنا وعلى ما قصرنا فيه من العميل لآخرتنا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذلك، حتى تقوم الساعة، فإذا جاءتهم الساعة بغتة فرأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم، قالوا حينئذ، تندما: (يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا).

﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، يقول تعالى ذكره: وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندما وتلهفا على عظيم الغبن الذي غبنوه أنفسهم، وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، يقول: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها، يعني: صفقتهم تلك.

و«الهاء والألف» في قوله: (فِيهَا)، من ذكر «الصفقة»، ولكن اكتفى بدلالة قوله: (قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ) عليها من ذكرها، إذ كان معلوما أن «الخسران» لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرت.

وإنما معنى الكلام: قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانه وجنته، بالكفر الذي يستوجبون به منه سخطه وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن خسارة من كذب بلقاء الله وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعال (٦) ولهذا قال: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا). وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة [الدنيا] وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها.

(٧١) أحمر
أسود

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (قَالُواْ يَحَسۡرَتَنَا) وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله يا للعجب ويا للرخاء وليسا بمنادين في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء.

قال سيبويه: كأنه قال يا عجب تعال فهذا زمن إتيانك، وكذلك قولك يا حسرتي [أي يا حسرتا] تعالي فهذا وقتك، وكذلك ما لا يصح نداؤه يجري هذا المجرى، فهذا أبلغ من قولك تعجبت. ومنه قول الشاعر:

فيـا عجبـا مـن رحلهـا المتحمـل

وقيل: هو تنبيه للناس على عظيم ما يحل بهم من الحسرة، أي يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بي من الحسرة، فوقع النداء على غير المنادى حقيقة، كقولك: لا أرينك ها هنا. فيقع النهي على غير المنهي في الحقيقة.

|

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى الحسرة؟

ج: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المسير»:

قوله تعالى: (يَحَسۡرَتَنَا) الحسرة: التلهف على الشيء الفائت، وأهل التفسير يقولون: يا ندامتنا.

فإن قيل: ما معنى دعاء الحسرة، وهي لا تعقل؟

فالجواب: أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه، جعلته نداءا فتدخل عليه «يا» للتنبيه، والمراد: تنبيه الناس، لا تنبيه المنادي.

ومثله قولهم: لا أرينك هاهنا. لفظه لفظ الناهي لنفسه، والمعنى للمنهي؛ ومن هذا قولهم: يا خيل الله اركبي، يراد: يا فرسان خيل الله.

وقال سيبويه: إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: احضر وتعال يا عجب فهذا زمانك، وأما التفريط فهو: التضييع.

|

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ سبب نزول؟

ج: لا أعلم له سبب نزول صحيح، والوارد فيه ضعيف الإسناد والله أعلم.

س: اذكر ما يدل على أن أهل الكفر يحملون الأوزار، ويحملونها علي الظهور.

ج: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[فاطر:١٨]

س: هل تتجسد الذنوب فتصبح أثقالا توضع على الظهور؟

ج: نعم، هذا يفيده ظاهر الآية الكريمة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

وقد ورد في حديث مانعي الزكاة، «**ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاةٍ يحملها على رقبته لها يعار فيقول يا محمد، فأقول: لا أملك شيئا قد بلغت**»(١).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم في معنى ذلك: وما مريد الحياة الدنيا ولذاتها الفانية ونعيمها الزائل إلا في لعبٍ ولهو، أي: أن مريد الحياة الدنيا ومبتغيها إنما يلهو ويلعب، فلا تغتروا أيها الناس بها وبما فيها فإنها ستزول وستنتهي لا محالة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، مكذبًا لهم في قبلهم ذلك: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾، أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، يقول: ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم وقربت منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها، فيها، والمتلذذ بها، والمنافس عليها، إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فتمر عليه وتكدر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندما،

(١) البخاري (١٤٠٢).

ويورثه منه ترحا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس، بها، فإن المغتر بها عما قليل يندم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: المعنى متاع الحياة الدنيا لعب ولهو، أي الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو. ونظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فقال: أنا الملك الشاب، فقالت له جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... كان في الناس غير أنك فاني

وقيل: معنى (لعب ولهو) باطل وغرور، كما قال: (وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ) [آل عمران: ١٨٥] فالمقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا). واللعب معروف، والتلعابة الكثير اللعب، والملعب مكان اللعب، يقال: لعب يلعب. واللهو أيضا معروف، وكل ما شغلك فقد ألهاك، ولهوت من اللهو.

وقيل: أصله الصرف عن الشيء، من قولهم: لهيت عنه، قال المهدوي: وفيه بعد، لأن الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم: لهيان، ولام الأول واو.

س: هل الحياة الدنيا كلها لهو ولعب؟ فكيف بمن يصلون ويصومون ويحجون ويجاهدون ويتصدقون..؟

ج: المراد -والله أعلم- أن الحياة الدنيا في نظر مبتغيها وطالبها والعامل لها دون غيرها إنما هو فيها في لهو ولعب.

وقيل: المعنى: إنما غالب أمر الحياة الدنيا في لهو ولعب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ليس من اللهو واللعب ما كان من أمور الآخرة، فإن حقيقة اللعب ما لا ينتفع به واللهو ما يلتهي به، وما كان مرادا للآخرة.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)؟

ج: المعنى -والله أعلم-: أن الدار الآخرة خير للذين يعملون في الدنيا بطاعة الله

ويتقون ما حرم الله فافهموا ذلك أيها الناس واعقلوه. واعملوا في الدنيا بطاعة الله واستقيموا على أمره واتقوا ما نهاكم عنه ربكم واجعلوا من هذه الدنيا زادا تتزودون لأخراكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **[الأنعام: ٣٢]**، يقول: وللعمل بطاعته، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرور أهلها فيها، خير من الدار التي تفنى وشيكا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾، يقول: للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وهم يرون من يخترم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع.

ففي ذلك لمن عقل مدكر ومزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها = ودليل واضح على أن لها مدبرا ومصرفا يلزم الخلق إخلاص العبادة له، بغير إشراك شيءٍ سواه معه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم– إننا نعلم تمام العلم أن أقوال هؤلاء المكذبين تحزنك وتضايقك، لا يخفى علينا شيء من ذلك.

أما الذي يقولونه فمنه: قولهم عن رسول الله ﷺ: شاعر، كاهن، كذاب، مفترٍ، مجنون، ساحر.

ويقولون عن القرآن: سحر، قول البشر، شعر، أساطير الأولين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾ أي: قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ **[فاطر: ٨]** كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ

نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) [الشعراء: ٣] (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا) [الكهف: ٦].

|

س: قوله تعالى: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) قراءتان، وضحهما مع ذكر معنيهما؟

ج: القراءتان ذكرهما الطبري في «تفسيره»:

إحداهما: (فإنهم لا يكذبونك) بكسر الدال.

الثانية: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ).

أما معنى القراءة الأولى: فهو فإن أهل الشرك والكفر والعناد لا يكذبونك فيما جئتهم به بل يعلمون صحته وصدقة ولكنهم ينكرون حقيقته بألسنتهم وأفواههم.

فقوله: (لَا يُكَذِّبُونَكَ) أي: لا ينكرون صحة ما جئتهم به من القرآن ولكن يجادلون بألسنتهم.

أما معنى القراءة الثانية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يعتقدون أنك كاذب، بل يعلمون صدق حديثك وأمانتك في الحديث، ويعتقدون أنك صادق ولكنهم عنادا واستكبارا ينكرون بألسنتهم صدقك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القرأة، ولكل واحدة منهما في الصحة مخرج مفهوم.

وذلك أن المشركين لا شك أنه كان منهم قوم يكذبون رسول الله ﷺ، ويدفعونه عما كان الله تعالى ذكره خصه به من النبوة، فكان بعضهم يقول: «هو شاعر»، وبعضهم يقول: «هو كاهن»، وبعضهم يقول: «هو مجنون»، وينفي جميعهم أن يكون الذي أتاهم به من وحي السماء، ومن تنزيل رب العالمين، قولا. وكان بعضهم قد تبين أمره وعلم صحة نبوته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوته حسدا له وبغيا.

فالقارئ: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) بمعنى أن الذين كانوا يعرفون حقيقة نبوتك وصدق قولك فيما تقول، يجحدون أن يكون ما تتلوه عليهم من تنزيل الله ومن عند الله، قولا – وهم يعلمون أن ذلك من عند الله علما صحيحا مصيب، لما ذكرنا من أنه

قد كان فيهم من هذه صفته.

وفي قول الله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ **[سورة المائدة: ٢٠]**، أوضح الدليل على أنه قد كان فيهم المعاند في جحود نبوته ﷺ، مع علمٍ منهم به وبصحة نبوته.

وكذلك القارئ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بمعنى: أنهم لا يكذبون رسول الله ﷺ إلا عنادا، لا جهلا بنبوته وصدق لهجته مصيب، لما ذكرنا من أنه قد كان فيهم من هذه صفته.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]؟

ج: يخبر الله ﷻ نبيه محمدا ﷺ بأن إخوانه من المرسلين قد كذبهم أقوامهم، فكما أن قومك كذبوك فقد كذبتهم أيضا أقوامهم، وما كان من الأنبياء من قبلك إلا الصبر على الأذى والتكذيب، ولقد تمادى بهم الصبر حتى جاءهم نصر الله ﷻ.

ولم يكن هناك ما يدفع نصر الله الذي أراده لعباده المرسلين، ولم يكن هناك مغير لما أراده وقضاه ووعد به في كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ، بل نفذ أمر الله الذي أراده ووقع ما وعد الله به من نصر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

س: ما المستفاد من إخبار الله ﷻ نبيه محمدا ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ .....﴾ الآية؟

ج: من المستفاد من ذلك: تصبير النبي ﷺ وتثبيته وتسليته، فإن الشخص إذا علم أن هناك من شاركه في نفس الابتلاء هان عليه بلاؤه، وإذا علم أن من كان قبله صبر واحتسب، صبر هو الآخر واحتسب.

ومن المستفاد أيضًا: تبشير النبي ﷺ بنصر الله.

ومن المستفاد أيضًا: تبشير النبي ﷺ بنصر الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا تسلية من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله.

يقول تعالى ذكره: إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوتك، وينكروا آيات الله أنها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كذبت رسل من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)، يقول: ولا مغير لكلمات الله و«كلماته» تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إياه النصر على من خالفه وضاده، والظفر على من تولى عنه وأدبر (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ)، يقول: ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعت بهم = حين جحدوا آياتي وتمادوا في غيهم وضلالهم أنباء وترك ذكر «أنباء»، لدلالة (مِن) عليها.

يقول تعالى ذكره: فانتظر أنت أيضا من النصرة والظفر مثل الذي كان مني فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم على ما لقوا من قومهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ أي: فاصبر كما صبروا ﴿وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾

أي: عوننا، أي فسيأتيك ما وعدت به. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مبين لذلك النصر؛ ما وعد الله ﷻ به فلا يقدر أحد أن يدفعه؛ لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده؛ و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ولا مغير لكلمات الله التي كتبها قبل الخليقة بخمسين ألف عام، ففي الحديث: «كتب الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ»(١) هذا، والمراد بالكلمات هنا: الكلمات التي كتبها الله منها أنه ينصر عباده المؤمنين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا قال: (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ) أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وقال تعالى: (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ)

وانظر ما تقدم من قول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ) فيه خمسة أقوال:

أحدها: لا خلف لمواعيده، قاله ابن عباس.

والثاني: لا مبدل لما أخبر به وما أمر به، قاله الزجاج.

والثالث: لا مبدل لحكوماته وأقضيته النافذة في عباده، فعبرت الكلمات عن هذا المعنى، كقوله تعالى: (وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) [الزمر: ٧١] أي: وجب

---

(١) مسلم (حديث ٢٦٥٣).

ما قضي عليهم. فعلى هذا القول، والذي قبله، يكون المعنى: لا مبدل لحكم كلمات الله، ولا ناقض لما حكم به وقد حكم بنصر أنبيائه بقول: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾

والرابع: أن معنى الكلام معنى النهي، وإن كان ظاهره الإخبار فالمعنى: لا يبدلن أحد كلمات الله، فهو كقوله: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

والخامس: أن المعنى: لا يقدر أحد على تبديل كلام الله، وإن زخرف واجتهد، لأن الله تعالى صانه برصين اللفظ، وقويم الحكم، أن يختلط بألفاظ أهل الزيغ، ذكر هذه الألفاظ الثلاثة ابن الأنباري.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم-: إن كان يا رسول الله قد شق عليك إعراض المعرضين عنك وتكذيب المكذبين لك، وكذبوا بالآيات التي جئتهم بها فلا تجزع ولا تحزن، فليس هناك أبلغ من الآيات التي جئتهم بها وليس هناك أدل على نبوتك منها فأيقن أن الهداية من عند الله ولو شاء الله لهدى هؤلاء المكذبين، فإن رضيت بهذا وأمرت به فكن صابرا محتسبا، وإن لم ترض بهذا فافعل ما استطعت فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض تبحث فيه عن آية يؤمنون بها فافعل، ولن يؤمنوا أبدا، وكذا لو استطعت أن تبحث عن مصعدٍ تصعد به إلى السماء كي تأتيهم بآية فافعل، ولن تستطيع، فكن موقنا بأن الهادي هو الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن كان عظم عليك، يا محمد، إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذي بعثتك به، فشق ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: فإن استطعت أن تتخذ سربا في الأرض مثل نافقاء اليربوع، وهي أحد جحرته فتذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: أو مصعدا تصعد فيه، كالدرج وما أشبهها، كما قال الشاعر:

لا تحرز المرء أحجاء البلاد، ولا يبنى له في السماوات السلاليم

﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ ﴾، منها يعني بعلامةٍ وبرهان على صحة قولك، غير الذي أتيتك فافعل.

وقال أيضا:

وترك جواب الجزاء فلم يذكر، لدلالة الكلام عليه، ومعرفة السامعين بمعناه. وقد تفعل العرب ذلك فيما كان يفهم معناه عند المخاطبين به، فيقول الرجل منهم للرجل: «إن استطعت أن تنهض معنا في حاجتنا، إن قدرت على معونتنا»، ويحذف الجواب، وهو يريد: إن قدرت على معونتنا فافعل. فأما إذا لم يعرف المخاطب والسامع معنى الكلام إلا بإظهار الجواب، لم يحذفوه.

لا يقال: «إن تقم»، فتسكت وتحذف الجواب، لأن المقول ذلك له لا يعرف جوابه إلا بإظهاره، حتى يقال: «إن تقم تصب خيرا»، أو: «إن تقم فحسن»، وما أشبه ذلك. ونظير ما في الآية مما حذف جوابه وهو مراد، لفهم المخاطب لمعنى الكلام قول الشاعر:

فبحظ مما نعيش، ولا تذ هب بك الترهات في الأهوال

والمعنى: فبحظ مما نعيش فعيشي.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ) أي: شق عليك، من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك، أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

(فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ) أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئا، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ) ولكن حكمته تعالى، اقتضت أنهم يبقون على الضلال.

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ) الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها على منازلها.

س: اذكر بعض الأدلة على أن الهداية من الله ﷻ؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ).

۞ قوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا) [السجدة: ١٣].

۞ قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ) [القصص: ٥٦].

۞ قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) [يونس: ١٠٠].

۞ قوله تعالى: (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام: ١٤٩].

س: ما المراد بقوله: (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) [الأنعام: ٣٥]؟

ج: المراد –والله أعلم– لا تكونن من الجاهلين بأن مرد الأمور إلى الله، وأن نفسا لن تهتدي إلا إذا أراد الله لها الهداية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يقول: فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختيارا لا اضطرارا، فإنك إذا علمت صحة ذلك لم يكبر عليك إعراض من أعرض من المشركين عما تدعوه إليه من الحق، وتكذيب من كذبك منهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) أي من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحل، أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين. وقيل: الخطاب له والمراد الأمة، فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى.

والثاني: لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم ويكفر بعضهم.

والثالث: لا تكونن ممن لا صبر له؛ لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين.

قَالَ تَعَالَى: إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ
يُرۡجَعُونَ ٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ
عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي
ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ
ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ
فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ
يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ
قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا
ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ
أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ
وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ
وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ
ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧ وَمَا نُرۡسِلُ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

يَحْزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ٤٩ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ
وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي
ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن
يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ
يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ
عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا
بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ
بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ
عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا
بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤ وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ
أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ
مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨

الكلمة	معناها
﴿ءَايَةٌ﴾	معجزة.
﴿دَآبَّةٍ﴾	كل شيء يدب على الأرض.
﴿مَّافَرَّطْنَا﴾	ما تركنا- ما ضعينا.
﴿صُمٌّ﴾	لا يسمعون (الحق).
﴿وَبُكْمٌ﴾	لا يتكلمون (بالحق).
﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾	ظلمات الكفر.
﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾	شدة الفقر والضيق في المعيشة.
﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾	الأمراض والأسقام والعلل العارضة في الأجسام.
﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾	يدعون ربهم متضرعين متذللين لله بالطاعة والدعاء.
﴿بَأْسُنَا﴾	عذابنا- الفقر والشدة.
﴿فَلَوْلَآ﴾	فَهَلَّا.
﴿تَضَرَّعُواْ﴾	دعوا- استكانوا- خضعوا.
﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	غلظت قلوبهم.
﴿وَزَيَّنَ﴾	حسَّن.
﴿نَسُواْ﴾	تركوا- لم يعملوا.
﴿بَغْتَةً﴾	فجأة.
﴿مُّبْلِسُونَ﴾	آيسون – حزينون- نزل بهم شرٌّ لا يستطيعون دفعه- هلكى – انقطعت حُججهم.
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾	استؤصلوا- هلكوا عن آخرهم.
﴿يَصْدِفُونَ﴾	يعرضون- يعدلون- يصدون.
﴿أَتَىٰكُمْ﴾	نزل بكم- حلَّ بكم.
﴿جَهْرَةً﴾	عيانًا (يرونه بأعينهم).

الكلمة	معناها
﴿يُحْشَرُوٓاْ﴾	يجمعوا.
﴿وَلِيٌّ﴾	ناصرٌ.
﴿شَفِيعٌ﴾	من يشفع لهم لاستنقاذهم من العذاب.
﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾	الصباح.
﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾	المساء.
﴿فَتَنَّا﴾	اختبرنا- ابتلينا.
﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾	تفضَّل الله عليهم.
﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾	لتظهر- لتتضح.
﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾	يقص القصص الحق- يقص بالحق- يقضي القضاء الحق.
﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾	خيرُ من قضى وحكم وعدل.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: إنما يستجيب لك ولما تدعو إليه من الإيمان والإسلام من رزقه الله حسن الاستماع وهم الذين فتح الله آذانهم وأسماعهم للاستماع للحق والإصغاء له والإنصات غليه وسهل الله لهم اتباع الرشد وسلوك طرائق الهداية، فهؤلاء الذين رزقهم الله الفهم وحسن الاستماع ولم يختم على سمعهم ولم يجعل في آذانهم وقرا هم الذين يجيبونك إلى ما تدعهم إليه من توحيد الله ﷻ وعبادته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يكبرن عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك،إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهل لهم اتباع الرشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، يقول: والكفار

يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم.

هذا، وقد أخرج الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ)، قال: هذا مثل المؤمن، سمع كتاب الله فانتفع به وأخذ به وعقله. والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم، وهذا مثل الكافر أصم أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به.

وقوله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ) أي: إنما يستجيب لدغائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) وقوله: (وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) يعني: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد فقال: (وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم.

|

س: من الذين عناهم الله ﷻ بقوله: (وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ).

ج: قيل في تفسيرها قولان:

أحدهما: أن الموتى هم الكفار، ودليلهك قوله تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ) [الانعام: ١٢٢] فالكافر ميت.

وبدليل قوله: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ) وهم المؤمنون، والموتى هم الكفار.

الثاني: أن الموتى هم الأموات عموما مؤمنهم وكافرهم.

واختار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوجه الاول، وقال في قوله: (ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ).

وأما قوله: (ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)، فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئا، فيثيب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعد أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدا منهم مثقال ذرة.

س: من القائلون ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ج: قائلوا ذلك هم: أهل الشرك والعناد.

س: اذكر بعض هذه الآيات التي طلبها المشركون؟

ج: من ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

ومن ذلك قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

ومن ذلك قولهم: اجعل لنا الصفا ذهبا! إلى غير ذلك.

س: قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون ماذا؟

ج: لا يعلمون قدرة الله وعظيم قدره وأيضا: لا يعلمون ما في الآيات – إذا نزلت– من العقوبات لهم إذا لم يؤمنوا بها.

وأيضا: لا يعلمون خطورة قولهم وشدة خطئه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ذكر في هذه

الآية الكريمة: أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله: (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)، وبين في موضع آخر أن حكمة عدم إنزالها: أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها لنزل بهم العذاب العاجل، كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته، فعقروها (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) [الأعراف: ٧٧]، فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال، وذلك في قوله: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) [الإسراء: ٥٩]، وبين في مواضع أخر أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات ؛ لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها وغيرها، وتلك الآية هي هذا القرآن العظيم ؛ وذلك في قوله: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) [العنكبوت: ٥١]، فإنكاره جل وعلا عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل على أنه أعظم وأفخم من كل آية، وهو كذلك ؛ ألا ترى أنه آية واضحة، ومعجزة باهرة، أعجزت جميع أهل الأرض، وهي باقية تتردد في آذان الخلق غضة طرية حتى يأتي أمر الله، بخلاف غيره من معجزات الرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – فإنها كلها مضت وانقضت.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) [الأنعام: ٣٨] الآية

ج: معنى ذلك –والله أعلم– أنه ما من شيء يدب على الأرض برجليه، أو ببطنه أو بأي شيء، وكذا ولا طائر يطير في السماء أيا كان هذا الطائر إلا جماعات أمثالكم يا بني آدم، لم أسماؤهم، ولهم أفهامهم، ولهم أساليب تخاطبهم، وقد علمهم ربي ﷻ وأحصى أعمالهم وكتبها في اللوح المحفوظ قبل خلقهم وكذا أحصى عليهم أعمالهم في الدنيا حتى يوافيهم بها يوم يجمعهم، فإذا كان هذا شيء من علم ربي ﷻ فهل تخفى عليه منكم يا بني آدم خافية؟ كلا بل قد أحاط بكم وبأفعالكم بل وبكل شيء علما.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن الله غافلا عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون! وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناسا مجنسة وأصنافا مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب، ثم إنه تعالى ذكره مميتها ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. يقول: فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى أن لا يضيع أعمالكم، ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها، أيها الناس، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا، إذ كان قد خصكم من نعمه، وبسط عليكم من فضله، ما لم يعم به غيركم في الدنيا، وكنتم بشكره أحق، وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير، الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون.

|

س: قد علم أن كل طائر إنما يطير بأجنحة، فلماذا ذكر قوله ولا طائر يطير بجناحيه؟

ج: قال بعض العلماء: ذلك للمبالغة والتأكيد، والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: فما وجه قوله: (وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ)؟ وهل يطير الطائر إلا بجناحيه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟

قيل: قد قدمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا الكتاب بلسان قوم، وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ويستعملونه في منطقهم خاطبهم. فإذ كان من كلامهم إذا

أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا: «كلمت فلانا بفمي»، و«مشيت إليه برجلي»، و«ضربته بيدي»، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامهم، ويستعملونه في خطابهم، ومن ذلك قوله تعالى ذكره: (إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ) [سورة ص: ٢٣].

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ)؟

ج: قال بعض العلماء: المعنى: أنها أمثالكم في الخلق والموت والبعث، كما أنكم خلقتم فقد خلقت وستموت كما تموتون وتبعث كما تبعثون.

وقيل: أمثالكم في الأخلاق؛ منهم الطيب والخبيث، وقيل: أمثالكم في العلم بما يضرها وما ينفعها، وقيل: أمثالكم فيما بينها فيعرف بعضهم أسماء بعض وخصال بعض ونحو ذلك والله أعلم.

هذا، ومن الأدلة على أن الدوابك أمم قوله ﷺ:« أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أفي أن قرصتك نملة حرقت أمة من الأمم تسبح؟، ألا هلا نملة واحدة؟!»[١].

|

س: كيف قيل: (مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ)، وهنالك أمور لم تذكر في الكتاب العزيز؟

ج: إذا قيل: إن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ فلا إشكال وإذا قيل: إن المراد القرآن، فإن لم يكن الشيء مذكور فيه صراحة فقد ذكر فيها ضمنا، والله أعلم.

قال السمعاني في «تفسيره»:

(مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ) فإن قال قائل: نرى كثيرا من الأحكام ليست في الكتاب، فما معنى قوله: (مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ)؟ قيل: ما من شيء إلا وأصله في الكتاب، وقيل: ما قاله الرسول، فإنما قاله من الكتاب؛ لأنه قد قال في خبر معروف:«**أوتيت القرآن ومثله**» وقد قال الله - تعالى - (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ) [النجم: ٣، ٤] فكل ما ثبت بالسنة فكأنه ثابت في الكتاب، وقيل: معناه: ما

(١) مسلم (٢٢٤١)، والبخاري بنحوه (بدء الخلق: ٣٣١٩).

فرطنا في الكتاب من شيء تقع الحاجة إليه.

س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.

ج: قيل: المراد به: اللوح المحفوظ، وعلى أكثر أهل العلم.

وقيل: المراد: الكتاب فيه أعمالهم التي عملوها، والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريا أو بحريا، كما قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث.

وقيل: أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: « ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فأجمل في هذه الآية وآية (النحل) ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شي إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وقال السعدي في «تفسيره»:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ،

على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

وفي هذه الآية، دليل على أن الكتاب الأول، قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب، هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ).

س: ما المراد الحشر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد بالحشر: جمعهم يوم القيامة للحساب، وهذا يؤيده قول رسول الله ﷺ «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تقاد الشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

وقد ورد في الباب(٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال لي: «**يا أبا ذر، أتدري فيم انتطحتا**»؟ قلت: لا! قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**»، قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما.

والثاني أن المراد بحشرها: موتها، وقد ورد عن(٣) ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: موت البهائم حشرها.

قال الطبري رحمه الله:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن كل دابة وطائر محشور إليه. وجائز أن يكون معنيا بذلك حشر القيامة وجائز أن يكون معنيا

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٨٢).
(٢) الطبري (١٣٢٢٧)، وفي سنده بعض الضعف.
(٣) الطبري (١٣٢٢٢)، (١٣٢٢٣).

به حشر الموت وجائز أن يكون معنيا به الحشران جميعا، ولا دلالة في ظاهر التنزيل، ولا في خبر عن النبي ﷺ أي ذلك المراد بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، إذ كان «الحشر»، في كلام العرب الجمع، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ١٩]، يعني: مجموعة.

فإذ كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذكره جامعا خلقه إليه يوم القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوب القول في ذلك أن يعم بمعنى الآية ما عمه الله بظاهرها وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشور إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة، إذ كان الله تعالى ذكره قد عم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، ولم يخصص به حشرا دون حشر.

أما القرطبي ﷺ:

فقال بعد أن أورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تقاد الشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١) وأورد جملة أقوال ثم قال:

الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجري عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به، وروي عن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: «**يا أبا ذر هل تدري فيما انتطحتا؟**» قلت: قال: «**لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما**» وهذا نص.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: والذين كذبوا بما أخبرناهم به من قدرتنا على كل شيءٍ وإحاطتنا بكل شيء، وبصحة ما جاء به رسولنا ﷺ، هؤلاء المكذبون دوما لا يسمعون حقا، وإن سمعوا لا يفهمون ولا يفقهون، ودوما كلامهم مظلم، وكلامهم مظلم، فهم غارقون في الظلمات لا يخرجون منها إلا إذا شاء الله، وقد شاء الله أن يضلهم فلا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى.

(١) صحيح وتقدم قريبًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بحجج الله وأعلامه وأدلته ﴿صُمٌّ﴾، عن سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾، عن القيل به ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يعني: في ظلمة الكفر حائرا فيها، يقول: هو مرتطم في ظلمات الكفر، لا يبصر آيات الله فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأه فدبره وأحكم تدبيره، وقدره أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه = لم يخلقه عبثا، ولم يتركه سدى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردده في غمراتها، غافل عما الله قد أثبت له في أم الكتاب، وما هو به فاعل يوم يحشر إليه مع سائر الأمم.

ثم أخبر تعالى ذكره أنه المضل من يشاء إضلاله من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم منهم من أحب هدايته، فموفقه بفضله وطوله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أم الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأن بيده الخير كله، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم -وهو الذي لا يسمع -أبكم -وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟ كما قال تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]، وكما قال ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي القرآن ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ أي لا يسمعون بأسماعهم ولا

ينطقون بألسنتهم، نزلهم بمنزلة من لا يسمع ولا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة، وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة والعناد والتقليد لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، والمعنى كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات فضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تقدم في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة.

ثم بين الله سبحانه أن الأمر بيده ما شاء فعل فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ أي أضله عن الإيمان ﴿وَمَن يَشَأۡ﴾ أن يهديه ﴿يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي على دين الإسلام لا يذهب به إلى غير الحق ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة، وفيه دليل على أن الهادي والمضل هو الله تعالى، وهذا عدل منه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

س: وضح موقع الكاف في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾.

فقال بعض نحويي البصرة: «الكاف» التي بعد «التاء» من قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ إنما جاءت للمخاطبة، وتركت «التاء» مفتوحة = كما كانت للواحد. قال: وهي مثل «كاف» «رويدك زيدا»، إذا قلت: أرود زيدا = هذه «الكاف» ليس لها موضع مسمى بحرف، لا رفع ولا نصب، وإنما هي في المخاطبة مثل كاف «ذاك». ومثل ذلك قول العرب: «أبصرك زيدا»، يدخلون «الكاف» للمخاطبة.

وقال آخرون منهم: معنى: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾، أرأيتم. قال: وهذه «الكاف» تدخل للمخاطبة مع التوكيد، و«التاء» وحدها هي الاسم، كما أدخلت «الكاف» التي تفرق بين الواحد والاثنين والجميع في المخاطبة، كقولهم: «هذا، وذاك، وتلك، وأولئك»، فتدخل «الكاف» للمخاطبة، وليست باسم، و«التاء» هو الاسم للواحد والجميع،

تركت على حال واحدة، ومثل ذلك قولهم: «ليسك ثم إلا زيد»، يراد: ليس = و«لا سيك زيد»، فيراد: ولا سيما زيد = و«بلاك» فيراد،«بلى» في معنى: «نعم» = و«لبئسك رجلا ولنعمك رجلا». وقالوا: «انظرك زيدا ما أصنع به» = و«أبصرك ما أصنع به»، بمعنى: أبصره. وحكى بعضهم: «أبصركم ما أصنع به»، يراد: أبصروا = و«انظركم زيدا»، أي انظروا. وحكي عن بعض بني كلاب: «أتعلمك كان أحد أشعر من ذي الرمة؟ » فأدخل «الكاف».

|

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ الآية.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها:

وتأويل الكلام: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام: أخبروني، إن جاءكم، أيها القوم، عذاب الله، كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة = أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة، أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أو إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾، يقول: إن كنتم محقين في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه؛ ولهذا قال: إن ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾.

ج: المعنى- والله أعلم-: بل إذ آتاكم عذاب الله أو جاءتكم الساعة لن تتجهوا بدعائكم إلى غير الله ﷻ بل ستخلصون الدعاء لله وحده كما قال ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧] وحينئذ ستنسون كل الآهلة التي عبدتموها مع الله ﷻ. فحينئذ يذهب الله عنكم السوء ويصرف عنكم المكروه إذا دعوتموه، ولكن ذلك موكول إلى مشيئته، فإن شاء كشف العذاب وإن شاء أبقاكم فيه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مكذبًا لهؤلاء العادلين به الأوثان: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيءٍ غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهةٍ ووثنٍ وصنمٍ، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم وبه تستغيثون وإليه تفزعون دون كل شيءٍ غيره. ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يقول: فيفرج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادر على كل شيءٍ ومالك كل شيءٍ دون ما تدعونه إلها من الأوثان والأصنام. ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ يقول: وتنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه فتجعلونه له ندا من وثنٍ وصنمٍ، وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ الآية.

س: ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ مقيدة لآيات أخرى من آيات الدعاء، وضح ذلك؟

ج: نعم قد ذكر ذلك بعض أهل العلم، فقالوا: إن قوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ

إِلَيۡهِ إِن شَآءَ).

وكذا قوله تعالى: (أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ) [البقرة: ١٨٦]، مقيد بقوله تعالى: (فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ).

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ)

ج: المعنى –الله أعلم-: وكما أخذنا قومك ببعض الشدة حتى يرجعوا إلى طريق الله ﷻ، فكذلك أرسلنا رسلا إلى قومهم فأخذناهم بالفقر والأسقام والعلل لعلهم يتجهون إلينا بالدعاء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: متوعدا لهؤلاء العادلين به الأصنام ومحذرهم أن يسلك بهم إن هم تمادوا في ضلالهم سبيل من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا ومخبرا نبيه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ)، يا محمد،(إِلَىٰٓ أُمَمٖ)، يعني: إلى جماعات وقرون (مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ)، يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتلاء(بِٱلۡبَأۡسَآءِ)، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة (وَٱلضَّرَّآءِ)، وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام.

وقال أيضًا:

وقوله: (لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ) يقول: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إلي، ويخلصوا لي العبادة، ويفردوا رغبتهم إلي دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إلي بالإنابة. وفي الكلام محذوف قد استغني بما دل عليه الظاهر من إظهاره دون قوله: (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم)، وإنما كان سبب أخذه إياهم، تكذيبهم الرسل وخلافهم أمره لا إرسال الرسل إليهم. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام:(وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ) رسلا فكذبوهم،(فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ).

و«التضرع»: هو«التفعل» من«الضراعة»، وهي الذلة والاستكانة.

س: استدل البعض بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ على تهذيب أنفسهم بتجويعها ومنعها الملذات، ما مدى صحة الاستدلال؟

ج: الاستدلال بهذه الآية الكريمة في غير محله، فقد كان النبي ﷺ يلبس جميل الثياب، ويأكل اللحم في حال وجوده وتوافره فلما دخل عليه بطعام غير اللحم ذات يوم قال ألم أر البرمة (يعني التي بها للحم).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن عطية: استدل العباد في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال، والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعري بهذه الآية.

قلت: هذه جهالة ممن فعلها وجعل هذه الآية أصلا لها، هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها، فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة، وفي التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدم بيانه في (المائدة) وسيأتي في (الأعراف) من حكم اللباس وغيره، ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والانعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها- إلى غير ذلك مما امتن به- كبير فائدةٍ، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدم في آخر (البقرة) بيان فضل المال ومنفعته والرد على من أبى من جمعه، وقد نهى النبي ﷺ عن الوصال مخافة الضعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردا على الأغنياء الجهال.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

ج: المعنى، والله أعلم، فهلا إذا حل بهؤلاء عذابنا المتمثل في البأساء والضراء استكانوا وتذللوا لربهم ودعوه وسألوه، ولكن ما حدث ذلك بل اشتدت قسوة قلوبهم وحسن لهم الشيطان أعمال السوء التي يعملونها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتأويل الكلام إذا: فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها، الذين لم يتضرعوا عند أخذناهم بالبأساء والضراء، ﴿تَضَرَّعُواْ ﴾، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه.

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهمن وأصروا على ذلك، واستكبروا على أمر ربهم، استهانة بعقاب الله، واستخفافا بعذابه، وقساوة قلب منهم، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، يقول: وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم.

س: كثيرا ما يؤخذ الناس بالعذاب لإرجاعهم إلى طريق ربهم ﷻ، وكثيرا ما تسلط عليهم المحن والابتلاءات حتى يرجعوا إلى ربهم، دلل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

س: ما صحة هذا الحديث إذا رأيت الله يعطي عبده في دنياه إنما هو استدراج[(١)] ثم تلا هذه الآية (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) والحمد لله رب العالمين؟

ج: في رجال سند هذا الحديث بعض الكلام، ولكن له عدة شواهد من الكتاب العزيز كالآية المذكورة، وكقول الله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [آل عمران: ١٧٨] وغير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)؟

ج: المعنى، والله أعلم، أننا لم أخذنا هؤلاء الظلمة بأنواع الفقر والشدة، والمرض، وذلك حتى يتضرعوا ويستكينوا ويجأرون إلينا، فلما لم يجد ذلك ولم ينفع وسعنا عليهم في الأرزاق وأمددناهم بالأموال والأولاد استدراجا منا لم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أحللنا عليهم عذابنا فجأة فإذا هم آيسون من رحمتنا، فإذا هم في حزنٍ دائم نادمون على ما صدر منهم لا يستطيعون دفع ما حل بهم ونزل بهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذا بالله من مكره، ولهذا قال: (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) أي: من الأموال والأولاد والأرزاق (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي: على غفلة (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) أي: آيسون من كل خير.

س: كيف يؤاخذ هؤلاء القوم على النسيان في قوله (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) والنسيان ليس من فعلهم؟

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٢٤٣، ١٣٢٤٤)، ولفظه:

أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله تعالى ذكره يعطي العباد ما يسألون على معاصيهم إياه، فإنما ذلك استدارج منه لهم»! ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية.

ج: المراد بالنسيان هاهنا ترك العمل، وكثيرا ما يأتي النسيان ويراد به ترك العمل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وكما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم استؤصل الذين ظلموا، وأبيدوا من أصلهم فلم يبق منهم أحد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾، فاستؤصل القوم الذين عتوا على ربهم، وكذبوا رسله، وخالفوا أمره، عن آخرهم، فلم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتة إذ جاءهم عذاب الله.

وقال أيضا:

و﴿دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ﴾، الذي يدبرهم، وهو الذي يكون في أدبارهم وآخرهم.

يقال في الكلام: «قد دبر القوم فلان يدبرهم دبرا ودبورا» إذا كان آخرهم، ومنه قول أمية:

فأهلكوا بعذابٍ حص دابرهم فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

|

س: إهلاك أهل الظلم نعمة من الله ﷻ دلل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال في الفاجر يموت «مستراح منه»(١).

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾؟

---

(١) البخاري (حديث ٦٥١٢)، ومسلم (حديث ٩٥٠).

ج: معنى ذلك، والله أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين بك المشركين بالله العابدين للوثن والصنم، يا هؤلاء أرأيتم إن أصابكم الله بالصمم، والعمى وذهب بأفهامكم فلم تعودوا تعقلون، من الإله غير الله الذي يأتيكم بما أخذه الله منكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام، المكذبين بك: أرأيتم، أيها المشركون بالله غيره، إن أصمكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فطبع عليها، حتى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجة، ولا تفهموا مفهوما، أي إله غير الله الذي له عبادة كل عابد (يَأْتِيكُم بِهِۗ)، يقول: يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى رده عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم نبيه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: (قُلْ) لهؤلاء المكذبين المعاندين (أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ) أي: سلبكم إياهما كما أعطاكموها، فإنه (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) [الملك: ٢٣].

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي؛ ولهذا قال: (وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم) كما قال: (أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ) [يونس: ٣١] وقال: (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ) [الأنفال: ٢٤].

س: لماذا وحد السمع في قوله تعالى: (سَمْعَكُمْ)

ج: قال بعض العلماء: لأنه مصدر يدل على الجمع.

س: لماذا وحدت الهاء في قوله: (يَأْتِيكُم بِهِ) وقد ذكر السمع والأبصار والقلوب وهذا جمع.

ج: أجاب الطبري على ذلك بقوله:

فإن قال قائل: وكيف قيل: (مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ)، فوحد «الهاء»، وقد مضى الذكر قبل بالجمع فقال: (أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم)؟

قيل: جائز أن تكون «الهاء» عائدة على «السمع»، فتكون موحدة لتوحيد «السمع» = وجائز أن تكون معنيا بها: من إله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة، فتكون موحده لتوحيد «ما». والعرب تفعل ذلك، إذا كنت عن الأفعال وحدت الكناية، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفاعيل، كقولهم: «إقبالك وإدبارك يعجبني».

وقد قيل: إن «الهاء» التي في (بِهِ) كناية عن «الهدى».

وبنحو ما قلنا في تأويل قوله: (يَصْدِفُونَ)، قال أهل التأويل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ) أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال (ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ) أي: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) أي: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)؟

ج: المعنى، والله أعلم، انظر يا رسول الله كيف ننوع الآيات ونتابعها على هؤلاء ثم هم بعد ذلك يعرضون عن هذه الآيات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: (ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ)، يقول: انظر

كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينيبوا، (ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ)، يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر، عن الادكار والاعتبار يعرضون.

س: وضح معنى الآية الكريمة (قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء المعرضين عنك المكذبين لما جئت به، المشركين بالله، أرأيتم يا هؤلاء إن حل بكم عذاب الله عزوجل وعقابه فجأة أو أتاكم وأنتم تتوقعون نزوله بكم وترونه عيانا وهو قادم عليكم، من الذي سيصاحبه الهلاك ولا ينفك عنه العذاب ولا يزول بل يلازمه إن الذي سيصاحبه الهلاك ويدوم عليه العذاب هو الظالم لنفسه باتخاذه شريكا لله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، المكذبين بأنك لي رسول إليهم: أخبروني (إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ)، وعقابه على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إياي بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي(بَغۡتَةً)، يقول: فجأة على غرة لا تشعرون (أَوۡ جَهۡرَةً)، يقول: أو أتاكم عذاب الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه(هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، وترك عبادة من يستحق علينا العبادة؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً) بغتة أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم (أَوۡ جَهۡرَةً) أي: ظاهرا عيانا (هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)أي: إنما: كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله [ﷻ] وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) **[الأنعام:٨٢]**

س: قد ينزل على الناس عذاب عام يعم المؤمن والكافر على السواء فكيف يجاب إذن على قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

ج: في حالة نزول العذاب العام، فإن المؤمن، وإن مات فإنه يرحم بعد هذا الموت، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال في ميتٍ «**مستريح ومستراح منه**»(١) فالمؤمن يستريح من نصب الدنيا وتعبها، والفاجر يستريح منه الناس والدواب.

فعليه فإذا نزل العذاب عاما فالفاجر يلازمه العذاب ولا ينفك عنه، فهو عند حلول البلاء به في الدنيا معذب وعند الموت معذب وفي القبر معذب وعند البعث معذب ويوم الحساب معذب، وهذا العذاب حق العذاب، عافانا الله والمسلمين.

هذا، وكمزيدٍ من الإيضاح لما سبق، أقول، وبالله التوفيق إن بيتا ما قد يهدم على قومٍ– عافانا الله من الهدم والتردي، – فيموت بسبب هذا الهدم أقوام فريق مؤمن وفريق كافر فالمؤمن الذي مات بهذا الهدم شهيد، والكفار الذي قد مات بسبب هذا الهدم انتقم الله منه.

فقوله ﷺ: «**وصاحب الهدم شهيد**»(٢) منزل على المؤمنين.

وقوله تعالى في شأن أهل الكفر: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] والله أعلم.

س: قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦] مبشرين من؟ ومنذرين من؟

ج: مبشرين أهل الطاعة والإيمان بالجنة ومنذرين العصاة وأهل الكفر بالنار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاء منا لهم على طاعتنا وبإنذار من عصانا وخالف أمرنا،

(١) صحيح وقد تقدم.
(٢) البخاري (حديث ٦٥٣)، ومسلم (حديث ١٩١٤).

عقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، جزاء منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف: ٥٦] أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات.

س: كيف يقال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وقد أمر الرل عليهم صلوات الله وسلامه بأمور أخر كالجهاد في سبيل الله وغير ذلك؟

ج: الظاهر، والله أعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ متعلق بجانب من الجوانب، تلك المعلقة بالدعوة إلى الله وهداية الناس فيقال إن أمر الهداية ليس بموكولٍ إلى الرسل، بل إلى الله ﷻ، وما على الرسل إلا البلاغ، بتبشير من آمن بالجنة وإنذار من عصى بالنار.

س: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ يفيد أمرا؟ وضحه.

ج: إيضاحه أن التصديق القلبي فقط لا يكفي ولكن لا من عمل الصالحات، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] إلى غير ذلك من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] فلابد من العمل الصالح.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ج: ذهب كثير من أهل العلم إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا خوف عليهم مما هم مقبلون عليه فلا خوف عليهم من عذاب الله وعقابه، لا خوف عليهم عند الاختضار ولا خوف عليهم في القبر ولا خوف عليهم عند البعث والحساب ولا خوف عليهم من النار.

وأقول، وبالله التوفيق، ولا خوف عليهم أيضا في دنياهم فالله ﷻ بتولاهم.

أما قوله تعالى: (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) فقد قالوا في معناه لا هم يحزنون على ما قد فات، فلا يحزنون على أبناء تركوهم ولا على بنات، ولا على أزواج، ولا على أموال لا يحزنون على ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا وكذلك لا يحزنون في دنياهم على شيء فاتهم فإن أمر الدنيا زائل ومنتهى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ)، يقول: فمن صدق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحا في الدنيا (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)، عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعده الله لأعدائه وأهل معاصيه (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، عند ذلك على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

س: وضح معنى قوله تعالى: (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ....)

ج: المعنى الإجمالي قل يا محمد لهؤلاء المعرضين عنك المكذبين لك الجاحدين نبوتك من أهل الشرك وغيرهم، لا أدعي ربوبية، فلست بربٍ عنده الخزائن يتحكم فيها كيف يشاء، ولست بعالم للغيب الذي اختص ربنا نفسه بالعلم به، ولست بملكٍ من الملائكة بل إنما أنا بشر أتبع الوحي الذي أوحاه الله إلي وأمتثله، ثم قل لهؤلاء أيضا هل يستوي الأعمى عن الحق المعرض عنه والبصير به المتبع له أفلا تتفكرون فيما أذكره لكم وأحاججكم به.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المنكرين نبوتك: لست أقول لكم إني الرب الذي له خزائن السماوات والأرض، وأعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون ربا إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره(وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ)، لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ)، يقول: قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، إلا وحي الله الذي يوحيه إلي،

وتنزيله الذي ينزله علي، فأمضي لوحيه وأئتمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عذركم على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟

وذلك تنبيه من الله تعالى نبيه ﷺ على موضع حجته على منكري نبوته من مشركي قومه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لست أملكها ولا أتصرف فيها، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله، ﷻ، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ أي: ولا أدعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحي إلي من الله، ﷻ، شرفني بذلك، وأنعم علي به؛ ولهذا قال: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبرٍ ولا أدنى منه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ **[الأنعام: ٣٧]** فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترن من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به. والخزانة ما يخزن فيه الشيء.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح المراد بالأعمى والبصير في هذه الآية ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾؟

ج: المراد -والله أعلم-: كما سلف أن الأعمى في هذا المقام هو الأعمى عن الحق المعرض عنه المكذب به، فالتكذيب الذي صدر منه وما زال يصدر والعناد والشقاق كل ذلك يترك سوادا على قلبه فيرى الحق باطلا ويرى الباطل حقا ولا يهتدي إلى وجوه الخير والصواب.

أما البصير، فكما سلف أيضا أنه من نور الله قلبه بالإيمان والطاعات فأصبح يرى الحق حقا ويبادر باتباعه ويرى الباطل باطلا ويسارع إلى اجتنابه وإتقانه.

هذا، وقد أورد الطبري[١] بإسنادٍ حسنٍ عن قتادة في قوله: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ)، الآية، قال: «الأعمى»، الكافر الذي قد عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، و«البصير»، العبد المؤمن الذي أبصر بصرا نافعا، فوحد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ) أي: هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه ولم ينقد له: (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) وهذه كقوله تعالى: (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) [الرعد: ١٩].

|

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ)؟

ج: في معناها قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ) [الرعد: ١٦].

وقوله تعالى: (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ).

وقوله تعالى: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ) [الزمر: ٢٢].

وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) [الزمر: ٩].

|

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ...)؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وأنذر بهذا القرآن قوما وسينتفع بإنذارك منهم الذين إذا ذكروا تذكروا، وهم الذين يخشون البعث والعقاب ويرجون الأجر والثواب، هم الذين يعتقدون أن لا ولي يتولاهم إذا أراد الله بهم سوءا، ولا ناصر ينصرهم إن أراد الله بهم عذابا، ولا شفيع يشفع لهم إن ماتوا على كفرهم، أنذر هؤلاء وخصهم بمزيد من الإنذار لعلهم يتقون النار لعلهم يتقون غضب الله عَزَّ وَجَلَّ وعقابه،

(١) الطبري (١٣٢٥٧).

فيعملون بالطاعات ويتركون المحرمات.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علما منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله (لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ)، أي ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم (وَلِيٌّ)، ينصرهم فيستنقذهم منه، (وَلَا شَفِيعٌ)، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتناب معاصيه.

وقيل:(وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟)، ومعناه: يعلمون أنهم يحشرون، فوضعت«المخافة» موضع«العلم»، لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك.

وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار = وصد عنه المشركون به، بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد (إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) [المؤمنون: ٥٧] والذين (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ) [الرعد: ٢١].

(ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ) أي: يوم القيامة. (لَيْسَ لَهُم) أي: يومئذٍ (مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم، (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله، ﷻ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ أي بالقرآن. والإنذار الإعلام وقد تقدم في« البقرة».
وقيل: « به» أي بالله. وقيل: باليوم الآخر.

وخص﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾ لأن الحجة عليهم أوجب، فهم خائفون من عذابه، لا أنهم يترددون في الحشر، فالمعنى« يخافون» يتوقعون عذاب الحشر.

وقيل: « يخافون» يعلمون، فإن كان مسلما أنذر ليترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق.

وقال الحسن: المراد المؤمنون.

قال الزجاج: كل من أقر بالبعث من مؤمنٍ وكافرٍ.

وقيل: الآية في المشركين أي أنذرهم بيوم القيامة.

والأول أظهر.

﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي من غير الله ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨] والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار.

ومن قال الآية في المؤمنين قال: شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن، وفي التنزيل: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي في المستقبل وهو الثبات على الايمان.

س: أهل الكفر في كثيرٍ من الأحيان يستنكفون عن الإيمان بسبب إيمان الضعفاء والفقراء، فلا يريدون أن يكونوا والفقراء والضعفاء شيئا واحدا تجمعهم مجالس واحدة فمن ثم يطلبون طرد أهل الإيمان، ولكن يثبت الله رسله ويحثهم على مجالسة أهل الإيمان ولو كانوا ضعفاء وفقراء، دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[الأنعام: ٥٢]

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؟

ج: نعم صح لها سبب نزولٍ، أخرج مسلم(١) في صحيحه عن سعدٍ رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾.

س: ما المراد بدعائهم بالغداة والعشي:

ج: قال بعض أهل العلم: إن المراد بذلك إقامتهم الصلوات المكتوبة وكانت في أول الأمر صلاتان صلاة الصبح وصلاة العصر(٢) ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك(٣).

وقال آخرون: إن المراد بذلك ذكرهم لله عز وجل.

---

(١) مسلم (مع النووي ١٥/١٨٧).

(٢) رواه الطبري (١٣٢٧٦) بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، هما الصلاتان: صلاة الصبح وصلاة العصر.

(٣) وعند الطبري بإسناد صحيح، عن مجاهد وإبراهيم ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، قال: الصلوات الخمس.

(١١٥) أحمر
أسود

وقال آخرون: إن المراد بذلك عبادتهم ربهم ﷻ.

والذي يظهر أن كل ذلك داخل في دعاء ربهم، فالظاهر أنهم يصلون الصلوات المكتوبات ويذكرون الله بكرة وعشيا، وكذلك يديمون عبادة ربهم ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمدا ﷺ أن يطرد قوما كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، و«الدعاء لله»، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلاما وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابده بما هو عامل له.

وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، لأن الله قد سمى «العبادة»، «دعاء»، فقال تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ **[سورة غافر: ٦٠]**. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاص من الدعاء.

ولا قول أولى بذلك بالصحة، من وصف القوم بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصون منها بشيء دون شيء.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؟

ج: يبدو والله أعلم أن معناها يبتغون ثوابه يوم يلقونه.

وقد يكون المعنى، والله أعلم، أنهم لا يراءون بل يخلصون في عملهم ذلك لله ﷻ.

بيد أن هذا التفسير وذاك لا ينفيان صفة الوجه عن الله ، بل صفة الوجه ثابتة لله ﷻ من عدة أدلة، وليس وجهه سبحانه كوجه خلقه، إذ الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **[الشورى: ١١]**.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها:

فتأويل الكلام إذا: يا محمد، أنذر القرآن الذي أنزلته إليك، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون فهم من خوف ورودهم على الله الذي لا شفيع لهم من دونه ولا نصير، في العمل له دائبون إذ أعرض عن إنذارك واستماع ما أنزل الله عليك المكذبون بالله واليوم الآخر من قومك، استكبارا على الله = ولا تطردهم ولا تقصهم، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه، وقرب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فإن الذين نهيتك عن طردهم هم الذين يدعون ربهم فيسألونه عفوه ومغفرته بصالح أعمالهم، وأداء ما ألزمهم من فرائضه، ونوافل تطوعهم، وذكرهم إياه بألسنتهم بالغداة والعشي، يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنو من رضاه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، يقول: ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء = وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، حذار محاسبتي إياك بما خولتهم في الدنيا من الرزق.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، جواب لقوله: «ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء».

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في جواب الذين ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١- ١١٣].

أي: إنما حسابهم على الله عَزَّ وَجَلَّ وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

أما القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاستفاض في ذلك فقال:

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي من جزائهم ولا كفاية «٥»

أرزاقهم، أي جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره.

(من) الأولى للتبعيض، والثانية زائدة للتوكيد.

وكذا(مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ) المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، فإن فعلت كنت ظالما.

وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام، وهذا مثل قوله: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله.

(فَتَطْرُدَهُمْ) جواب النفي.

(فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) نصب بالفاء في جواب النهي، المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك، عليهم من شي فتطردهم، على التقديم والتأخير.

والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه.

وقد تقدم في« البقرة» مستوفى. وقد حصل من قوة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبيه.

س: وضح المراد بقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا)؟

ج: الظاهر، والله أعلم أن معناها أننا جعلنا بعض الخلق فتنة لآخرين فجعلنا الفقراء المؤمنين فتنة للأغنياء الكافرين فيقول الكافر صاحب المال أهذا الفقير المؤمن أفضل مني؟ فيستنكف عن الإسلام والإيمان.

وفي الجملة فالخلق بعضهم لبعض فتنة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

قا الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ) أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم

ببعض، ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ، كان غالب من اتبعه في أول بعثته، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشرف إلا قليل، كما قال قوم نوحٍ لنوحٍ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧] الآية،

وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل،

والغرض أن مشركي قريشٍ كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير، لو كان ما صاروا إليه خيرا ويدعنا، كقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: أ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وفي الحديث الصحيح(١): «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

س: جعل الله بعض الخلق فتنة لبعض وضح ذلك؟

ج: نعم قد جعل الله عزوجل بعض الخلق فتنة لبعض قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم﴾ [محمد: ٤] إلى ذلك من الآيات وإيضاح ذلك، والله أعلم، أن الله جعل الغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، فيقول الفقير لماذا

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

أغنى الله فلانا وأفقرني! فيفتن بذلك ويحسد الغني على ما أعطاه الله!

والغني هو الآخر يزدري الفقير ويحتقره فيفتن بذلك ويتعالى عليه ويظلمه!!

والمريض فتنة للصحيح، فيظلمه الصحيح ويزدريه!

والصحيح فتنة المريض فيعترض المريض على القضاء ويحسد!!

وكذا الجميلة فتنة للدميمة، والدميمة هي الأخرى فتنة لها!!

ومن رزقت بولد فتنة للعاقر، والعاقر فتنة لها هي الأخرى!!

والذكي فتنة للغبي والغبي فتة للذكي!!

والعالم فتنة للجاهل، والجاهل فتنة للعالم!!

والكافر فتنة للمؤمن والمؤمن فتنة للكافر!

والمؤمن الضعيف فتنة للكافر صاحب المال، فينظر الكافر صاحب المال إلى من من الله عليهم بالإيمان كالمال، يظن أن من رزق مالا لابد وأن يرزق الهداية إلى وجوه الحق والصواب! فيفتن بالمؤمن ويكفر بما آمن به المؤمن، إذ هو لا يريد أن يتساوي به لا في مالٍ ولا في إيمان وهداية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: (لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ)، يقول تعالى: اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعز والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضله الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: (أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم)، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء (مِّنۢ بَيۡنِنَآ)، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاء بهم، ومعاداة للإسلام وأهله.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ) [الأنعام: ٥٣] أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس، ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا - ﷺ: «أأشراف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، قال: هم أتباع الرسل» .

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء ؛ لأنا أحق منهم بكل خير كما قال هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، إنكارا منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعما منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

والمعنى: أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل ومتاعا من ضعفاء المسلمين اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير، وأن اتباع الرسول - ﷺ - لو كان خيرا ما سبقوهم إليه، ورد الله افتراءهم هذا بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن الله ﷻ أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، فالشاكرون لنعم الله عليهم -ويعلمهم الله- هم الذين يستحقون الهداية وإن كانوا فقراء والجاحدون لنعم الله -والله بهم عليم- يصرفهم الله عن الإيمان لكونهم قد أعرضوا عن شكر الله ولم يقبلوا هديه الذي بعث نبيه به إليهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وهذا منه تعالى ذكره إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقرير لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرا نعمتي، ممن هو لها كافر.

فمني على من مننت عليه منهم بالهداية، جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحد إلا جزاء على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره، لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي.

س وضح: المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ ...﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المعنيين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم الذين نهي النبي ﷺ عن طردهم، فيكون المعنى إذا جاءك هؤلاء المؤمنون فرحب بهم وبشرهم ولا تقنطهم من رحمة الله.

والآخر: أن المعني بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم قوم من المؤمنين كانوا قد أشاروا على النبي ﷺ بطرد أهل الإيمان الفقراء فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ...﴾ ندم المؤمنون الذين أشاروا بذلك، واستغفروا لذنوبهم فقيل للنبي ﷺ أقبل توبة هؤلاء وأقبل عذرهم، وأخبرهم بأن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه من عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية، قول من قال: المعنيون بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ غير الذين نهى الله النبي ﷺ عن طردهم،

لأن قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ خبر مستأنف بعد تقضي الخبر عن الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم،

ولو كانوا هم لقيل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وفي ابتداء الله الخبر عن قصة هؤلاء وتركه وصل الكلام بالخبر عن الأولين ما ينبئ عن أنهم غيرهم.

فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرون بذلك قولا وعملا، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقه، ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبشرهم برحمة الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلا منه وإحسانا وامتنانا.

س: اذكر بعض الأدلة على أن الله كتب على نفسه الرحمة؟

ج: أخرج البخاري(١) في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي**».

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؟

ج: قال بعض العلماء: إن المراد بالجهالة الخطأ، والمعنى من اقترف سوءا عن غير قصدٍ بل بجهلٍ منه.

وقال آخرون: ويظهر أن قولهم أولى بالصواب- أن كل من عصى الله فهو جاهل لمعصيته التي عصى، فهؤلاء الذين جهلوا لعصيانهم إذا تابوا وأقبلوا معتذرين عن سالف ذنوبهم ورجعوا عنها وأصلحوا من شأنهم وعملهم، فرحب بهم وقل لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي أمان من الله عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، أنه من اقترف منكم ذنبا، فجهل

---

(١) البخاري (٧٤٥٣)، وانظر مسلم كذلك (٢٧٥١)؛ ففيه أحاديث كثيرة في بيان سعة رحمة الله ﷻ.

باقترافه إياه ثم تاب وأصلح «فإنه غفور»، لذنبه إذا تاب وأناب، وراجع العمل بطاعة الله، وترك العود إلى مثله، مع الندم على ما فرط منه ﴿رَّحِيمٌ﴾، بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه.

س: التوبة تستلزم الإصلاح دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ﴾ [المائدة: ٣٩].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟

ج: معنى ذلك، والله تعالى أعلم، وكما فصلنا لك الآيات في هذه السورة وبيناها لك، تلك الآيات الدالة على قدرتنا وعلى وحدانيتنا، تلك الآيات التي تحاجج بها أهل الشرك وتبين لهم بها ما هم عليه من شر وفسادٍ فدائما نفصل لك الآيات ونوضحها لك ونبينها حتى تظهر لك وتتضح لك ولمن آمنوا بك طرائق أهل الإجرام حتى تنقيها ويتقيها المؤمنون.

ويحتمل أن يكون هناك وجه آخر، وهو كما بينا لك حججنا وآياتنا في سور أخر نبينها لك أيضا في هذه السورة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمد، إلى هذا الموضع، حجتنا على المشركين من عبدة

الأوثان، وأدلتنا، وميزناها لك وبيناها، كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم، فنبينها لك، حتى يبين حقه من باطله، وصحيحه من سقيمه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقرئ: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: وليستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين.

س: كيف قيل ولتستبين سبيل المجرمين، مع أن سبيل المؤمنين تظهر أيضا.

ج: أجاب السمعاني على ذلك بقوله:

فإن قيل: لم خص سبيل المجرمين؟

قيل: تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين؛ فحذف أحدهما اختصارا، والأصح أن تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين عن سبيل المؤمنين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين عن عبادة الله إذا دعوك إلى عبادة آلهتهم، أو إذا استمروا على شركهم وكفرهم، قل لهم قد نهاني الله عَزَّوَجَلَّ أن أعبد آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، ولقد نهاني الله عن اتباع أهوائكم فإن خالفت أمر ربي عَزَّوَجَلَّ وعبدت آلهتكم التي تعبدون أو اتبعت أهواءكم فيما تريدون مخالفا بذلك أمر ربي فقد حدت عن طريق الحق وطريق الصواب، وابتعدت عن طريق الهداية والرشاد.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك، العادلين به الأوثان والأنداد، الذين يدعونك إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الأوثان: إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه، وإن فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسلكت على غير الهدى، فصرت ضالا مثلكم على غير استقامةٍ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين بالله المكذبين لك ولم جئتهم به إني على بصيرة وبرهان من الله ﷻ، وعلى بيانٍ قد تبينته وحججٍ علمنيها ربي ﷻ، أما أنتم قد أعرضتم عن برهان ربكم وكذبتم بربكم ﷻ، فقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي وكذبتم بربكم ﷻن وكذا تحتمل معنى آخر: وهو وكذبتم ببرهان ربكم وحجج ربكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين لك إلى الإشراك بربك ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، أي إني على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي ﴿مِّن رَّبِّي﴾، يقول: من توحيدي، وما أنا عليه من إخلاص عبودته من غير إشراك شيء به.

وكذلك تقول العرب: «فلان على بينة من هذا الأمر»، إذا كان على بيان منه، ومن ذلك قول الشاعر:

أبينة تبغون بعد اعترافه … وقول سويدٍ قد كفيتكم بشرا

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ يقول: وكذبتم أنتم بربكم = و«الهاء» في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ من ذكر الرب جل وعز.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرةٍ من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾

أي: من العذاب، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده.

س: وضح معنى ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء الذين استعجلوك بأمورٍ وطلبوها منك، إن الذي تطلبونه مني وتستعجلوني به ليس لي ولا عندي إنما هو من عند الله يفعل ما يشاء ويقضي بما يريد يقضي بيني وبينكم بالحق، وهو خير من قضى بالحق وحكم وعدل وهو خير من ميز الحق من الباطل وأنصف وانتصر.

أما عن الشيء استعجله المشركون رسول الله ﷺ فقد استعجلوا أمورا وسألوا أمورا قد استعجلوا العذاب فقالوا: ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧].

وأيضًا فقد طلبوا معجزات فقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾، يقول: ما الذي تستعجلون من نقم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر.

وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيه محمدا ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسوله إليهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣]. وقالوا للقرآن: هو أضغاث أحلام.

وقال بعضهم: بل هو اختلاق اختلقه.

وقال آخرون: بل محمد شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون = فقال الله لنبيه ﷺ: أجبهم بأن الآيات بيد الله لا بيدك، وإنما أنت رسول، وليس عليك إلا البلاغ لما أرسلت به، وأن الله يقضي الحق فيهم وفيك، ويفصل به بينك وبينهم، فيتبين المحق منكم والمبطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾، أي: وهو خير من بين وميز بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة له إليه ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور، لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين.

وقال أيضا: ما الحكم فيما تستعجلون به، أيها المشركون، من عذاب الله وفيما بيني وبينكم، إلا الله الذي لا يجور في حكمه، وبيده الخلق والأمر، يقضي الحق بيني وبينكم، وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه.

س: وضح معنى قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: أنه لو كان بيدي ما تسألوني إياه كتعجيل العذاب عليكم أو إتيانكم بمعجزةس من المعجزات، لكانت هذه أو تلك الفيصل بيني وبينكم، فلو كان العذاب بيدي وسألتموني إنزال العذاب واستعجلتموني بذلك لأنزلته عليكم فهلكتم وانتهى ما بيني وبينكم، وكذلك لو كانت المعجزات بيدي لآتيناكم بها ومن لم يؤمن عذب وأخذ كما أخذ من كان قبله من أهل الظلم والعناد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأوثان، المكذبيك فيما جئتهم به، السائليك أن تأتيهم بآيةٍ استعجالا منهم بالعذاب: لو أن بيدي ما تستعجلون به من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾، ففصل ذلك أسرع الفصل بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين الذين يضعون عبادتهم التي لا

تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم وحال القضاء بيني وبينهم.

وقال أيضًا:

وإنما هذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ أن يقول لمن استعجله فصل القضاء بينه وبينهم من قوله بآية يأتيهم بها: لو أن العذاب والآيات بيدي وعندي، لعاجلتكم بالذي تسألوني من ذلك، ولكنه بيد من هو أعلم بما يصلح خلقه مني ومن جميع خلقه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ أي من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره.

والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بالمشركين وبوقت عقوبتهم.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ها هنا حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحدٍ؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**». قال: «**فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين**»، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئا**»[(١)].

وأورد الحافظ ابن كثير خ سؤالا فقال:

---

(١) البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؟

فالجواب -والله أعلم -: أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين -وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا -فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.

قَالَ تَعَالَى:

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ
وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ وَهُوَ ٱلَّذِي
يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ
أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠
وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ
أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى
ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢ قُلۡ
مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ
لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم
مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ
أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ
يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل
لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧
وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ
يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا
عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ
يَتَّقُونَ ٦٩ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ
أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي
ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى

(١٣١) أحمر
أسود

ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ
تُحۡشَرُونَ ٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ
وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي
ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣

(١٣٢) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿مَفَاتِحُ﴾	مفاتيح: (جمع مِفتاح)- خزائن.
﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾	يقبض أرواحكم.
﴿جَرَحْتُم﴾	اكتسبتم – عملتم- اكتسبتم بجوارحكم.
﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾	يحييكم في النهار.
﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾	لينتهي أجلكم الذي كتبه الله لكم.
﴿ٱلْقَاهِرُ﴾	الغالب- المتعالي عليهم بقدرته.
﴿حَفَظَةً﴾	ملائكة يحفظون الأعمال ويحصونها، وكذا يحفظون بني آدم مما لم يكتب عليهم.
﴿رُسُلُنَا﴾	ملائكتنا.
﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾	لا يقصِّرون- لا يضيِّعون.
﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾	سيدهم وخالقهم.
﴿تَضَرُّعًا﴾	استكانةً وخضوعًا- جهرًا.
﴿وَخُفْيَةً﴾	في الخفاء.
﴿يَلْبِسَكُمْ﴾	يخلطكم.
﴿شِيَعًا﴾	فِرقًا.
﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾	يجعلكم فِرقًا متناحرة.
﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾	يسلط بعضكم على بعض فيقتل بعضكم بعضًا ويؤذي بعضكم بعضًا.
﴿نُصَرِّفُ﴾	ننوع -نكرر- نبين- نوضح.
﴿يَفْقَهُونَ﴾	يفهمون.
﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾	لست عليكم بحفيظ ولا رقيب.
﴿نَبَإٍ﴾	خبر.

الكلمة	معناها
﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾	قرار يستقر عنده- حقيقة- وقت يتحقق فيه- نهاية ينتهي عندها- وقت يظهر عنده صدق الخبر من كذبه.
﴿يَخُوضُونَ﴾	يستهزئون- يكذبون- يسخرون.
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾	فانصرف عنهم- لا تجالسهم.
﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾	التذكر.
﴿وَذَرِ﴾	اترك.
﴿تُبْسَلَ﴾	تُسلّم بكسبها – تفضح- تُجزى- تُرتهن- تُحبس.
﴿وَلِيٌّ﴾	من يتولاها.
﴿شَفِيعٌ﴾	من يشفع لها (لإنقاذها من العذاب).
﴿تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾	تفتدي بكل فدية.
﴿أُبْسِلُوا۟﴾	أُسلموا- جوزوا- ارتهنوا- حُبسوا- مُنعوا من الخير.
﴿حَمِيمٍ﴾	الماء الذي بلغ أعلى درجات غليانه.
﴿أَنَدْعُوا۟﴾	أنعبد- أنسأل.
﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾	نرجع إلى الوراء- نبتعد عما نريد- نُحرم مما نسأل- نرجع إلى الجهل بعد العلم، وإلى الكفر بعد الإيمان.
﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾	لعبت بهواه- قادته إلى ما تريد- قادته إلى الهاوية.
﴿حَيْرَانَ﴾	متحير لا يهتدي.
﴿تُحْشَرُونَ﴾	تجمعون.
﴿ٱلصُّورِ﴾	قرنٌ ينفخ فيه.
﴿ٱلْغَيْبِ﴾	ما غاب عن الحواس والأبصار (ما لا تحسونه ولا تبصرونه).
﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾	الأمور التي تشاهدونها.
﴿ٱلْحَكِيمُ﴾	ذو الحكمة (في كل شيء، وفي تدبير الأمور وتصريفها)
﴿ٱلْخَبِيرُ﴾	الخبير بكل ما يعملونه وما يكسبونه، وبكل شيءٍ.

س: ما مفاتح الغيب؟

ج: مفاتح الغيب خمس، بينها رسول الله ﷺ بقوله: «مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]»[1].

س: اذكر بعض الأدلة على أن الغيب لا يعلمه إلا الله؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

س: هل من رابطٍ بين قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ والآية التي سبقتها؟ وإذا كان رابط فوضحه؟

ج: الظاهر أن هناك رابطا بينهما، ووجه هذا الرابط يتلخص في أن أهل الكفر لما استعجلوا أمورا؛ (كنزول العذاب عليهم، أو مجيئهم بالمعجزات) قيل لهم: إن العلم بهذا الذي طلبتموه وسألتموه موكول إلى الله ﷻ، وليس لي ولا لكم؛ فالله ﷻ يعلم متى ينزل؛ فعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وكذلك فهو يعلم ما هو ظاهر أو خفي في بركم وبحركم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذا: والله أعلم بالظالمين من خلقه، وما هم مستحقوه وما هو بهم صانع، فإن عنده علم ما غاب علمه عن خلقه فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه، ولن يعلموه ولن يدركوه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾، يقول: وعنده علم ما لم يغب أيضا عنكم، لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد.

(١) البخاري (٤٦٢٧).

فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء، لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم.

فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب.

|

س: هل هناك أمور مستقبلية أطلع الله ﷻ عليها البشر؟

ج: نعم، هناك أمور مستقبلية أطلع الله عليها البشر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى في شأن نزول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢- ٤]. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن ذلك ما أخبر الله به من البعث والجزاء والحساب، ومن ذلك سائر الأشراط الصغرى والكبرى للساعة التي بينها رسول الله ﷺ؛ كطلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال، و النار التي تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا، وكالنساء الكاسيات العاريات المائلات والمميلات اللواتي رءوسهم كأسنمة البخت المائلة، وكذلك تكليم السباع للإنس، وتكليم الحجر والشجر للمسلم إلى غير ذلك.

و هناك أمور من أمور الغيب أطلع الله عليها بعض رسله؛ فقد تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وهناك أمور من أمور الغيب لا يعلمها إلا الله؛ كالوارد في الآية الكريمة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وتفسير النبي ﷺ لها، والله أعلم.

س: أي ورقة هذه التي قال الله عنها: (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)؟

ج: تلك أي ورقة سقطت من أية شجرة كانت في أي مكان كانت، والله أعلم.

|

س: وضح المراد بالرطب واليابس؟

ج: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الرطب واليابس، خمسة أقوال:

أحدها: أن الرطب: الماء، واليابس: البادية.

والثاني: الرطب. ما ينبت، واليابس: ما لا ينبت.

والثالث: الرطب: الحي، واليابس: الميت.

والرابع: الرطب: لسان المؤمن يذكر الله، واليابس: لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله.

والخامس: أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى، فهو يعلمه رطبا، ويعلمه يابسا.

|

س: ما لامراد بالكتاب المبين؟

ج: قيل: المراد بالكتاب المبين: اللوح المحفوظ، وقوله: (مُّبِينٍ) قيل في معناه: إنه يبين أن ما كتب فيه صحيح، وذلك بتحقق وقوعه كما هو مثبت فيه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويعني بقوله: (مُّبِينٍ) أنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)؟

ج: قال الطبري خ في معنى ذلك:

ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في

اللوح المحفوظ، مكتوب ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها.

قال السعدي خ في «تفسير» هذه الآية الكريمة:

هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه.

وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين،

وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة إلا يعلمها.

(وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ) من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التيينشئ منها أصناف النباتات.

(وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ) هذا عموم بعد خصوص (إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ) وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.

وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

هذا كله، تقرير لألوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام.

س: أليس من نام فروحه معه؟

ج: بلى، روحه في جسمه.

س: فكيف قيل إذن: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ)؟

ج: أجاب على ذلك السمعاني في «تفسيره» حيث قال:

قيل هو قبض النفس المميزة المتصرفة، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ)؟

ج: المعنى –والله أعلم– والله هو الذي يقبض أرواحكم إذا أنتم نمتم بالليل، ويعلم ما اكتسبتموه وما عملتموه في الأعمال في نهاركم.

قال الطبري خ :

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وقل لهم، يا محمد، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم (وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ)، يقول: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

ومعنى «التوفي»، في كلام العرب استيفاء العدد، كما قال الشاعر:

إن بني الأدرم ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد

بمعنى: لم تدخلهم قريش في العدد.

وأما «الاجتراح» عند العرب، فهو عمل الرجل بيده أو رجله أو فمه، وهي «الجوارح» عندهم، جوارح البدن فيما ذكر عنهم. ثم يقال لكل مكتسب عملًا «جارح»، لاستعمال العرب ذلك في هذه «الجوارح»، ثم كثر ذلك في الكلام حتى قيل لكل مكتسب كسبا، بأي أعضاء جسمه اكتسب: «مجترح».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى: (إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)[آل عمران: ٥٥] ، وقال تعالى: (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ

ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ) [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفاتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ) أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: (سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ) [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: (وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ) [القصص: ٧٣] أي: في الليل (وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ) [القصص: ٧٣] أي: في النهار كما قال: (وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا) [النبأ: ١٠، ١١] ولهذا قال هاهنا: (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ) أي: ما كسبتم بالنهار (ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ) أي: في النهار.

س: قوله تعالى: (ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ) في ماذا؟

ج: في النهار.

س: ما المراد بالأجل المسمى؟

ج: المراد: آجالكم يا بني آدم التي كتبها الله لكم، فما من أحدٍ إلا وله أجل قد أجله الله إليه فلن يموت شخص حتى يستوفي أجله؛ فالأجل المسمى: العمر الذي كتبه الله للأشخاص.

س: الحفظة هؤلاء يحفظون ماذا؟

ج: يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها ويكتبونها ويحفظون أجسامهم أيضًا بإذن الله.

قال الشنقيطي خ «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ﴾، لم يبين هنا ماذا يحفظون، وبينه في مواضع أخر؛ فذكر أن ما يحفظونه بدن الإنسان بقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من

خير وشر، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؟

ج: قال الطبري ﷺ في معنى ذلك:

يقول تعالى ذكره: (وَهُوَ الْقَاهِرُ)، والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلل المعلو عليه لذلته (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً)، وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلا ونهارا، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يضيعون.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله في الآية الكريمة: حفظه-يا بن آدم- يحفظون عليك علمك ورزقك وأجلك إذا توفيت ذلك قبضت إلى ربك.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)، يقول تعالى ذكره: إن ربكم يحفظكم برسل يعقب بينها، يرسلهم إليكم بحفظكم وبحفظ أعمالكم، إلى أن يحضركم الموت، وينزل بكم أمر الله، فإذا جاء ذلك أحدكم، توفاه أملاكنا الموكلون بقبض الأرواح، ورسلنا المرسلون به (وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)، في ذلك فيضيعونه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) أي وهو الذي قهر كل شيءٍ وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيءٍ، (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كقوله (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كقوله (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ).

وكقوله ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾.

وقوله ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ الآية.

وقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي احتضر وحان أجله ت﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ أي ملائكة موكلون بذلك.

وقال كذلك:

وقوله ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من الفجار ففي سجين – عياذا بالله من ذلك.

وقال السعدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك، فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الموكلون بقبض الأرواح.

﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ذلك فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

س: هل ملك الموت له أعوان؟

ج: نعم، لملك الموت أعوان، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فدل قوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ على أن ملك الموت له أعوان.

س: كيف الجمع بين هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

فالأولى: أفادت أن الذي يتوفى الأنفس هو الله، والثانية: أنه ملك الموت، والثالثة: أنهم الملائكة؟

ج: وجه الجمع بين ذلك أن الله ﷻ يأمر ملك الموت، وملك الموت يأمر أعوانه، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل: (تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا)،«والرسل» جملة وهو واحد؟ أو ليس قد قال: (قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ) [سورة السجدة: ١١] ؟

قيل: جائز أن يكون الله تعالى ذكره أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون«التوفي» مضافا وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان وجلد من جلدوه بأمر السلطان، إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ)؟

ج: قال الطبري ﷀ في معنى ذلك:

يقول يقول تعالى ذكره: ثم ردت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق، (أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ)، يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه (وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ)، يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها، لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، (لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ) [سورة سبأ: ٣].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال تعالى ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٤٧﴾ [الكهف: ٤٧] إلى قوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم– قل هؤلاء المشركين: يا أهل الشرك، إذا ضللتم وتحيرتم في البراري والقفار والصحاري والوديان، وكذا إذا لعبت بكم الأمواج في البحار وأظلمت عليكم فيها الليالي، وأشرفتم على الغرق والهلاك من الإله الذي تدعونه من دون الله، إن الآلهة التي تدعونها من دون الله تضل عنكم في هذه الأوقات، وتتجهون إلى الله عز وجل وحده بالدعاء لكشف الضر وزوال البلاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧].

فإذا مسكم ما قد ذكر أقبلتم على الله عز وجل وقدمتم الوعود: لئن أنجانا من هذا البلاء؛ لنقدمن شكرا وتوحيدا وإخلاصا لله عز وجل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ﴾، إذا ضللتم فيه فتحيرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة = ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له = غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء ﴿تَضَرُّعٗا﴾، منكم إليه واستكانة جهرا ﴿وَخُفۡيَةٗ﴾، يقول: وإخفاء للدعاء أحيانا، وإعلانا وإظهارا تقولون: لئن أنجيتنا من هذه يا رب = أي من هذه الظلمات التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، يقول: لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون

من كنا نشركه معك في عبادتك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهرا وسرا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: بعدها.

قال الله [تعالى] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أي: بعد ذلك «﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

س: كثيرا ما يقدم أهل الشرك الوعودن وكثيرا ما يعقدون العهود، ثم بعد ذلك إذا هم ينكثون دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قولهم: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

[التوبة: ٧٥، ٧٦]

وقوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ) [يونس: ١٢]، وقوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ).

وقوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا).

|

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ)؟

ج: قال الطبري ﭬ في معنى ذلك:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة، إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر: الله القادر على فرجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من هم الضلال وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهم = لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضر، ثم أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحال بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه.

وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرض منكم لإنزال عقوبته عاجلا بكم.

|

س: من الذين عناهم الله ﷻ بقوله: (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ)؟

ج: ذهب بعض العلماء: إلى أن الذين عناهم الله بهذه الآية هم أهل الشرك الذين تقدم ذكرهم وذكر فعالهم؛ وذلك لأن سياق الآيات فيهم.

وذهب آخرون من العلماء: إلى أن الذين عناهم الله بهذه الآية هم المسلمون من أمة محمد ﷺ؛ وذلك لأن النبي ﷺ استعاذ عند نزولها، وقال عند قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ هذه أهون أو أيسر.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى أن صدر الآية في المشركين.

وقوله: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ في المسلمين.

وذهب فريق رابع من العلماء: إلى أنها في اهل الشرك، ومن سلك طريقهم في الشقاق والعناد والعصيان.

واختار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصواب من القول عندي أن يقال: إن الله تعالى توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان وإياهم خاطب بها، لأنها بين إخبارٍ عنهم وخطابٍ لهم، وذلك أنها تتلو قوله: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

ويتلوها قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾، وغير جائزٍ أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين. فإذا كان غير جائزٍ أن يكون ذلك كذلك، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كان بينا أن ذلك وعيد لمن تقدم وصف الله إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب، لا لمن لم يجر له ذكر.

غير أن ذلك وإن كان كذلك فإنه قد عم وعيده بذلك كل من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها.

وأما الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة**» فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدا لمن ذكرت من المشركين، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعيذ أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى بمعصيتهم إياه هذه العقوبات، فأعاذهم بدعائه إياه ورغبته إياه من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها، ولم يعذهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها.

وأما الذين تأولوا أنه عني بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة، فإني أراهم تأولوا أن

في هذه الأمة من سيأتي من معاصي الله وركوب ما يسخط الله نحو الذي ركب من قبلهم من الأمم السالفة من خلافه والكفر به، فيحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من المثلات والنقمات، وكذلك قال أبو العالية ومن قال بقوله: جاء منهن اثنتان بعد رسول الله ﷺ، أنه قال: «**سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، وأن قوما من أمته سيبيتون على لهو ولعب ثم يصبحون قردة وخنازير**» . وذلك إذا كان، فلا شك أنه نظير الذي في الأمم الذين عتوا على ربهم في التكذيب وجحدوا آياته.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- قل يا رسول الله لهؤلاء الذين دعوا ربهم تضرعا وخفية وهم في ظلمات البر والبحر، وأعطوا العهود والمواثيق لئن أنجاهم الله؛ ليكونن من الشاركين، ثم نقضوا تلك العهود والمواثيق بعد أن سلمهم الله ونجاهم إلى البر، وأشركوا بالله مرة ثانية- قل لهؤلاء: إن الله قادر- وإن كنتم على البر وشعرتم بالأمن والأمان- على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم، حصباء تصحبكم من السماء، كما صنع بقوم لوط وكما صنع بأبرهة الأشرم وغيرهما، أو يهلككم بريح عاصفٍ تصبحون معها كأعجاز النخل الخاوية، أو سقطو البيوت عليكم أو الطوفان، وقادر أيضا على أن يرسل عليكم عذابا من تحت أرجلكم كالخسف(١) ونحوه.

أو يجعلكم فرقا متناحرة وأحزابا متفرقة تتقاتلون وتتصارعون، ويسفك بعضكم دماء بعض.

فلا تأمنوا يا من وعدتم وأخلفتم!! لا تأمنوا يا من كنتم في ظلمات البر والبحر وأنجاكم الله! فالله عليكم قادر أينما كنتم وحيثما كنتم!

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ عقبه

---

(١) وأورد البعض قولًا آخر في هذا الباب، حاصله أن العذاب من فوق المراد به: أمراء السوء، والعذاب من أسفل: هم الخدم.

بقوله: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا ﴾ أي: بعد إنجائه إياكم؛ كقوله في سورة سبحان: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾ [الإسراء٦٦- ٦٩].

وقال القرطبي خ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا ﴾:

وهذا اللبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفي الأهواء. عن ابن عباس.

وقيل: معنى ﴿يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا ﴾ يقوي عدوكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبسكم.

﴿شِيَعٗا ﴾ معناه فرقا.

وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا.

وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ﴾ أي: بالحرب والقتل في الفتنة؛ عن مجاهد.

والآية عامة في المسلمين والكفار. وقيل: هي في الكفار خاصة. وقال الحسن: هي في أهل الصلاة.

|

س: اذكر بعض الأحاديث الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ الآية؟

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري[١] من حديث جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بوجهك**»، قال: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «أعوذ بوجهك» ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول الله ﷺ: «**هذا أهون** – أو

(١) البخاري (٤٦٢٨).

هذا أيسر -».

وأخرج مسلم(١) من طريق عامر بن سعد عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يومٍ من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلا، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: «**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**».

وأخرج الإمام أحمد(٢) بسندٍ حسن لغيره من حديث معاذ، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة فأحسن فيها القيام والخشوع والركوع والسجود قال: «**إنها صلاة رغبٍ ورهبٍ سألت الله فيها ثلاثا، فأعطاني اثنتين وزوى عني واحدة سألته أن لا يبعث على أمتي عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيه، وسألته أن لا يبعث عليهم سنة تقتلهم جوعا فأعطانيه، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها علي**».

وأخرج مسلم(٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامةٍ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا**».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم- انظر إلى هؤلاء المشركين، وقد نوعنا لهم الآيات وسقنا إليهم الحجج والبينات لعلهم يفهمون عنا مرادنا، لعلهم ينزجرون عماهم

(١) مسلم (٢٨٩٠).
(٢) أحمد (٥/٢٤٧).
(٣) مسلم (٢٨٨٩).

فيه من غي وكفرٍ وشر وفساد.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء المكذبين بربهم الجاحدين نعمه، وتصريفناها فيهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه، يذكروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم، من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذكره ورسوله ﷺ.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؟

ج: وكذب بهذا القرآن، وما فيه من الوعد والوعيد قومك من أهل الشرك. يا رسول الله- فلا تتشكك أنت فيه؛ فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه، فامض فيما أنت ماضٍ، وقل لهؤلاء المكذبين: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، إنما أنا منذر ومبلغ عن الله ﷻ، ثم هو الرقيب عليكم العليم، بأعمالكم وأقوالكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكذب، يا محمد، قومك بما تقول وتخبر وتوعد من الوعيد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ﴾، يقول: والوعيد الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعا، وإذاقة بعضهم بأس بعض ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه أنه واقع إن هم لم يتوبوا وينيبوا مما هم عليه مقيمون من معصية الله والشرك به، إلى طاعة الله والإيمان به ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، يقول: قل لهم، يا محمد، لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- لكل خيرٍ يستقر فيه، فيعلم صدقه من كذبه، وسوف تعلمون صدق ما أخبرتكم به من الأخبار.

والمعنى أيضا: لكل نبإٍ حقيقة، أي: لكل خيرس وقوع، ولو بعد حين؛ كقوله

تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، يقول: لكل خبر مستقر، يعني قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليه، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، يقول: وسوف تعلمون، أيها المكذبون بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، أيها المشركون، حقيقته عند حلول عذابه بكم، فرأوا ذلك وعاينوه، فقتلهم يومئذ بأيدي أوليائه من المؤمنين.

قلت: ويحتمل أيضا أن يكون قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ بمعنى المواساة لرسول الله ﷺ، ويكون المعنى لا تجزع لما حل بك ونزل فكل خبر له نهاية وكل حادثةٍ لها انكشاف، والحوادث عند نزولها تكون شديدة، ثم يزول أثرها شيئا فشيئا، وتأتي حوادث هي أعظم منها فترفق التي قبلها، والله أعلم.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؟

ج: الآية تحمل توجيها للنبي ﷺ وكيف يتصرف إذا رأى قوما يخوضون في آيات الله ويسخرون منها ويكذبون بها، فقيل له: وإذا رأيت القوم الذين يكذبون بآياتنا ويسخرون منها، فاترك مجالسهم وانصرف عنها، وإذا قدر ونسيت وجالستهم وهم يخوضون فيها ثم تذكرت ما ذكرك الله به، فانصرف عن مجالستهم ولا تقعد معهم مرة ثانية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رأيت، يا محمد، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، = و«خوضهم فيها»، كان استهزاءهم بها، وسبهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، يقول: فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ)، يقوله: وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقهم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى «ظلمهم» في هذا الموضع.

س: هـذه الآيـات الكريمـة (وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ ....) تصلح أن تكون مثالا لتفسير القرآن بالقرآن، وضح ذلك؟

ج: نعم تصلح أن تكون مثالا لتفسير القرآن بالقرآن، فهي موضحة لقوله تعالى: (وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ) [النساء: ١٤٠]، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ «أضواء البيان»:

قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ)

نهى الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبين ذلك كله في موضع آخر، فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: (وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ) الآية.

وبين أن من مجالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم بقوله: (إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ)، وبين حكم من جالسهم ناسيا، ثم تذكر بقوله هنا: (وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)، كما في سورة النساء.

س: ما المراد بالخوض في آيات الله؟

ج: **لذلك صور منها:** الكفر بها والاستهزاء بها؛ ففي الآية الكريمة: (وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلا وأمته تبعا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأمورا به، وإن كان غير ذلك، كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث، والنظر، والمناظرة بالحق.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا فيه، فلا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت وإن كنت مأمورا بإبلاغهم الحجة، وقيل هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقيل المعنى أنهم اتخذوا دينهم الذي هم عليه لعبا ولهوا كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها.

وقيل: المراد بالدين هنا العيد أي اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا قال قتادة أي أكلا وشربا وكذا من جعل طريقته الخمر والزمر والرقص ونحوه، وفي البيضاوي بنوا أمر دينهم على التشهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلا وآجلا كعبادة الصنم وتحريم البحائر والسوائب.

|

س: اذكر بعض الأدلة الناهية عن مجالسة أهل الباطل ومجالس الباطل؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا) [الفرقان: ٧٢]
وقوله تعالى: (وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ) [القصص: ٥٥].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)؟

ج: الظاهر – والله تعالى أعلم-: أن معناها وما على أهل الإيمان والتقوى من إثم من جزاء جلوسهم مع هؤلاء الخائضين ما داموا ليس براضين عن صنيعهم وعن خوضهم، وإنما أمر أهل التقوى بالإعراض عن هذه المجالس والقيام منها تذكيرا لأهل الخوض حتى ينكفوا عن خوضهم، فالقيام نفسه تذكير لهؤلاء الخائضين، والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن اتقى الله فخافه، فأطاعه فيما أمره به، واجتنب ما نهاه عنه، فليس عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله في حال خوضهم في آيات الله، شيء من تبعة فيما بينه وبين الله، إذا لم يكن تركه الإعراض عنهم رضا بما هم فيه، وكان لله بحقوقه متقيا، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج، ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، يقول: ليتقوا.

ومعنى «الذكرى»، الذكر. و«الذكر» و«الذكرى» بمعنى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ) أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم.

س: من وسائل تذكير المعتدين والعصاة ترك مجالستهم وهجرانهم، اذكر بعض الأدلة على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ....) الآية؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- واترك هؤلاء الذين جعلوا دين الله لعبا ولهوا فهذا حظهم من هذا الدين: السخرية والاستهزاء فاترك هؤلاء الساخرين العابثين لا تنشغل بهم، فأنا أكفيكهم، كما قال تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) [المدثر: ١١]، أي: فأنا أكفيكه، وكما قال سبحانه: (وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ) [المزمل: ١١]، أي: فأنا أكفيكهم وأنتقم لك منهم.

اترك هؤلاء ولا تهتم بهم ولا تنشغل بهؤلاء الذين شغلتهم دنياهم عن أخراهم فاغتروا بزخارفها ورضوا بها بدلا عن الآخرة وأقبل على تذكير سائر الخلق بهذا القرآن من قبل أن يأتي يوم تسلم نفس للعذاب وتفتضح بسبب كسبها السيء الذي اكتسبته في دنياها، وحينئذٍ لا ينفعها شفيع، ولس لها ناصر ينصرها، وإن قامت كل فدية كي تفتدي نفسها بها من العذاب، فلن تقبل منها تلك الفدية؛ فهؤلاء الذين أسلِموا له وذاقوه بما كسبوا وما اجترحوا من المعاصي والآثام، هؤلاء لهم يوم القيامة شراب حار في غاية من الحرارة، إنه شراب من حميم، ولهم عذاب مؤلم موجع بسبب كسبهم الذي اكتسبوه من الكفر والشرك بالله ﷻ.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم- بناء على تأويله (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) بأن المراد به: تركهم وعدم مؤاخذتهم- ذهبوا إلى أن قوله تعالى: (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ ...) منسوخ بقوله تعالى: (فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) [التوبة: ٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ذر هؤلاء الذين اتخذوا دين الله وطاعتهم إياه لعبا ولهوا، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا

سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى ذكره والمصير إليه بعد الممات.

وقال أيضًا:

وقد نسخ الله تعالى ذكره هذه الآية بقوله: (فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ) [التوبة: ٥] وكذلك قال عدد من أهل التأويل.

وقال كذلك:

وأما قوله: (وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ)، فإنه يعني به: وذكر -يا محمد- بهذا القرآن هؤلاء المولين عنك وعنه، (أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ)، بمعنى: أن لا تبسل، كما قال: (يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ) [النساء: ١٧٦] بمعنى: أن لا تضلوا، وإنما معنى الكلام: وذكرهم به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند الله من الحق، فلا تبسل أنفسهم بما كسبت من الأوزار، ولكن حذفت «لا»، لدلالة الكلام عليها.

وقال الطبري أيضًا:

وأصل «الإبسال» التحريم، يقال منه: «أبسلت المكان»، إذا حرمته فلم يقرب، ومنه قوله الشاعر:

بكرت تلومك بعد وهنٍ في النَّدَى ... بسل عليك ملامتي وعتابي

أي: حرام [عليك ملامتي وعتابي]. ومنه قولهم: «أسد باسل»، ويراد به: لا يقربه شيء، فكأنه قد حرم نفسه، ثم يجعل ذلك صفة لكل شديد يتحامى لشدته. ويقال: «أعط الراقي بسلته»، يراد بذلك: أجرته، «وشراب بسيل»، بمعنى متروك. وكذلك «المبسل بالجريرة»، وهو المرتهن بها، قيل له: «مبسل»، لأنه محرم من كل شيء إلا مما رهن فيه وأسلم به، ومنه قول عوف بن الأحوص الكلابي:

وإبسالي بني بغير جرمٍ ... بعوناه ولا بدمٍ مراق

وقال الشنفرى:

هنالك لا أرجو حياة تسرني ... سمير الليالي مبسلا بالجرائر

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: وذكر بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سبيلهم من المشركين، كيلا تبسل نفس بذنوبها وكفرها بربها، وترتهن فتغلق بما كسبت من إجرامها في عذاب الله ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كسبت من آثامها، أحد ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، يشفع لها، لوسيلة له عنده.

وقال السعدي في «تفسير»:

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: ذكر بالقرآن، ما ينفع العباد، أمرا، وتفصيلا وتحسينا له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيا عنه، وتفصيلا لأنواعه، وبيان ما فيه، من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه.

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها، لترتدع وتنزجر، وتكف عن فعلها.

س: وضح معنى قول الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ مع ذكر بعض الآيات في معناها؟

ج: أما عن معنى الآية الكريمة -والله أعلم- فهو: وإن تفتدي النفس الكافرة -التي أسلمت للعذاب بسبب كفرها- بكل أنواع الفداء بجبال الأرض من ذهب، بالمال، بالبنون، بأي شيء تملكه حتى يخفف عنها العذاب أو يصرف فلن تقبل منها تلك الفدية ولن يخفف عنها العذاب ولن يصرف.

أما الآيات في معناها فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية؟

ج: المعنى –والله أعلم– قل لهؤلاء المشركين الذي عبدوا مع الله آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر: يا هؤلاء أتامرونني أن أعبد آلهة لا تنفع ولا تضر، وأرجع إلى الجهل بعد العلم، وإلى الظلمات بعد النور، وقد وضح الله لي طريق الهداية وبصرني به ورزقني سلوكه، فإني إن فعلت ذلك؛ فمثلي كمثل شخص استهوته الشياطين فانتزعته ولعبت بعقله وفؤاده وقادته إلى طريق الردى، وأخذت به إلى طريق الغواية وحسنته له وزينته له، وحيرته فأضلته مع أن له فئة من أهل الصلاح من أصحاب وأصدقائه ينادونه فلا يسمع ويحذرونه فلا يحذر، فقل له: إن هدى الله هو الهدى لا الذي تسمعه من الشياطين ولا الذي تقودك إليه الشياطين، وأما نحن فأمرنا أن نسلم لرب العالمين نستسلم له ونخضع، نقبل هدايته ونسمع.

قال الطبري خ في تفسير هذه الآية الكريمة:

وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان. يقول له تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجرا أو خشبا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره!

﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا ﴾، يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا. وقد بينا معنى: «الرد على العقب»، وأن العرب تقول لكل طالب حاجة لم يظفر بها: «رد على عقبيه»، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفر «بعد إذ هدانا الله»، فوفقنا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان، يهوي في الأرض حيران.

وقوله: «استهوته»،«استفعلته»، من قول القائل: «هوى فلان إلى كذا يهوي إليه»،

ومن قول الله تعالى ذكره: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، بمعنى: تنزع إليهم وتريدهم.

وأما «حيران»، فإنه «فعلان» من قول القائل: «قد حار فلان في الطريق، فهو يحار فيه حيرة وحيرانا وحيرورة»، وذلك إذ ضل فلم يهتد للمحجة.

﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾، يقول: لهذا الحيران الذي قد استهوته الشياطين في الأرض، أصحاب على المحجة واستقامة السبيل، يدعونه إلى المحجة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولون له: ائتنا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا:

وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله = وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له: «ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى»! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

وقال في تفسير قوله تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان القائلين لأصحابك: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢]، فإنا على هدى: ليس الأمر كما زعمتم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ يقول: إن طريق الله الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فبينه، هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل. ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وأمرنا ربنا ورب كل شيء، تعالى وجهه، لنسلم له: لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُلۡ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى

دينهم، مبينا وشارحا لوصف آلهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها، عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه، قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: (أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا) وهذا وصف، يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

(وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ) أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم. فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها (كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ) أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلى مقصده. فبقي (حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى) والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائرا وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة (يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى) والصعود إلى أعلى عليين.

ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى، في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: (قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ) أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه، فهو ضلال وردى وهلاك. (وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ)

ج: هذا -والله أعلم-: معطوف على ما قبله، فالمعنى: وأمرنا لنسلم لرب

العالمين، وأمرنا أن نقيم الصلاة وأن نتقي الله فهو الذي إليه نحشر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام: وأمرنا بإقامة الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا (وَٱتَّقُوهُۚ)، يقول: واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه واحذروا سخطه، بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ)، يقول: وربكم رب العالمين، هو الذي إليه تحشرون فتجمعون يوم القيامة، فيجازي كل عامل منكم بعمله، وتوفي كل نفس ما كسبت.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ)؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بالحق: الصواب الذي هو مقابل الباطل والخطأ، فالمعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض، وليس في خلقه لهما خطأ، بل خلقهما عين الحق والصواب.

فيكون المعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض حقا وصوابا؛ كقولنا: فلان يقول بالحق، أي: يقول حقا وصوابا.

ومما يتأيد به هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص: ٢٧].

الثاني: أن المراد بالحق: أي: بكلامه الذي هو الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (بِٱلۡحَقِّۖ).

فقال بعضهم: معنى ذلك، وهو الذي خلق السماوات والأرض حقا وصوابا، لا باطلا وخطأ، كما قال تعالى ذكره: (وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ) [ص: ٢٧]. قالوا: وأدخلت فيه«الباء» و«الألف واللام»، كما تفعل العرب في نظائر ذلك فتقول: «فلان يقول بالحق»، بمعنى: أنه يقول الحق.

قالوا: ولا شيء في«قوله بالحق» غير إصابته الصواب فيه لا أن«الحق» معنى

غير «القول»، وإنما هو صفة للقول، إذا كان بها القول، كان القائل موصوفا بالقول بالحق، وبقول الحق. قالوا: فكذلك خلق السماوات والأرض، حكمة من حكم الله، فالله موصوف بالحكمة في خلقهما وخلق ما سواهما من سائر خلقه = لا أن ذلك حق سوى خلقهما خلقهما به.

وقال آخرون: معنى ذلك: خلق السماوات والأرض بكلامه وقوله لهما: (ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا) [فصلت: ١١]. قالوا: فالحق، في هذا الموضع معني به: كلامه. واستشهدوا لقيلهم ذلك بقوله: (وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ)، «الحق» هو قوله وكلامه. قالوا: والله خلق الأشياء بكلامه وقيله، فما خلق به الأشياء فغير الأشياء المخلوقة. قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وجب أن يكون كلام الله الذي خلق به الخلق غير مخلوق.

قال صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ خلقا ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أو حال كون الخلق بالحق، فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة أو إظهارا للحق، وعلى هذا الباء بمعنى اللام، وقيل: كل ذلك بالحق، وقيل: خلقهما بكلامه الحق، وهو قوله: كن، وقيل: بالحكمة أو محقا لا هازلا ولا عبثا.

س: وضح وجه الربط بين قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ) وقوله تعالى: (وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)؟

ج: قال الطبري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في وجه الربط بينها:

يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل- يا محمد- لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد، الداعيك إلى عبادة الأوثان: «أمرنا لنسلم لرب العالمين، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر».

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ).

ج: في ذلك أقوال:

أحدها: واذكر يوم يقول الله ﷻ: كن فيكون.

الثاني: وقوله: الحق يوم ينفخ في الصور. أي: يوم يأمر الملك بالنفخ في الصور.

الثالث: أن قول الله حق إذا أمر بالأشياء فأعيدت بعد فنائها، ففعل الله هذا حق.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه المنفرد بخلق السماوات والأرض دون كل ما سواه، معرفا من أشرك به من خلقه جهله في عبادة الأوثان والأصنام، وخطأ ما هم عليه مقيمون من عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ولا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضر عنها = ومحتجا عليهم في إنكارهم البعث بعد الممات والثواب والعقاب، بقدرته على ابتداع ذلك ابتداء، وأن الذي ابتدع ذلك غير متعذر عليه إفناؤه ثم إعادته بعد إفنائه، فقال:(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ)، أيها العادلون بربهم من لا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء (ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ)، حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا بها على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة (وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ)، يقول: ويوم يقول حين تبدل الأرض غير الأرض والسماوات كذلك:(وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ)، كما شاء تعالى ذكره، فتكون الأرض غير الأرض ويكون [الكلام] عند قوله:(كُن فَيَكُونُ) متناهيا.

وإذا كان كذلك معناه، وجب أن يكون في الكلام محذوف يدل عليه الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول كذلك:(كُن فَيَكُونُ) تبدل [السماوات والأرض] غير السماوات والأرض. ويدل على ذلك قوله:(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ)، ثم ابتدأ الخبر عن القول فقال:(قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ)، بمعنى وعده هذا الذي وعد تعالى ذكره، من تبديله السماوات والأرض غير الأرض والسماوات، الحق الذي لا شك فيه(وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ)، فيكون قوله:(يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ)، من صلة (ٱلْمُلْكُ)ويكون معنى الكلام: ولله الملك يومئذ، لأن النفخة الثانية في الصور حال تبديل الله السماوات والأرض غيرهما.

وجائز أن يكون«القول» أعني:(قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ)، = مرفوعا بقوله:(وَيَوْمَ يَقُولُ كُن

فَيَكُونُ)، ويكون قوله: (كُن فَيَكُونُ) محلا للقول مرافعا، فيكون تأويل الكلام: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، ويوم يبدلها غير السماوات والأرض، فيقول لذلك: (كُن فَيَكُونُ)، (قَوْلُهُ الْحَقُّ).

وأما قوله: (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ)، فإنه خص بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصا في كل وقت في الدنيا والآخرة، لأنه عنى تعالى ذكره أنه لا منازع له فيه يومئذ ولا مدعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله (وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ) يعني يوم القيامة، الذي يقول الله كن فيكون، عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، ويوم منصوب إما على العطف على قوله (وَاتَّقُوهُ)، وتقديره واتقوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب وإما على إضمار فعلٍ تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ)؟

ج: ذلك –والله أعلم– كقوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، فليس هنالك يوم ينفخ في الصور من ينازع في ملك الله.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) أي: يوم القيامة خصه بالذكر – مع أنه مالك كل شيء–؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ) جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين.

وقوله: (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) يحتمل أن يكون بدلا من قوله: (يَقُولُ كُن فَيَكُونُ)

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾؛ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ وكقوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وما أشبه ذلك.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولين للعلماء في المراد بـ «الصور»:

أحدهما أن المراد بالصور: جمع صورة، أي: يوم ينفخ فيها فتحيا.

والآخر: وصححه ابن كثير، وهو الأصوب والأصح، والله أعلم- أن المراد بالصور: قرن ينفخ فيه كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ.

|

س: اذكر معنى قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؟

ج: قال الطبري خ في معنى ذلك:

ويعني بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، عالم ما تعاينون: أيها الناس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾، بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيئ، حافظ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك. يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون.

|

قَالَ تَعَالَى:
(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ
وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا
كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا
ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا
رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ
هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ
رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ
ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ
يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢ وَتِلْكَ
حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ
وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلْنَا عَلَى

ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ
وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ
فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ
فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ
٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن
شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى
لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ
تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ
٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ
ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ
عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا
كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ
٩٣ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا
خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ

أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

[الأنعام: ٧٤- ٩٤].

الكلمة	معناها
(أَصْنَامًا ﴾	جمع صنم- تمثال في صورة إنسان أو حيوان.
﴿ءَالِهَةً ﴾	معبودة (تَعْبُدُهَا).
(ضَلَٰلٍ ﴾	بُعدٍ عن الحق وعدولٍ عن الصواب.
(مُّبِينٍ ﴾	مُظهر (لجهل من فعله).
﴿مَلَكُوتَ ﴾	مُلك- خلق- آيات، وقيل: إنها الشمس والقمر والنجوم فهي ملكوت السموات وملكوت الأرض:الجبال والأشجار والبحار
(ٱلْمُوقِنِينَ ﴾	المصدقين تمام التصديق.
(جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾	غطَّاه الليل- أقبل عليه الليل- تغشاه الليل وستره.
﴿كَوْكَبًا ﴾	نجمًا.
(أَفَلَ ﴾	غاب- ذهب.
(بَازِغًا ﴾	طالعًا- ظاهرًا.
﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴾	الذين أخطئوا الحق ولم يصيبوا الهدى وهم الذين عبدوا غير الله ﷻ.
(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾	اتجهت بقصدي ونيتي وعبادتي.
(فَطَرَ ﴾	خلق على غير مثالٍ سابق.
﴿حَنِيفًا ﴾	مائلًا (عن الشرك إلى التوحيد).
(وَحَآجَّهُۥ ﴾	جادله.
﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾	أتجادلونني في توحيدي لله وإخلاص العمل له دون من سواه.
(هَدَىٰنِۚ ﴾	
(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ	وفقني لتوحيده – بَصَّرني بالحق.

(١٦٩) أحمر
أسود

﴿عِلْمًاۗ﴾	أحاط ربي علمًا بكل شيء.
﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾	تتعظون- تعتبرون- تنزجرون.

الكلمة	معناها

(١٧٠) أحمر
أسود

﴿سُلْطَانًا﴾	حجةً.
﴿يَلْبِسُوٓاْ﴾	يخلطوا.
﴿ٱلْأَمْنُ﴾	السلامة من عذاب الله.
﴿مُّهْتَدُونَ﴾	مصيبون للحق- سالكون طريق النجاة.
﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾	هديناهم جميعًا.
﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾	اخترناهم- اصطفيناهم.
﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾	توفيق الله.
﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾	ذهب عنهم ثواب العمل الصالح الذي عملوه.
﴿وَٱلْحُكْمَ﴾	الفهم في الدين- فهم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام.
﴿يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾	يجحدها هؤلاء ولا يؤمنون بها.
﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾	رزقناها قومًا- هدينا إليها قومًا- مننا بها على قوم.
﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾	بطريقتهم – على طريقهم.
﴿ٱقْتَدِهْ﴾	سِرْ- تَأَسَّ- اتبع.
﴿ذِكْرَىٰ﴾	إنذار- وعظ.
﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾	ما عظموا الله حق تعظيمه.
﴿قَرَاطِيسَ﴾	أوراقًا – كتبًا.
﴿تُبْدُونَهَا﴾	تظهرونها.
﴿ذَرْهُمْ﴾	اتركهم.
﴿خَوْضِهِمْ﴾	باطلهم- كفرهم.
﴿يَلْعَبُونَ﴾	يستهزئون- يسخرون.
﴿مُبَارَكٌ﴾	كثيرٌ خَيرُهُ.
﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	موافق للكتب التي تقدمته.
﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾	مكة (أصل القرى).

الكلمة	معناها
﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾	اختلق الكذب.
﴿غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾	سكرات الموت.
﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾	مَادُّو أيديهم (بالضرب).
﴿عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾	العذاب الذي يهين ويذل.
﴿خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾	مكناكم (في الدنيا من الأشياء التي يتباهى به الناس).
﴿تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾	تقطع ما بينكم- تقطعت أسباب التواصل التي كانوا يتواصلون بها.
﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾	غاب عنكم- حاد عن طريقكم.
﴿تَزۡعُمُونَ﴾	تدعون أنه شريك لله.

س: من آزر؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى: أن آزر هو اسم والد إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقيل: إن اسم والد إبراهيم تارح.

وقيل: إن والد إبراهيم له اسمان أحدهما تارح، والآخر آزر كيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسمه يعقوب، واسمه إسرائيل.

وقيل: إن آزر اسم لصنم.

وقيل: إن آزر الزائغ معناه أعوج، فكأن المعنى، وإذ قال إبراهيم لأبيه الأعوج.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأولى القولين بالصواب منهما عندي قول من قال: «هو اسم أبيه»، لأن الله تعالى ذكره أخبر أنه أبوه، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم، دون القول الآخر الذي زعم قائله أنه نعت.

فإن قال قائل: فإن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى«تارح»، فكيف يكون«آزر» اسما له، والمعروف به من الاسم»تارح قيل له: غير محال أن يكون له

اسمان، كما لكثير من الناس في دهرنا هذا، وكان ذلك فيما مضى لكثير منهم. وجائز أن يكون لقبا يلقب به.

هذا، وقد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ (١) متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؟

ج: قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد = لحجاجك الذي تحاج به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج حجاج إبراهيم خليلي قومه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضا به وليا وناصرا دون الأصنام، فاتخذه إماما واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالا إذ قال لأبيه مفارقا لدينه، وعائبا عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه: يا آزر.

س: ما المراد بالأصنام؟

ج: قال الطبري رحمه الله:

و«الأصنام»: جمع«صنم»، و«الصنم» التمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان، وهو«الوثن». وقد يقال للصورة المصورة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: «صنم» و«وثن».

(١) قيل: إنه الضبع الذكر المتلوث بعذرته.

س: وضح معنى قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم–: أتجعل لنفسك أصناما تعبدها من دون الله ترجو عندها النفع؟!! تدعوها لكشف الضر؟! تركع لها وتسجد؟! وتلجأ إليها وترغب؟!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها وتتخذها ربا دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؟

ج: قال الطبري خ: في معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

وكم أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلافه – ما كانوا عليه من الضلال –، نريه ملكوت السموات والأرض، يعني: ملكه.

وقال أيضا:

وزيدت فيه «التاء» كما زيدت في «الجبروت» من «الجبر»، وكما قيل: «رهبوت خير من رحموت»، بمعنى: رهبة خير من رحمة.

وحكي عن العرب سماعا: «له ملكوت اليمن والعراق» بمعنى: له ملك ذلك.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح المراد بـ ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؟

ج: هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

الأول: ملكوت السموات والأرض أي: ملك السموات والأرض.

الثاني: ملكوت السموات والأرض: ما ذكر في الآيات بعدها وهي الشمس والقمر والنجوم.

الثالث: ملكوت السموات هي الشمس والقمر والنجوم،وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار.

الرابع: المراد: الآيات في السماوات وفي الأرض، الدالة على وحدانية الله وقدرته.

وثم أقوال أخر أضربت عنها عن عمدٍ لعدم وجود ما يعضدها ويشهد لها بالصحة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد أن أورد جملة من الآثار [١]:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى الله تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلى له بواطن الأمور وظواهرها، لما ذكرنا قبل من معنى «الملكوت»، في كلام العرب، فيما مضى قبل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الاعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [سبأ: ٩].

---

(١) ما أخرجه الطبري بسند حسن عن سلمان، قال:

« لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى عبدًا على فاحشة، فدعا عليه، فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. فقال: أنزلوا عبدِي لا يُهْلِك عبادِي!

ونحوه عن عطاء، قال:

« لما رفع الله إبراهيم في الملكوت في السماوات، أشرفَ فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رُفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فنودي: على رِسْلِك يا إبراهيم، فإنك عبد مستجابٌ لك، وإني من عبدي على ثلاث: إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه، فأنا من ورائه. وفي سنده بعض الكلام.

وبسند رجاله ثقات، عن أسامة قال:

«عن أسامة: أن إبراهيم خليل الرّحمن حدَّث نفسه أنه أرحمُ الخلق، وأن الله رفعه حتى أشرفَ على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم. فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهم دمِّر عليهم! فقال له ربه: أنا أرحم بعبادي منك، اهبطْ، فلعلهم أن يتوبوا إليّ ويُراجِعوا.

وأثر عن ابن عباس في معنى ذلك، لكن سنده ضعيف جدًّا.

وكلها كما رأيت موقوفات ليس منها شيء مرفوع إلى النبي □.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: وليكون من المصدقين تمام التصديق، وليكون من المقرين بوحدانية الله وقدرته مام الإقرار،ومن المطمئنين لذلك تمام الطمأنينة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾، فإنه يعني أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون ممن يقر بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ قيل: الواو زائدة، تقديره: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ **[الأنعام: ٥٥]**.

وقيل: بل هي على بابها: أي: نريه ذلك ليكون عالما موقنا.

س: ما وجه قول الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للكوكب هذا ربي، ثم إعراضه عن ذلك وقوله للمقر هذا ربي، وكذا إعراضه بعد ذلك عن القمر، وقوله للشمسك هذا ربي هذا أكبر؟

ج: ذهب فريق من أهل العلم إلى حمل هذه الآيات على ظاهرها، وقالوا: إنه تفكر في ملكوت السماوات والأرض ونظر فيهما فرأى كوكبا فقال: هذا ربي ثم أتبعه بصره، أي: استمر في النظر إليه حتى غاب، فلما غاب (أيك أفل) قال: لا أحب الأفلين، أي: لا أحب إلها يأتي في وقتٍ ويزول في آخر، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾، لكونه أكبر من الكوكب وأنور، فلما غاب القمر قال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ﴾، أي أكبر من الكوكب والقمر وأنور، فلما غابت الشمس تبرأ من كل ما عبد من دون الله، و﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ).

فحملوا الآيات الكريمات على ظاهرها. وإلى هذا ذهب الطبري خ .

وأورد آخرون قولا آخر حاصله: إنما قال ذلك إبراهيم عليه السلام على وجه الإنكار على قومه، وعلى وجه السخرية من آلهتهم والعيب لآلهتهم وأصنامهم؛ فإذا كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلة زائلة غير دائمة؛ فالأصنام.... التي هي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم- أحق أن لا تكون معبودة ولا .....

قالوا: وإنما قال ذلك لهم معارضة؛ كما يقول أحد المتناظرين لصاحبه معارضا له في قول باطل قال به بباطل من القول، على وجه مطالبته إياه بالفرقان بين القولين الفاسدين عنده، اللذين يصحح خصمه أحدهما ويدعي فساد الآخر.

وقال آخرون منهم: بل ذلك كان منه في حال طفولته، وقبل قيام الحجة عليه. وتلك حال لا يكون فيها كفر ولا إيمان.

وقال آخرون منهم: إنما معنى الكلام: أهذا ربي؟ على وجه الإنكار والتوبيخ، أي: ليس هذا ربي.

وقالوا: قد تفعل العرب مثل ذلك، فتحذف «الألف» التي تدل على معنى الاستفهام. وزعموا أن من ذلك قول الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يعني: أهم هم؟ قالوا: ومن ذلك قول أوس:

لعمرك ما أدرى وإن كنت داريا شعيث بن سهمٍ أم شعيث بن منقر

بمعنى: أشعيث بن سهم؟ فحذف (الألف)، ونظائر ذلك. وأما تذكير ﴿هَٰذَا﴾ في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾، فإنما هو على معنى: هذا الشيء الطالع ربي.

أورد ذلك الطبري، ولكنه- كما أشرت قريبا- اختار القول الأول إذ قال:

وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: (لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ)، الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك: الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه.

وأورد الحافظ ابن كثير خ سؤالا حول ما ذكر، وأجاب عليه، فقال في سؤاله- وقد اختلف المفسرون في هذا المقام-: هل هو مقام نظرٍ أو مناظرة؟ ثم قال:

والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسيرٍ معينٍ، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم.

ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، (قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، وخالق كل شيءٍ وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم [الخليل] ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ -١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: إني خلقت عبادي كلهم حنفاء**»(١) وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتي بيانه.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل -الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يكن المشركين- ناظرا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقال السعدي في تفسيره:

﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان.

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

وقال ابن الجوزي (في زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على ظاهره. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قال هذا ربي، فعبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت واحتج أرباب هذا القول بقوله تعالى:(لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي) وهذا يدل على نوع تحيير، قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل.

وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال.

فأما قوله: (لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي) فما زال الأنبياء يسألون الهدى، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم، كقولهم: (وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)، ولأنه قد آتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون موقنا، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟!

والثاني: أنه قال ذلك استدراجا للحجة، ليعيب آلهتهم ويريهم بغضها عند أفولها، ولا بد أن يضمر في نفسه: إما على زعمكم، أو فيما تظنون، فيكون كقوله: (أَيْنَ شُرَكَآءِىَ) [النحل: ٢٧]، وإما أن يضمر: يقولون، فيكون كقوله تعالى:(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ) [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولان ذلك، ذكر نحو هذا أبو بكر بن الانباري، ويكون مراده استدراج الحجة عليهم، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل بقوم يعبدون صنما، فأظهر تعظيمه، فأكرموه، وصدروا عن رأيه، فدهمهم عدو، فشاورهم ملكهم، فقال: ندعو إلهنا ليكشف ما بنا، فاجتمعوا يدعونه، فلم ينفع، فقال: ها هنا إله ندعوه، فيستجيب، فدعوا الله، فصرف عنهم ما يحذرون، وأسلموا.

والثالث: أنه قال مستفهما، تقديره: أهذا ربي؟ فأضمرت ألف الاستفهام، كقوله: (أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ) [الأنبياء: ٣٤]؟ أي: أفهم الخالدون؟ قال الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ ... غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد: أكذبتك؟ قال ابن الأنباري: وهذا القول شاذ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذ كان فارقا بين الإخبار والاستخبار وظاهر قوله: (هَٰذَا رَبِّي)أنه إشارة إلى الصانع.

وقال الزجاج: كانوا أصحاب نجوم، فقال: هذا ربي، أي هذا الذي يدبرني، فاحتج

عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر، لا نرى فيه إلا مدبر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، الآيات، قوله: هذا ربي، في المواضع الثلاثة محتمل لأنه كان يظن ذلك، كما روي عن ابن عباس وغيره، ومحتمل، لأنه جازم بعدم ربوبية غير الله، ومراده هذا ربي في زعمكم الباطل، أو أنه حذف أداة استفهام الإنكار، والقرآن يبين بطلان الأول، وصحة الثاني.

أما بطلان الأول: فالله تعالى نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، في عدة آيات، ونفي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوما ما.

وأما كونه جازما موقنا بعدم ربوبية غير الله، فقد دل عليه ترتيب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، إلى آخره، «بالفاء» على قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾؛ فدل على أنه قال ذلك موقنا مناظرا ومحاجا لهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، والعلم عند الله تعالى.

س: وضح معنى قول الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: إني بريء من عباده الأوثان والأصنام التي تعبدونها، والتي جعلتموها شريكا لله، وعبدتموها مع عبادة الله، وسألتموها كما تسألون الله ﷻ.

س: هل كان قوم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعبدون الله ﷻ ويعبدون معه الأصنام والأوثان، أم كانوا يعبدون الأوثان والأصنام فقط؟

ج: الظاهر -والله تعالى أعلم- أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى، فيعبدون معه الأصنام والأوثان بدليل قوله: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، فهذا دل على أنهم كان يشركون مع الله آلهة أخرى.

وقد أورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال: في قول قوم إبراهيم لإبراهيم: تركت عبادة هذه؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فقالوا: ما جئت بشيء! ونحن نعبده ونتوجهه! فقال: لا، حنيفا!! قال: مخلصا، لا أشركه كما تشركون.

|

س: وضح معنى قول الخليل إبراهيم عليه السلام: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؟

ج: يقول الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين الذين اتخذوا مع الله أوثانا وأصناما يعبدونها، مخالفا لهم فيما هم عليه، ومعلنا ذلك لهم: إني توجهت بعبادتي لله عز وجل وحده لا شريك له، ذلكم الذي خلق السموات والأرض على غير مثالٍ سابق، توجهت إليه حنيفا أي مائلا عن الأصنام التي تبعدونها مع ا لله، فلن أعبد إلا الله عز وجل وحده لا شريك له، ولست منكم ولا على طريقكم ولا في سلككم أيها المشركون.

قال الطبري خ :

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم(يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويحيي ويميت = لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.

ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحب من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجه له وجهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه على غير التحنف غير نافع موجهه، بل ضاره ومهلكه (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، ولست منكم، أي: لست ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ...) الآية؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم-: وجادل إبراهيم قومه لما أعلن عن توحيده لله ﷻ وعن براءته من الشرك، وعن هجرانه للأصنام واعتزاله لها، فتعجب من صنيعهم هذا قائلا أتجادلونني لما وحدت الله ﷻ وأفردته بالعبادة، وقد تفضل علي بذلك الفضل؟!! فأمركم عجيب، ثم إني أعلنها لكم كرة أخرى فأقول: إنني لا أخشى أصنامكم، ولا أوثانكم التي عبدتموها من دون الله، فهي لا تنفع ولا تضر ولا تحيي ولا تميت ولا ترزق ولا تشفي ولا تمرض.

إنما الذي أخشاه: أن يقدر الله ﷻ شيئا على من سوء أو مكروه فالأمر كله لله، لا لأحدٍ سواه، فهو قادر على تقليب قلبي، قادر على إحيائي وإماتتي، وضري ونفعي قد علم ربي كل شيءٍ وأحاط بكل شيءٍ علما أفلا تتعظون وتعتبرون؟!!!

هذا، وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة:

يقول تعالى ذكره: وجادل إبراهيم قومه في توحيد الله وبراءته من الأصنام، وكان جدالهم إياه قولهم: أن آلهتهم التي يعبدونها خير من إلهه.

قال إبراهيم: (أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ)، يقول: أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة (وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ)، يقول: وقد وفقني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصرني طريق الحق حتى أيقنت أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه(وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ)، يقول: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دونه شيئا ينالني به في نفسي من سوء ومكروه.

وذلك أنهم قالوا له: «إنا نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء من برص أو خبل، لذكرك إياها بسوء»! فقال لهم إبراهيم: لا أخاف ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالني بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفع ولا تضر (إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ)، يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاءٍ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادر على ذلك.

وقال أيضا:

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، يقول: وعلم ربي كل شيء، فلا يخفى عليه شيء، لأنه خالق كل شيء، وليس كالآلهة التي لا تضر ولا تنفع ولا تفهم شيئا، وإنما هي خشبة منحوتة، وصورة ممثلة (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)، يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورة مصورة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئا ولا تعقله = وترككم عبادة من خلقكم وخلق كل شيء، وبيده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم لكل شيء.

|

س: على المؤمن دائما أن يكون حذرا من تقلبات الأمور سائلا الله ﷻ الثبات، دلل على ذلك؟

ج: نعم، على المؤمن أن يكون كذلك فهؤلاء أهل الإيمان من دعائهم: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) [آل عمران: ٨].

والخليل إبراهيم عليه السلام يقولك (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

أي أن الله قادر على أن يغير الأمور ويحدث أشياء غير التي أنا عليها الآن.

وكذلك يقول نبي الله شعيب عليه السلام: (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا) [الأعراف: ٨٩].

ونبينا محمد ﷺ كان يقولك «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»(١).

وكان من أكثر إيمانه لا ومقلب القلوب.

وكان يتعوذ قائلا: «اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت»(٢).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا): أستثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ.

س: وضح معنى قوله: (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)؟

---

(١) صحيح: أخرجه في «المسند» (١٨٢/٤).

(٢) مسلم (مع النووي: ٣٨/١٧)، مطلعة: اللهم لك أسلمت.

ج: قال الحافظ ابن كثير خ في معناها:

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: فيما بينته لكم، فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها، وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣- ٥٦].

|

س: وضح معنى قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ الآية؟

ج: المعنى –والله أعلم–: وكيف أخشى آلهتكم التي لا تنفع ولا تضر ولا تملك دفع الضر عن نفسها فضلا عن غيرها، وأنتم لا تخشون عاقبة شرككم بالله عز وجل وعاقبة عبادتكم أصناما لم ينزل الله لكم برهانا بعبادتها ولا إذنا بعبادتها، فمن منا الذي ينبغي أن يخشى ويخاف؟ المشرك الذي جعل مع الله إلها آخر؟!!

أم من يعبد ربا واحدا أم من يعبد أربابا كثيرة؟!!

أم المؤمن الموحد الذي لم يتخذ لله شريكا؟!!، أفيدوني إن كان عندكم علم بالجواب؟!، أجيبوني إن كنتم تعلمون صدق مقولتي؟!!

قال الطبري رحمه الله:

وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن تمسه، لذكره إياها بسوء في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها كسرى إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ)، يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يضع

لكم عليه برهانا، ولم يجعل لكم به عذرا (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ)، يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصا له العبادة، حنيفا له ديني، بريئا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناما لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانا ولا حجة (إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)، يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتج به عليكم، فقولوا وأخبروني: أي الفريقين أحق بالأمن؟

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي: حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [النجم: ٢٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ) ففي «كيف» معنى الإنكار، أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لا يخافون الله عَزَّ وَجَلَّ، أي كيف أخاف مواتا وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شي (مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ) أي حجة.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

س: من قائل: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ).

ج: في ذلك قولان:

أحدهما: أن قائل ذلك هو الله ﷻ فصل فيه الخصومة بين إبراهيم عليه السلام وقومه.

الثاني: أن قائل ذلك هم قوم إبراهيم، فحاجهم إبراهيم عليه السلام فحجهم، أي غلبهم بالحجة حتى اضطرهم وألجأهم إلى أن يقولوا ذلك.

واورد الطبري القولين فقال:

اختلف أهل التأويل في الذي أخبر تعالى ذكره عنه أنه قال هذا القول أعني: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ)، الآية.

فقال بعضهم: هذا فصل القضاء من الله بين إبراهيم خليله ﷺ، وبين من حاجه من قومه من أهل الشرك بالله، إذ قال لهم إبراهيم: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)؟ فقال الله تعالى ذكره، فاصلا بينه وبينهم: الذين صدقوا الله وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه وتصديقهم له بظلم يعني: بشرك ولم يشركوا في عبادته شيئا، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصا، أحق بالأمن من عقابه مكروه عبادته ربه، من الذين يشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأصنام، فإنهم الخائفون من عقابه مكروه عبادتهم أما في عاجل الدنيا فإنهم وجلون من حلول سخط الله بهم، وأما في الآخرة، فإنهم الموقنون بأليم عذاب الله.

ثم قال:

وقال آخرون: هذا جواب من قوم إبراهيم ﷺ لإبراهيم، حين قال لهم: «أي الفريقين أحق بالأمن»؟ فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوحدوه أحق بالأمن، إذا لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

واختار الطبري ؒ القول الأول وانتصر له فقال:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هذا خبر من الله تعالى ذكره عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءٍ منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه. وذلك أن ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها في عبادة الله، لكانوا قد أقروا بالتوحيد واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيد، ولكنه كما ذكرت من تأويله بديا.

س: ما لمراد بقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ في الآية الكريمة؟

ج: ذهب أكثر العلماء إلى: المراد بالظلم في هذا الموطن الشرك، وقد ورد في هذا حديث رسول الله ﷺ.

أخرج البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾ قال أصحابه وأينا لم يظلم؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (١).

س: ما المراد بالحجة في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾؟

ج: قال بعض العلماء إنها المجادلة التي غلب إبراهيم عليه السلام وقومه، وهي قوله لهم: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾، قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين: «أي الفريقين أحق بالأمن»، أمن يعبد ربا واحدا مخلصا له الدين والعبادة أم من يعبد أربابا كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: «بل من يعبد ربا واحدا أحق بالأمن»، وقضاؤهم له على أنفسهمن فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم. فهي الحجة التي أتاها الله إبراهيم على قومه.

س: في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قراءتان وضحهما مع إيضاح المعنى.

ج: القراءتان أولاهما درجاتٍ بالتنوين.

الثانية درجاتٍ بالكسر والإضافة.

قال الطبري رحمه الله:

واختلفت القرأة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قرأة الحجاز والبصرة: «نرفع درجات من نشاء»، بإضافة «الدرجات» إلى ﴿مَّن﴾، بمعنى: نرفع الدرجات لمن نشاء.

(١) البخاري (٤٦٢٩).

وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بتنوين «الدرجات»، بمعنى: نرفع من نشاء درجات.

و«الدرجات» جمع «درجة»، وهي المرتبة. وأصل ذلك مراقي السلم ودرجه، ثم تستعمل في ارتفاع المنازل والمراتب.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: هما قراءتان قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القرأة، متقارب معناهما. وذلك أن من رفعت درجته، فقد رفع في الدرج = ومن رفع في الدرج، فقد رفعت درجته. فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك.

|

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؟

ج: المعنى والله أعلم، وهذه التي ذكرناها لك يا رسول الله من محاججة إبراهيم لقومه ومناقشته معهم وغلبه لهم بالحجة لما قال لهم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ أمن عبد إلها واحدا كمن تعددت معبوداته؟! وهزيمتهم أمام قوله هذا.

تلك الحجة فضل من الله تفضل به على إبراهيم عليه السلام، ومنقبة أتاه الله إياها فغلب قوله بفضل الله ﷻ، يرفع الله بهذا العلم وبتلك الحجج من يشاء من خلقه على من جهلوا تلك الحجج والبراهين، وإن سأل سائل لماذا اختص الله إبراهيم عليه السلام بذلك، فجواب قوله في ختام الآية الكريمة إن ربك حكيم في تلقينه عباده الصالحين حججهم كي يغلبوا بها أهل الكفر، عليم بمن يستحق الهداية والغلبة بالحجة فقوله نرفع درجات من نشاء قيل بالعلمن وقيل بالنبوة، وقيل هي عامة والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

فمعنى الكلام إذا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، فرفعنا بها درجته عليهم، وشرفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة.

فأما في الدنيا، فآتيناه فيها أجره وأما في الآخرة، فهو من الصالحين ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ

مَّن نَّشَآءُ)، أي بما فعل من ذلك وغيره.

وأما قوله: (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)، فإنه يعني: إن ربك، يا محمد،(حَكِيمٌ)، في سياسته خلقه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره(عَلِيمٌ)، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أوإنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فأتس، يا محمد، في نفسك وقومك المكذبيك، والمشركين، بأبيك خليلي إبراهيم ﷺ، واصبر على ما ينوبك منهم صبره، فإني بالذي يؤول إليه أمرك وأمرهم عالم، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماما للناس، بحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره.

قال تعالى (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ) [المجادلة: ١١] .

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ) الآية؟

ج: المعنى؟ والله تعالى أعلم، ورزقنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بولدٍ صالح ونبي كريم وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا رزقنا إسحاق بولدٍ صالح ونبي كريم وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهدينا هؤلاء أجمعين، ووفقناهم إلى طريق الحق والرشاد، وإلى الطريق المستقيم وكذا هدينا من قبلهم نوحا، وهدينا من ذرية نوحٍ داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وبهذا الجزاء الذي جازينا به هؤلاء من هدايتهم إلى الطريق المستقيم نجزي كل محسن وكل منيب، فهدايتنا لا تقتصر على هؤلاء بل نجزي كل محسنٍ

بالهداية أيضا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربه، ومفارقته دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولادا خصصناهم بالنبوة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين، منهم: ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب ﴿كُلًّا هَدَيْنَاۚ﴾، يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ﴾، يقول: وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الحق والصواب، فوفقناه له نوحا، من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر الله تعالى عبده وخليله، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذكر ما من الله عليه به، من العلم والدعوة، والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيْنَاۚ﴾ الصراط المستقيم، في علمه وعمله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، وبشروه مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلا وعقبا، كما قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد

شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، عَزَّ وَجَلَّ، عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال [تعالى] (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا).

|

س: الهاء في قوله تعالى: (قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ) عائدة على من؟

ج: ذهب فريق من أهل العلم إلى أنها عائدة على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وليست بعائدة على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك لقوله تعالى ﴿وَلُوطًا﴾ ولوط ليس من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وانتصر الطبري لذلك بقوله:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ﴾، و«الهاء» التي في قوله:﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾، من ذكر نوح. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطا فقال:﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. ومعلوم أن لوطا لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفا على أسماء من سمينا من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطا ليس من ذرية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون«الهاء» في«الذرية» من ذكر نوح.

فتأويل الكلام: ونوحا وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهدينا أيضا من ذرية نوح، داود وسليمان.

= و«داود»، هو داود بن إيشا و«سليمان» هو ابنه: سليمان بن داود = و«أيوب»، هو أيوب بن موص بن رزاح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم = و«يوسف»، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم = و«موسى»، هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب و«هارون»، أخو موسى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى «نوحٍ»؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليبا.

وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من النور]

وفي ذكر «عيسى»، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في ذرية «إبراهيم» أو «نوحٍ»، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأمه «مريم» عَلَيْهَا السَّلَامُ، فإنه لا أب له.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وكما جازينا هؤلاء المذكورين وهديناهم فنجزي أيضا كل محسن، فخرجت الآية الكريمة بمفهومها عن الخصوص إلى العموم تبشيرا لأهل الإحسان في كل زمانٍ ومكان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: جزينا نوحا بصبره على ما امتحن به فينا، بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه، وهدينا من ذريته من بعده من ذكر تعالى ذكره من أنبيائه لمثل الذي هديناه

له. وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن.

س: ما أسماء آباء الأنبياء المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾؟

ج: الله أعلم بالصواب من ذلك.

وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

زكريا بن إدو بن برخيا، ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم ابنة عمران بن ياشهم ابن أمون بن حزقيا، ﴿وَإِلْيَاسَ﴾.

س: من: ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: هو نبي من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ من ذرية نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا أعلم له ذكر في حديث ثابت عن رسول الله ﷺ.

وقد أورد الطبري: من طريق عبيدة بن ربيعة(١) عن ابن مسعود قال: (إدريس) هو (إلياس) فالله أعلم بالصواب من ذلك.

س: من اليسع عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: نبي من أنبياء عَزَّ وَجَلَّ من ذرية نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا أعلم له ذكرا في سندٍ ثابت عن رسول الله ﷺ.

س: قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ لأي شيءٍ اجتبيناهم؟

ج: اجتبيناهم لإبلاغ رسالتنا إلى خلقنا.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟

ج: ودللناهم طريق مستقيم يوصلهم إلى مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ وجناته، ووفقناهم لذلك

(١) وسنده صحيح إلى عبيدة بن ربيعة، أخرجه الطبري (١٣٥١٩).

وسهلنا ذلك عليهم وحببنا سلوك هذا الطريق إليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) يقول: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ)، هذا الهدي الذي هديت به من سميت من الأنبياء والرسل، فوفقتهم به لإصابة الدين الحق الذي نالوا بإصابتهم إياه رضا ربهم، وشرف الدنيا، وكرامة الآخرة، هو (هُدَى ٱللَّهِ)، يقول: هو توفيق الله ولطفه، الذي يوفق به من يشاء، ويلطف به لمن أحب من خلقه، حتى ينيب إلى طاعة الله، وإخلاص العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفض الأوثان والأصنام (وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)، يقول: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم، بربهم تعالى ذكره، فعبدوا معه غيره (لَحَبِطَ عَنْهُم)، يقول: لبطل فذهب عنهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملون، لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال تعالى: (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله لهم وهدايته إياهم (وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله تعالى: (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) [الزمر: ٦٥] الآية، وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ) [الزخرف: ٨١]، وكقوله: (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: (لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ) [الزمر: ٤].

س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ)؟

ج: المراد بالكتاب هنا عموم الكتب التي أنزلها الله ﷻ على الأنبياء المذكورين، والتي منها صحف إبراهيم وموسى، والزبور الذي أنزل على داود عليه السلام والتوراة التي أنزلت على موسى وكذا الألواح، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام.

س: وضح المراد بقوله تعالى (فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)؟

ج: المراد، والله تعالى أعلم، أننا قد مننا يا رسول الله عليك بالقرآن وبالحجج والآيات، فإن كفر بها هؤلاء المشركون فهنالك من يؤمن بها ويقبلها شاكرا، هنالك من رزقناهم الإيمان والهداية فقبلوا نعمتنا عليهم التي هي القرآن وما فيه من الحجج والآيات شاكرين لنعمنا مثنين بها علينا.

والآية في معنى قوله تعالى: (قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا) [الإسراء: ١٠٧].

وفي معناها قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ) [المائدة: ٥٤].

ثم إن أهل العلم اختلفوا في تعيين الذين قال الله عنهم (قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ) فقال بعضهم إنهم الأنصار، فيكون المعنى إن كفرتم يا أهل الشرك من أهل مكة، فقد رزق الله أهل المدينة حب الإيمان وحب القرآن وحب النبي عليه الصلاة والسلام.

وقال آخرون: إن المراد بالقوم الذين ليسوا بكافرين: الملائكة.

وقال آخرون: إنهم الأنبياء المذكورون في الآيات التي قبلها والتي مطلعها (وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ....).

وهذا الأخير هو اختيار الطبري رحمه الله فقد قال:

وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عني بقوله: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، كفار قريش، ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية.

وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبرا عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبرا عن غيرهم.

فتأويل الكلام، إذ كان ذلك كذلك: فإن كفر قومك من قريش، يا محمد، بآياتنا، وكذبوا وجحدوا حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباسٍ، وسعيد بن المسيب، والضحاك، وقتادة، والسدي. ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريشٍ وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عربٍ وعجمٍ، ومليين وكتابيين، فقد وكلنا بها قوما ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون شيئا منها، ولا يردون منها حرفا واحدا، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

س: وضح معنى قوله تعاليك (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ)؟

ج: قال الطبري في معناها:

يقول تعالى ذكره: (أُوْلَٰٓئِكَ) هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك. (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ) يقول تعالى ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم، (ٱقۡتَدِهۡۗ) يا محمد: أي فاعمل وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضا، ومنهاج من سلكه اهتدى.

وهذا التأويل على مذهب من تأول قوله: (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ) أنهم الأنبياء المسمون في الآيات المتقدمة، وهو القول الذي اخترناه في تأويل ذلك.

وأما على تأويل من تأول ذلك: أن القوم الذين وكلوا بها هم أهل المدينة- أو:

أنهم هم الملائكة- فإنهم جعلوا قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، اعتراضا بين الكلامين، ثم ردوا قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، على قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا ﷺ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرا للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه [لهم] ويأمرهم به.

س: هل شرع من قبلنا شرع لنا؟

ج: ذهب إلى ذلك فريق من العلماء مستدلين بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وبقوله تعاله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ **[لقمان: ١٥]**.

وذهب آخرون إلى أن شرع من قبلنا ليس بشرعٍ لنا وذلك لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ **[المائدة: ٤٨]**.

ويمكن الجمع بأن يقال إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت من شرعنا ما ينسخه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص، كما في صحيح مسلم وغيره(١): أن أخت الربيع أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:«**القصاص القصاص**» فقالت أم الربيع: يا رسول الله أيقتص من فلانة؟! والله لا يقتص منها.

فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله يا أم الربيع القصاص كتاب الله**» قالت: والله لا يقتص منها أبدا. قال: فما زالت حتى قبلوا الدية. فقال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**».

(١) مسلم بنحوه (١٦٧٥)، والبخاري (٤٦١١).

فأحال رسول الله ﷺ على قول: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية.

وليس في كتاب الله تعالى نص على القصاص في السن إلا في هذه الآية، وهي خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها.

وإلى هذا ذهب معظم أصحاب مالكٍ وأصحاب الشافعي، وأنه يجب العمل بما وجد منها.

قال ابن بكيرٍ: وهو الذي تقتضيه أصول مالك وخالف في ذلك كثير من أصحاب مالكٍ وأصحاب الشافعي والمعتزلة، لقول تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وهذا لا حجة فيه، لأنه يحتمل التقييد: إلا فيما قص عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت من كتابكم. وفي صحيح البخاري عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس عن سجدة «ص» فقال: أو تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؟ وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم ﷺ بالاقتداء به.

قلت: (مصطفى): ولمزيد انظر: تأويل قوله تعالى من سورة المائدة ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾؟

ج: قال الطبري في معنى ذلك:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل﴾ لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكرهم بآياتي، أن تبسل نفس بما كسبت، من مشركي قومك يا محمد: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عوضا أعتاضه منكم عليه، وأجرا آخذه منكم، وما ذلك مني إلا تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم ممن هو مقيم على باطل، بأس الله أن يحل بكم، وسخطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم = وإنذار لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتنزجروا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئا، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ أي فيما وجب له واستحال عليه وجاز.

قال ابن عباسٍ: ما آمنوا أنه على كل شي قدير.

وقال الحسن: ما عظموه حق عظمته.

وهذا يكون من قولهم: لفلانٍ قدر.

وشرح هذا أنهم لما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ نسبوا الله عَزَّ وَجَلَّ إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح، فلم يعظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته. وقال أبو عبيدة: أي ما عرفوا الله حق معرفته.

قال النحاس: وهذا معنى حسن، لأن معنى قدرت الشيء وقدرته عرفت مقداره.

ويدل عليه قول تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ أي لم يعرفوه حق معرفته، إذ أنكروا أن يرسل رسولا. والمعنيان متقاربان. وقد قيل:

وما قدروا نعم الله حق تقديرها. وقرأ أبو حيوة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِۦٓ﴾ بفتح الدال، وهي لغة.

س: وضح مرادهم بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ ومن قائله؟

ج: مرادهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا الزبور على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا الإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا القرآن على محمد ﷺ ولا أنزل أي كتاب على أي شخصٍ من البشر.

أما قائل ذلك فقد اختلف في تعيينه فمن العلماء من قال:

إن القائل رجل من اليهود، قيل هو مالك بن الصيف وقيل فخاص اليهودي.

والقول الثاني: أن قائل ذلك جماعة من اليهود، وذلك للآية التي تلت هذه الآيات وهي: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ....).

والقول الثالث: أن قائل ذلك مشركوا قريش وهذا الأخير اختيار الطبري، وذلك لأن السياق المتقدم فيهم، وانفك الطبري خ عن احتجاج أهل القول الثاني بقوله والأصوب في قوله: (تَجْعَلُونَهُۥ) بالياء أي (يجعلونه).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني بقوله(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ)، مشركو قريش.

وذلك أن ذلك في سياق الخبر عنهم أولا فأن يكون ذلك أيضا خبرا عنهم، أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود ولما يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلا مع ما في الخبر عمن أخبر الله عنه في هذه الآية، من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئا من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود: الإقرار بصحف إبراهيم وموسى، وزبور داود.

وإذا لم يأت بما روي من الخبر، بأن قائل ذلك كان رجلا من اليهود، خبر صحيح متصل السند = ولا كان على أن ذلك كان كذلك من أهل التأويل إجماع وكان الخبر من أول السورة ومبتدئها إلى هذا الموضع خبرا عن المشركين من عبدة الأوثان وكان قوله:(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ)، موصولا بذلك غير مفصول منه لم يجز لنا أن ندعي أن ذلك مصروف عما هو به موصول، إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

ولكني أظن أن الذين تأولوا ذلك خبرا عن اليهود، وجدوا قوله:(قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ)، فوجهوا تأويل ذلك إلى أنه لأهل التوراة، فقرءوه على وجه الخطاب لهم: (تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ)

فجعلوا ابتداء الآية خبرا عنهم، إذ كانت خاتمتها خطابا لهم عندهم.

وغير ذلك من التأويل والقراءة أشبه بالتنزيل، لما وصفت قبل من أن قوله: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ)، في سياق الخبر عن مشركي العرب وعبدة الأوثان وهو به متصل، فالأولى أن يكون ذلك خبرا عنهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش -والعرب قاطبة- كانوا يبعدون إرسال رسولٍ من البشر، كما قال (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ) [يونس: ٢] ، وقال تعالى: (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا) [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) إذ قالوا (مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) قال الله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ)؟ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيءٍ من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضيةٍ جزئيةٍ موجبةٍ: (مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ) يعني: التوراة التي قد علمتم -وكل أحدٍ- أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران (نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ)، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركين] وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملا لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة، التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأي قدح في الله أعظم من هذا؟ « قل لهم –ملزما بفساد قولهم، وقررهم، بما به يقرون-: (مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ) وهو التوراة العظيمة (نُورًا) في ظلمات الجهل (وَهُدًى) من الضلالة، وهاديا إلى الصراط المستقيم

علما وعملا وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره القلوب والأسماع. حتى أنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاءوا، فما وافق أهواءهم منه، أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك، أخفوه وكتموه، وذلك كثير.

س: ما الكتاب الذي جآء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: المراد به التوراة.

س: اذكر بعض ما أخفاه اليهود من التوراة؟

ج: أخفوا أمورًا كثيرة كما قال تعالى: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وقد ذكر العلماء من ذلك ما يلي:

صفة رسول الله ﷺ، فقد موصوفا عندهم في التوراة تمام الوصف ومعروفا لديهم تمام المعرفة.

آية الرجم فقد أخفوها.

وفضح أمرهم في ذلك عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بعض صور العذاب التي حلت بسلفهم، والتي منها مسخهم إلى قردة وخنازير.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ...﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء المنكرين لك من اليهود القائلين: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ يا هؤلاء من أنزل التوراة على موسى ﷺ، تلك التوراة التي أبديتم بعضها وأخفيتم بعضها، ومع كونكم أخفيتم بعضها إلا أنكم أقررتم بالبعض الآخر، وإقراركم أي جزءٍ منها إقرار بأن الله أنزل كتبا على بشرٍ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لمشركي قومك القائلين لك: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا﴾، يعني: جلاء وضياء من ظلمة الضلالة، ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، يقول: بيانا للناس، يبين لهم به الحق من الباطل فيما أشكل عليهم من أمر دينهم، ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: (تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا)؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها:

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعا تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون هذا من عند الله، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: (تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا).

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ)؟

ج: المعنى، والله أعلم، وعلمتم يا معشر يهود أمورا كانت خافية عليكم من قبل، وكذا كانت خافية على الآباء وذلك مما أخفاه عليكم أسلافكم وأجدادكم، علمناكم تلك الأمور وأخبرناكم بها، كما قال تعالى: (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ) [المائدة: ١٥] أي ويستر كثيرا من الأمور فلا يفضحكم بها، ومن ذلك بعض صور العذاب التي حلت بسلفكم، وبعض المخازي التي ارتكبها سابقوكم.

ويحتمل أن يكون المعنى أيضا، وعلمتم يا أهل الشرك من أهل مكة في هذا الكتاب الذي أنزل الله على نبيه محمد ﷺ أمورا كنتم تجهلونها، فمن ذلك إخباركم بأحوال الأمم المتقدمة وما حل بها وما حدث لها، وكذا إخباركم بما هو آتٍ من أمر البعث والمعاد والحساب، والجنة والنار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وعلمكم الله جل ثناؤه بالكتاب الذي أنزله إليكم، ما لم تعلموا أنتم من أخبار من قبلكم، ومن أنباء من بعدكم، وما هو كائن في معادكم يوم القيامة (وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ)، يقول: ولم يعلمه آباؤكم، أيها المؤمنون بالله من العرب وبرسوله ﷺ

س: استدل بعض أهل الأهواء بقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ) على جواز الذكر بقول الله الله...ما مدى صحة هذا الاستدلال؟

ج: هذا بلا شك استدلال في غير محله، لأن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إجابة على سؤال سابق، وهو ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (قُلِ ٱللَّهُ)، فإنه أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمدا ﷺ أن يجيب استفهامه هـؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا)، بقيل الله، كأمره إياه في موضع آخر في هذه السورة بقوله: (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ)، [سورة الأنعام: ٦٣] . فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفهامهم إذ قالوا: (مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ)، عمن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس. ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقيله: (قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) [سورة الأنعام: ٦٤] ، كما أمره بالإجابة ههنا عن ذلك بقيله: الله أنزله على موسى.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وبعد أن طرحت يا رسول الله على هؤلاء المنكرين نبوتك سؤالك من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى....ولم يجدوا جوابا وجيها يردن عليك به، فأخبرهم أنت بصحيح الجواب، ثم اتركهم في ضلالاتهم وجهالتهم واستهزائهم وسخريتهم يخوضون فيما هم فيه خائضون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)، فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: ثم ذر هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام، بعد احتجاجك عليهم في قيلهم: (مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ)، بقولك: (مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ)، وإجابتك ذلك بأن الذي أنزله: الله الذي أنزل عليك كتابه (فِى خَوْضِهِمْ)، يعني: فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بالله وآياته (يَلْعَبُونَ)، يقول: يستهزئون ويسخرون.

وهذا من الله وعيد لهؤلاء المشركين وتهدد لهم: يقول الله جل ثناؤه: ثم دعهم

لاعبين، يا محمد. فإني من وراء ما هم فيه من استهزائهم بآياتي بالمرصاد، وأذيقهم بأسي، وأحل بهم إن تمادوا في غيهم سخطي.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم أن هذا الكتاب موافق للكتب التي تقدمته وذلك في نفي الشرك وإثبات التوحيد وغير ذلك.

س: ما المراد بالذي (بَيْنَ يَدَيْهِ)؟

ج: المراد، والله أعلم، الكتب التي تقدمته كالتوراة والإنجيل.

س: وضح معنى قوله: (وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والذين يصدقون بالبعث وبالثواب والعقاب وأن ذلك كائن يوم القيامة، هؤلاء يصدقون بهذا القرآن ويحافظون على الصلوات، فخوفهم من الحساب وإيمانهم بالبعث، كل ذلك يحملهم على المحافظة على الصلاة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد في الآخرة إلى الله، ويصدق بالثواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، ويصدق به، ويقر بأن الله أنزله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمره الله بإقامتها، لأنه منذر من بلغه وعيد الله على الكفر به وعلى معاصيه، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذب، أهل التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثوابا، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقابا.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ)؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وليس هناك أحد أظلم من شخص تقول على الله ﷻ ونسب إليه ما لم يقله، أو ادعى أن الله ﷻ جعله نبيا وأوحى إليه قرآنا ولم يوحي الله إليه قرآنا، أو قال: سآتي من عند نفسي بقرآن كالذي أنزل الله على رسوله محمد

ﷺ فلا أحد أظلم من هؤلاء الكذبة المفترين هذا، وهذه الآية تنسحب على مسيلمة الكذب الذي ادعى أنه قد أوحي إليه، وأمثاله من المفترين الكذابين وكذا تنسحب على عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي ادعى أنه سيأتي بقرآنٍ كالذي أنزل على رسول الله ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني جل ذكره بقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ومن أخطأ قولا وأجهل فعلا، ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، يعني: ممن اختلق على الله كذبا، فادعى عليه أنه بعثه نبيا وأرسله نذيرا، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب.

وهذا تسفيه من الله لمشركي العرب، وتجهيل منه لهم، في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفي مسيلمة، لنبي الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ ونفي منه عن نبيه محمد ﷺ اختلاق الكذب عليه ودعوى الباطل.

وذكر الطبري عن بعضهم أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي السرح خاصة، ولكنه تعقب ذلك بقوله: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله قال: (وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ)، ولا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: «إني قد قلت مثل ما قال محمد»، وأنه ارتد عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قيله مفتريا كذبا.

وكذلك لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسي الكذابين، ادعيا على الله كذبا. أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما إن الله أوحى إليه، وهو كاذب في قيله.

فإذ كان ذلك كذلك، فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقا على الله كذبا، وقائلا في ذلك الزمان وفي غيره: «أوحى الله إلي»، وهو في قيله كاذب، لم يوح الله إليه شيئا.

فأما التنزيل، فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم وجائز أن يكون عني به جميع المشركين من العرب إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيروه.

فعيرهم الله بذلك، وتوعدهم بالعقوبة على تركهم نكير ذلك، ومع تركهم نكيره هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون، فقال لهم جل ثناؤه: «ومن أظلم ممن ادعى علي النبوة كاذبا»، وقال: (أُوحِيَ إِلَيَّ)، ولم يوح إليه شيء، ومع ذلك يقول: (مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ)، فينقض قوله بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته. وذلك إذا تدبره العاقل الأريب علم أن فاعله من عقله عديم.

فائدة:

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (عند تفسيره لهذه الآية الكريمة:

قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون، ويستدلون على هذا بالخضر، وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤالٍ ولا جوابٍ، فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ. وسيأتي لهذا المعنى في«الكهف» مزيد بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وقال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلما، ولا أكبر جرما، ممن كذب [على] الله. بأن نسب إلى الله قولا أو حكما وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله -ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك، ادعاء النبوة، وأن الله يوحي إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه -مع

كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه- يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية، كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

(وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) أي: ومن أظلم ممن زعم. أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع، كما شرعه الله. ويدخل في هذا، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني، الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

س: من الذين عناهم الله بقوله: (ٱلظَّٰلِمُونَ)؟

ج: هم، والله أعلم، الذين ذكرهم الله ﷻ في صدر الآية الكريمة، وهم المفترون على الله كذبا، والزاعمون أن الله ﷻ قد أوحى إليهم، والزاعمون أنهم سيأتون بقرآنٍ كالذي نزل الله على نبيه محمد ﷺ.

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ...)؟

ج: في معناها ما يلي:

قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ) [الأنفال: ٥٠].

وقوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ) [محمد: ٢٧]

س: وضح معنى الآية الكريمة: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ....) بإيجاز؟

ج: المعنى، ولو رأيت ما يحدث للكفار عند الاحتضار، والملائكة تتلقاهم بالضرب قائلة لهم أخرجوا أنفسكم...، لو رأيت ذلك لرأيت منظرا بشعا رهيبا مخيفا

تقشعر منه الجلود وتذهل له العقول.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

س: هل بنو آدم الذين يقبضون أنفسهم من أجسامهم حتى يقال لهم ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾؟

ج: قل: بل الذي يقبضها ملك الموت وأعوانه، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ **[السجدة: ١١]**.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ **[الأنعام: ٦١]**.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: ما وجه قوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، ونفوس بني آدم إنما يخرجها من أبدان أهلها رب العالمين؟ فكيف خوطب هؤلاء الكفار، وأمروا في حال الموت بإخراج أنفسهم؟ فإن كان ذلك كذلك، فقد وجب أن يكون بنو آدم هم يقبضون أنفس أجسامهم!

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي [إليه] ذهبت وإنما ذلك أمر من الله على ألسن رسله الذين يقبضون أرواح هؤلاء القوم من أجسامهم، بأداء ما أسكنها ربها من الأرواح إليه، وتسليمها إلى رسله الذين يتوفونها.

س: اذكر حديثا يبين كيفية نزع الأرواح من الأجساد؟

ج: ورد في ذلك حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما بسند صحيح عن رسول الله ﷺ، عند الإمام أحمد وغيره(١)، وفيه:

خطبنا رسول الله ﷺ، في يوم نحرٍ فقال: «**لا يذبحن أحد حتى نصلي**»، فقام خالي، فقال: يا رسول الله، هذا يوم اللحم فيه مكروه، وإني عجلت، وإني ذبحت نسيكتي لأطعم أهلي وأهل داري، أو أهلي وجيراني، فقال: «**قد فعلت فأعد ذبحا آخر**»، فقال: يا رسول الله، عندي عناق لبنٍ هي خير من شاتي لحمٍ، أفأذبحها؟ قال: « نعم، وهي خير نسيكتيك، ولا تقضي جذعة عن أحدٍ بعدك.

حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو معاوية قال ثنا الأعمش عن منهال بن عمرٍو، عن زاذان، عن البراء بن عازبٍ، قال: خرجنا مع النبي ﷺ، في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثا**» ، ثم قال: « **إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ** ». قال: «**فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسكٍ وجدت على وجه الأرض**» قال: « **فيصعدون بها، فلا يمرون، يعني بها، على ملإٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلانٍ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها**

(١) أحمد في «المسند» (٢٨٧/٤، ٢٨٨).

أخرجهم تارة أخرى ». قال: « فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة ». قال: «فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره» . قال: « ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي ». قال: « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ ». قال: « فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلانٍ بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له »، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ) [الأعراف: ٤٠] فيقول الله ﷻ: «اكتبوا كتابه في سجينٍ في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا» . ثم قرأ: (وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج: ٣١] « فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها، وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر

بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، ولقد جئتمونا وحدانا لا مال معكم ولا أولاد ولا أهل ولا عشيرة ولا أصحاب ولا رفيق (أي ولا عبيد) ولا شيء معكم مما كانوا يتباهون في الدنيا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار يأتون يوم القيامة كل واحد منهم بمفرده ليس معهم شركاؤهم، وصرح تعالى بأن كل واحد يأتي فردا في قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وقوله في هذه الآية: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي منفردين لا مال، ولا أثاث، ولا رفيق، ولا خول عندكم، حفاة عراة غرلا، أي غير مختونين ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

وللمفسرين في معنى «فرادى» خمسة أقوال متقاربة المعنى:

أحدها: فرادى من الأهل والمال والولد، قاله ابن عباس.

والثاني: كل واحد على حدة، قاله الحسن.

والثالث: ليس معكم من الدنيا شيء، قاله مقاتل.

والرابع: كل واحد منفرد عن شريكه في الغي، وشقيقه، قاله الزجاج.

والخامس: فرادى من المعبودين، قاله ابن كيسان.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مع إيراد بعض أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، كما ولدتكم أمهاتكم حفاة عراة غرلا (أي غير مختونين) غلفا (أي بأعضائكم).

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ)؟

ج: المعنى، والله أعلم، ولقد جئتمونا يوم القيامة فرادى لا شيء معكم، ولا ولد ولا والد ولا مال ولا جاه ولا شيء، فلقد تركتم كل ذلك خلفكم في دنياكم كما في الحديث: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ) أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»(٢). وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

س: ما المراد بقوله تعالى: (وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ)؟

ج: هذا قول الله ﷻ للمشركين الذين كانوا يزعمون أن الأصنام والأوثان تشفع فيهم، فقيل لهم أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون وتدعونها لله شركاء لقد ذهبت عنكم فما ترى!!

أين اللات؟! أين العزى؟!! أين مناة؟!

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ) تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في [الدار] الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، ﷻ، على رءوس

(١) البخاري (حديث ٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).
(٢) مسلم (٢٩٥٩).

الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وقيل لهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم، لقد تقطعت أسباب التواصل التي كنتم تتواصلون بها في دنياكم- إلا وصلة الإيمان لقد تقطعت القرابات فلم يعد قريب يغني عن قريبه شيئا، وكذا تقطعت الصداقات، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع أي: شملكم، وقرئ بالنصب أي: لقد انقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] الآية، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الأنعام: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] والآيات في هذا كثيرة جدا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (في أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الأنداد التي كانوا يعبدونها في الدنيا تضل عنهم يوم القيامة، وينقطع ما كان بينهم من الصلات في الدنيا، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جدا كقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ **[الأحقاف: ٦]**، وقوله: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ **[مريم: ٨٢]**، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ **[العنكبوت: ٢٥]**، وقوله: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾، وقوله هنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ **[الأنعام: ٩٤]**.

(٢١٦) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَى:

(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ
وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ
ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ
تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ
بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧
وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ
فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ
مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ
مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ
إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩
وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ
بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ
شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢
لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ
١٠٣ قَدۡ

جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ
فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ
وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ
إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ وَأَقۡسَمُواْ

(٢١٧) أحمر
أسود

بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا
ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩
وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ
فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠) [الأنعام: ٩٥-١١٠].

الكلمة	معناها
﴿فَالِقُ﴾	الذي يشق (الحب والنوى)- فلق: شقَّ، والفلقة هي: الشق بين الحبة.
﴿ٱلْحَبِّ﴾	جمع حبة.
﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾	جمع نواة(١).
﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾	فاعل ذلك هو: الله(٢).
﴿فَأَنَّىٰ﴾	من أيِّ وجهٍ (من وجوه الباطل).
﴿تُؤْفَكُونَ﴾	تصرفون عن الصواب.
﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾	شاق الصبح من ظلمة الليل- مُضيء الفجر من ظلمة الليل، أتى بضوء الفجر من ظلمة الليل.
﴿سَكَنًا﴾	وقتًا للسكون والراحة، يسكن فيه كل متحرك – مستقرًّا – مأوى.
﴿حُسْبَانًا﴾	يجريان بحساب (إلى أجل معلوم) كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].
﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾	الذي عزَّ سلطانه – الذي يفعل ما يريد ولا يمنعه مانع مما أراد – عظيم السلطان منيع الجناب.
﴿فَصَّلْنَا﴾	ميزنا- بينا- فرَّقنا.
﴿أَنشَأَكُم﴾	خلقكم.
﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾	مكانٌ تستقرون(٣) فيه (قيل: هو: الرحم).
﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾	مكان يستودعكم غيركم فيه (قيل: هو: القبر).
﴿يَفْقَهُونَ﴾	يفهمون.
﴿خَضِرًا﴾	النبات الأخضر- وقيل: الخضروات- وقيل: البقول.

(١) فلق النواة فأخرج منها نبات النخلة، وفلق الحبة فأخرج منها نباتها.
(٢) من أي وجه تهربون من الإقرار بوحدانية، وقد فصَّل لكم الآيات وبينها.
(٣) وذلك لقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

الكلمة	معناها
﴿حَبًّا﴾	ما في السنابل (حب الحنطة – الشعير – الأرز).
﴿مُّتَرَاكِبًا﴾	يركب بعضها بعضًا (كحب السنابل).
﴿قِنْوَانٌ﴾	جمع قنو، وهو: العذق.
﴿دَانِيَةٌ﴾	متدلية(١) – قريبة.
﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾	نضجه – بلوغه حين يبلغ.
﴿وَخَرَقُوا۟﴾	اخترعوا– افتروا – كذبوا – تخرصوا.
﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾	تنزَّه.
﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾	علا وارتفع.
﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	محدثهما على غير مثال سابق (بعد أن لم يكونا شيئًا) الذي أحسن خلق السموات والأرض.
﴿صَـٰحِبَةٌ﴾	زوجة.
﴿وَكِيلٌ﴾	رقيب– حفيظ.
﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾	لا تحيط به الأبصار.
﴿ٱللَّطِيفُ﴾	الرفيق بعباده– موصِّل الشيء باللين والرفق الذي يعامل أهله باللطف والرأفة.
﴿بَصَآئِرُ﴾	جمع بصيرة؛ وهي: الحجة والبينة، والمراد: الآيات.
﴿بِحَفِيظٍ﴾	برقيب– بِمُحْصٍ للأعمال.
﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾	نفصل الآيات– ننوع الآيات.
﴿دَرَسْتَ﴾	تعلمت من غيرك.
﴿عَدْوًۢا﴾	جهلًا واعتداءً.
﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	بجهل.

(١) قريبة من الأرض، وذلك في نوعٍ من النخيل قصير.

الكلمة	معناها
﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾	حلفوا بالله.
﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾	مجتهدين في الأيمان.
﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾	ليصدقن بها- ليصدقنك في أنها من عند الله.
﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾	وما يدريكم.
﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾	قلوبهم.
﴿وَنَذَرُهُمْ﴾	نتركهم.
﴿يَعْمَهُونَ﴾	يترددون- يتحيرون- لا يهتدون للحق- لا يبصرون صوابا.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى فالق الحب والنوى؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم: أن الله ﷻ هو الذي شق الحبة فأخرج منها النبات، وفلق النواة فأخرج منها النخة وكما أنه فعل ذلك فهو قادر على إحياء الموتى، وعلى إخراج الحي من الميت والميت من الحي.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه. يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة، أيها الناس، دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان، هو الله الذي فلق الحب = يعني: شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع =«والنوى»، من كل ما يغرس مما له نواة، فأخرج منه الشجر.

و«الحب» جمع«الحبة»، و«النوى» جمع«النواة».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت، كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ

ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣] على قوله: ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

قال السمعاني في «تفسيره»:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ ﴾ الفلق: الشق، ومعناه: أنه يشق الحبة؛ فيستخرج السنبلة من الحبة، ويشق النواة؛ فيستخرج النخلة من النواة، ويدخل في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ ﴾ جميع البذور والحبوبن ويدخل في قوله: ﴿وَٱلنَّوَىٰۖ ﴾ نواة جميع الأشجار مثل: نواة المشمش، ونواة الخوخ، ونواة الغبيراء، ونحو ذلك، وقيل: فالق الحب والنوى بمعنى: خالق الحب والنوى.

|

س: ما المراد بالحي، وما المراد بالميت في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ﴾؟

ج: في ذلك أقوال ذكرها العلماء منها ما يلي:

الحي: المؤمن.

والميت: الكافر.

الحي: السنبلة.

الميت: الحبة.

الحي: النخلة.

الميت: النواة.

والحي: الإنسان الحي.

الميت: النطفة.

الحي: الدجاجة.

الميت: البيضة.

وثم أقوال أخر.

وقد اختار الطبري في هذا المقام بعض ما ذكر دون الأخر فقال:

يقول تعالى ذكره: يخرج السنبل الحي من الحب الميت، ومخرج الحب الميت

من السنبل الحي، والشجر الحي من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي.

والشجر ما دام قائما على أصوله لم يجف، والنبات على ساقه لم ييبس، فإن العرب تسميه «حيا»، فإذا يبس وجف أو قطع من أصله، سموه «ميتا».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد عبروا عن هذا [وهذا] بعباراتٍ كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائلٍ: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قائلٍ: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم: أن الله ﷻ يذكر خلقه بنعمه عليهم ويذكرهم بقدرته، فيقول: فالق الإصباح أي: أنه أخرج الضياء من الظلام وفلق الصبح من الليل، فجعل النهار منيرا ليسعى الناس على معايشهم ويلتمسوا أسباب الرزقن وجعل الليل لهم للراحة والهدوء والسكون تستريح فيه الأبدان من العناء والتعب.

قال الحافظ ابن كثر رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدآدئه وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي: ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤].

وقال السعدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»..:

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل

الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿وَجَعَلَ﴾ الله ﴿ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم: أن الله ﷻ جعل الشمس والقمر يجريان بحساب لا يتعديانه ولا يتجاوزانه فلهما مسارات يسيران فيها وأزمنة لمسير كل منهما، يقدر ذلك كله العزيز الذي لا يمنعه مما أراد مانع ولا يحول بينه وبين مراده حائل (العليم) بمصالح العباد والعليم بكل شيء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي: يجريان بحسابٍ مقننٍ مقدرٍ، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا، كما قال ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ الآية [يونس: ٥]، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف العليم بكل شيءٍ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]

وقال السعدي في «تفسيره»:

وجعل تعالى: (وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ) بهما تعرف الأزمنة والأوقات فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بهما مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتنار بهما، واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس ولا اشتركوا في علمه. بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

س: ما المراد بالظلمات في قوله تعالى: (لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ) وما المراد بظلمات البر وظلمات البحر؟

ج: أما الظلمات فهي: ظلمات الليل.

أما ظلمات البر: فظلمات الليل التي تسبب لكم الخطأ والضلال والحيود عن الطريق وأنتم على الأرض.

أما ظلمات البحر: فالظلمات التي تحل بكم وأنتم في البحر فتضلوا عن الطريق بسببها، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي جعل لكم، أيها الناس، النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا تستدلون بها على المحجة، فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك، كما قال جل ثناؤه: (وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ) [النحل: ١٦]، أي: من ضلال الطريق في البر والبحر = وعنى بالظلمات، ظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض أو الماء.

س: اذكر بعض الأدلة على مشروعية الاهتداء بالنجوم والاستدلال بها، وهل في ذلك إشارة إلى شيءٍ؟

ج: من ذل ما يلي:

قوله تعالى: (وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ) [النحل: ١٦].

وقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ).

وقال بعض العلماء: كما أن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الرسل يهتدي بهم إلى طريق الله ﷻ،وينقذنا الله بهم من ظلمات الكفر والجهالة، وأيضا فالدعاة إلى الله يهتدي بهم.

والكافر ميت في ظلمةٍ والمؤمن حي في نور وضياء، وحياة المؤمن بإقباله على هدى الله ﷻ وإيمانه، وموت الكافر بضلاله وكفره وابتعاده عن الإيمان.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: (قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)؟

ج: معنى ذلك، والله أعلم: قد ذكرنا الآيات والدلالات على وحدانيتنا وقدرتنا وعملنا في عدة مواطن من كتابنا الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ، لعل قوما يعلمون ذلك ويفقهونه ويتدبرونه فيقبلون على طاعتنا وامتثال أمرنا وتوحيدنا.

فقوله: (فَصَّلْنَا) من فصل الشيء بعضه عن بعض، وفصلنا الآيات أي: أتينا بها في مواطن متفرقة، ولعل المعنى يتضح من قوله تعالى في شأن الآيات التي أرسلها الله على فرعون وقومه(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ) [الأعراف: ١٣٣] أي: بين كل آيةٍ وآية فواصل أي: فواصل زمنية؛ فأرسلنا عليهم الطوفان وتركوا زمنا لعلهم يتذكرون فما تذكروا فأرسل عليهم الجراد....وهكذا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) يقول: قد ميزنا الأدلة وفرقنا الحجج فيكم وبيناها أيها الناس ليتدبرها أولو العلم بالله منكم ويفهمها أولو الحجا منكم، فينيبوا من جهلهم الذي هم عليه مقيمون، وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عنادا لله مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ في غيهم.

س: ما المراد بالنفس الواحدة؟

ج: المراد بالنفس الواحدة: آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

س: اذكر بعض أقوال العلماء في تفسير: المستقر والمستودع؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: المستقر هو: المستقر في الرحم، المستودع: القبور.

الثاني: المستقر هو: المستقر في الصلب- يعني: أصلاب الرجال-، المستودع: حيث تموت (المكان الذي تموت فيه).

الثالث: المستقر: مستقر بطون النساء، المستودع: أصلاب الرجال.

الرابع: المستقر: في الصلب، المستودع: على ظهر الأرض.

الخامس: المستقر: على الأرض، المستودع: عند الله.

السادس: المستقر: في الرحم، المستودع في الصلب.

السابع: المستقر: في القبر، المستودع: في الدنيا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم: قد فرقنا الآيات وبينا الحجج في غير موضع من كتابنا لعل هؤلاء المعرضين عن ذكر ربهم وهداه يفهمون عن الله مراده، وتتبين لهم قدرته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، يقول تعالى: قد بينا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، مواقع الحجج ومواضع العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه.

س: اذكر المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ....﴾؟

ج: المستفاد، والله تعالى أعلم: بيان قدرة الله ﷻ ونعمته في إنزال هذا الماء من السماء ذلكم الماء الذي يشرب منه الإنس وتشرب منه الدواب والأنعام، وتنمو به الأرض ويرزق منه بنو آدم وخرجت بسببه جميع النباتات، فالذي أنزل ذلك جدير با،

يعبد ولا يشرك به شيء، جدير بأن يخشى، جدير بأن يرهب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: بقدر مباركا رزقا للعباد وإحياء وغياثا للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؟

ج: المعنى، والله أعلم: فأخرجنا به كل النباتات، وقيل: المعنى فأخرجنا به ما ينبت به كل شيءٍ.

أما الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد قال:

وإنما معنى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح.

ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نبات جميع أنواع النبات، فيكون ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ هو أصناف النبات، كان مذهبا، وإن كان الوجه الصحيح هو القول الأول. كذا قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾؟

ج: قال الحافظ ابن كثير خ :

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: زرعا وشجرا أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والثمر؛ ولهذا قال: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضا، كالسنابل ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك النبات الخضر، ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك، من أصناف الزروع، وفي

وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

س: على أي أساس رفعت (قِنْوَانٌ)؟

ج: رفعت على أنه خبر لمبتدأ وهو جملة (وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا) أو مبتدأ والمعنى: وقنوان النخل التي تخرج من الطلع دانية، ولذلك رفعت قنوان.

س: كثيرا ما يمتن الله ﷻ على العباد بثمرات النخيل والأعناب دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى(وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)[النحل:٦٧]

وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ) [يس: ٣٤].

وقوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهذان النوعان: أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ).

ج: المعنى، والله أعلم: وأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء زيتونا ورمانا مشتبها في قولونه مختلفا في طعمه، أو مشتبها ورقه مختلفا ثمره هكذا، والمراد بقوله: (وَٱلزَّيْتُونَ) أي: شجر الزيتون، وكذا (وَٱلرُّمَّانَ): شجر الرمان.

قال السعدي رحمه الله:

وقوله (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ) يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل

ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به.

س: هل في الزيتون والرمان زكاة؟

ج: أما الرمان: فأكثر أهل العلم على أنه: لا زكاة فيه، أما الزيتون: فلأهل العلم فيه قولان: أحدها: لا زكاة فيه؛ لاقترانه بالرمان، وقال آخرون من أهل العلم: فيه الزكاة؛ لأنه يعصر وزيته له بقاءه ويدخر، ولأن الكريمة فيها: (وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ) [الأنعام: ١٤١]

ولمزيد انظر: كتب الفقه «المغني» وغيره، وكذا انظر: «تفسير القرطبي».

س: وضح معنى قوله تعالى: (ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ)؟

ج: المعنى، والله أعلم: فكروا أيها الناس فيما يحدث لهذه الزروع المذكورة، وكيف نمت، وكيف ترعرعت، معنى هذا: دلالة على قدرة الله ﷻ وعلى وحدانيته فلا يقدر على فعل ذلك أحد سواه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ) أي نضجه، قاله البراء بن عازبٍ، وابن عباسٍ، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي، وقتادة، وغيرهم، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطبا، صار عنبا ورطبا، وغير ذلك مما خلق ، من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كقوله تعالى: (وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الرعد: ٤] الآية، ولهذا قال هاهنا إن في ذلكم أيها الناس لآياتٍ أي دلالاتٍ، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته لقومٍ يؤمنون أي يصدقون به ويتبعون رسله.

س: اذكر معنى قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)؟

ج: المعنى: إن في المذكور في الآية الكريمة من نعم الله ﷻ على عباده من إنزال الماء وإخراج النبات به الذي منه الأخضر، ومنه ذو الحب والمتراكب، وكذا النخيل

والأعناب الزيتون والرمان المشتبه في لونه المختلف في طعمه، وكذا حاله عند البلوغ والنضج في كل ذلك دلالات على قدرتنا ووحدانيتنا يستدل بها على على وحدانيتنا قوم كتبنا لهم الهداية ووفقناهم للإيمان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره إن في إنزال الله من السماء الماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من صنوف خلقه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبرا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء.

وخص بذلك تعالى ذكره القوم الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طبع الله على قلبه، فلا يعرف حقا من باطل، ولا يتبين هدى من ضلالة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: أن هؤلاء المشركين جعلوا لله شركاء وعبدوهم مع الله ﷻ، هؤلاء الشركاء هم الجن.

فجعلوا الجن شركاء لله مع أن الله ﷻ هو خالقهم وخالق الجن كذلك هو وحده لا شريك له الذي خلقهم لم يشاركه في خلقهم أحد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فيكف عبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوا الأصنام إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك، كقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن

دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا) [النساء: ١١٧-١٢٠]، وكقوله تعالى: (أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا) [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: (۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾) [يس: ٦٠، ٦١].

وتقول الملائكة يوم القيامة: (سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ) [سبأ: ٤١]؛ ولهذا قال تعالى: (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ) أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كقول إبراهيم: (أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ) [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ومعنى الآية: أنه هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ)

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: أن هؤلاء المشركين منهم فريق جعلوا الجن شركاء لله فعبدوهم مع الله، ومنهم من افترى كذبا على الله واختلق لله البنين والبنات، فادعى أن الله له أبناء وبنات، فالمشركون عبدوا الجن، واليهود قالوا عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقبائل من العرب زعموا أن الملائكة بنات الله.

أما الأدلة على ما ذكر فمنها- على وجه الإيجاز- ما يلي:

قوله تعالى: (بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ) [سبأ: ٤١].

وقوله تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ) [التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى: (وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ) [الصافات: ١٥٨].

وقولـــه تعـــالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولدا، كما يزعم من قاله من اليهود في العزير، ومن قال من النصارى في المسيح وكما قال المشركون من العرب في الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ومعنى قوله ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ أي: واختلقوا وائتفكوا، وتخرصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: تنزه الله وارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة الكفرة أهل الشرك، إذ وصفوه بما لا يليق به فادعوا له الشريك وزعموا أن الجن شركاء لله زعموا أن لله البنات وأنه اتخذا ولدا كالعزير والمسيح، فنزه الله نفسه عن هذه الأوصاف وبين تعاليه عنها بقوله﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: تنزه الله، وعلا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه، في ادعائهم له شركاء من الجن، واختراقهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذي يحدث عنه الأولاد، والذين تضطرهم لضعفهم الشهوات إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: خالق السموات والأرض من أي وجهٍ يأتيه

الولد، والولد إنما يأتي من ذكر وأنثى والله ليست له صاحبه (أي: زوجة) فمن أين يأتيه الولد؟!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ﴾، والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء. يقول: فإذا كان لا شيء إلا الله خلقه، فأنى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ) أي مبدعهما، وخالقهما، ومنشئهما، ومحدثهما، على غير مثالٍ سبق، كما قال مجاهد والسدي: ومنه سميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف،

(أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ)أي كيف يكون ولد، (وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ)، أي والولد إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيءٍ، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا) [مريم: ٨٨- ٩٥] وخلق كل شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيءٍ، وأنه بكل شيءٍ عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

|

س: اذكر بعض أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى:(وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ)

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله خلق كل شيء، ولا خالق سواه. وكل ما تدعون أيها العادلون بالله الأوثان من دونه، خلقه وعبيده، ملكا، كان الذي تدعونه ربا وتزعمون أنه له ولد، أو جنيا أو إنسيا(وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ)، يقول: والله الذي خلق كل شيء، لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء،

عالم بعددكم وأعمالكم، وأعمال من دعوتموه ربا أو لله ولدا، وهو محصيها عليكم وعليهم، حتى يجازي كلا بعمله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم-: ذلكم الذي خلقكم، والذي خلق السموات والأرض، والذي تنزه عن الصاحبة والولد، العالم بكل شيء هو ربكم الذي ينبغي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وهو خالق كل شيء وهو على كل من خلقهم حفيظ ورقيب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، هو الله ربكم، أيها العادلون بالله الآلهة والأوثان، والجاعلون له الجن شركاء، وآلهتكم التي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تفعل خيرا ولا شرا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه للذين زعموا أن الجن شركاء الله. يقول جل ثناؤه لهم: أيها الجاهلون، إنه لا شيء له الألوهية والعبادة، إلا الذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها، فإنه خالق

كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، يقول: فذلوا له بالطاعة والعبادة والخدمة، واخضعوا له بذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، يقول: والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ أي الذي خلق كل شيءٍ، ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي فاعبدوه وحده، لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له، ولا والد ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عديل وهو على كل شيءٍ وكيل أي حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه،

ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

س: هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟

ج: نعم يرى المؤمنون ربهم ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال كثير من أهل التفسير إن المراد بالزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ.

وقال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**».

وقد قدمنا في تفسير سورة القيامة مزيدا من ذلك فارجع إليه إن شئت.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: لا تحيط به الأبصار، وذلك لعظمته فهو أجل وأعظم من أن يحيط به بصر أحد من خلقه، ولكن يحيط بالأبصار لا يخفى عليه شيء منها وهو الخبير بخلقه، العليم بهم، هذا وقد أورد الطبري[1] بإسناد حسن عن قتادة قال لا يحيط بصرُ أحدٍ بالملك.

هذا، وقد وردت عن بعض أهل العلم أقوال أخر منها أن المراد بالإدراك الرؤية، ولكن هذا قول ضعيف، ولعل ضعفه يظهر مما سيأتي قريبا إن شاء الله.

س: كيف نفهم قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ مع الوارد من الأدلة من الكتاب والسنة التي تثبت رؤية المؤمنين لربهم ﷻ يوم القيامة؟

ج: ذلك يفهم من وجوه:

أحدها: أن الإدراك شيء والرؤية شيء آخر فالإدراك أعم من الرؤية، فقد يرى الشخص سخصا لكنه لا يدركه، دل على ذلك قوله تعالى في شأن الجمعين جمع

---

(١) الطبري (١٣٦٩٩).

موسى عليه السلام، وقوم فرعون ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

فحصلت الرؤية ولم يحدث الإدراك.

أما العلماء الذين ذهبوا إلى تفسير الإدراك بالرؤية فلهم تأويلات أخر منها لا تدركه أبصار الخلائق في الدنيا، أما في الآخرة فإنها تدركه.

والثاني: أن الأبصار التي لا تدركه أبصار الظالمين، فأما أبصار المؤمنين فإنها تدركه.

الثالث: أن الله عز وجل سيحدث لأوليائه حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس يوم القيامة فيرونه بها.

وكل هذه الأقوال التي بنيت على تفسير الإدراك بالرؤية أقوال ضعيفة، والصواب القول الذي قدمناه أولا الذي حاصله أن الإدراك أعم من الرؤية فالشخص قد يرى الشيء ولكنه لا يدركه. والله تعالى أعلم.

وقال السعدي خ : في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن، ومن لطفه، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب، حتى أنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؟

ج: المعنى الإجمالي، والله تعالى أعلم، قد جاءكم يا أهل الشرك يا من هم غارقون في الضلالة حجج وبينات من ربكم، وتلك الحجج والبينات هي الآيات المباركات الواضحات في هذا الكتاب العزيز،جاءتكم كي تستضيؤا بها وتبصروا بها الإيمان من الكفر، والهداية من الضلالة فمن قبل هذا النور واستضاء به فإنما أفاد

نفسه ونفعها باستضاءته، ومن أعرض عن هذا النور فلن يضر إلا نفسه وسيقى غارقا في الضلالة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبههم بهذه الآيات من قوله:(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ) إلى قوله:(وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) على حججه عليهم، وعلى سائر خلقه معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذبين بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاءهم من عند الله= قل لهم يا محمد:(قَدْ جَآءَكُم)، أيها العادلون بالله، المكذبون رسوله (بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ)، أي: ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر.

= وهي جمع «بصيرة»، ومنه قول الشاعر:

حملوا بصائرهم على أكتافهم   وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

يعني بالبصيرة: الحجة البينة الظاهرة.

ثم قال:

وقوله:(فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ) يقول: فمن تبين حجج الله وعرفها وأقر بها، وآمن بما دلته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بغى الخير ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، يقول: ومن لم يستدل بها، ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلالتها التي تدل عليها، يقول: فنفسه ضر، وإليها أساء لا إلى غيرها.

وأما قوله:(وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)، يقول: وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ) أي آيات وبراهين يبصر بها ويستدل، جمع بصيرةٍ وهي الدلالة. قال الشاعر:

جــاءوا بصـــائرهم علـــى أكتـــافهم وبصـــيرتي يعـــدو بهـــا عتـــد وآي

يعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة.

ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها، إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس، كما يقال: جاءت العافية وقد انصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ) الإبصار: هو الإدراك بحاسة البصر، أي فمن استدل وتعرف فنفسه نفع.

(وَمَنْ عَمِيَ) لم يستدل، فصار بمنزلة الأعمى، فعلى نفسه يعود ماه. (وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) أي لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم.

وقيل: أي لا أحفظكم من عذاب الله.

وقيل: «بحفظ» برقيب، أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شي من أفعالكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وكما صرفنا الآيات وفصلناها وبيناها في هذه السورة تلك الآيات الدالة على وحدانيتي فأبين لكم دائما حججي لتعلموا كل ما جهلتموه، وكان من اللائق أن يقدم القوم لذلك شكرا لكن ما قدموا شكرا، وإنما كفروا وافتروا ونسبوا إليك ما ليس بصدق فقالوا عنك وقد جئتهم بالبينات من ربك، قالوا (دَرَسْتَ) أي لقد درست هذا الذي تنقله لنا من كتب الأولين وتعلمت منها قال تعالى: (وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الفرقان: ٥]، وفي قراءة (دَرَسْتَ) أي دارست غيرك وجالست غيرك فعلموك، وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) [النحل: ١٠٣].

قال السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله -تعالى-: (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ) أي: تفصل الآيات، مرة هكذا، ومرة

هكذا ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ قيل: هذه «لام العاقبة» أي: عاقبه أمرهم أن يقولوا: درست، وهذا مثل قوله -تعالى-: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا﴾ [القصص: ٨] ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لهذا، ولكن أراد أن عاقبة أمره معهم أن كان عدوا لهم؛ فيسمون ذلك لام العاقبة، كذلك ها هنا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؟

ج: المعنى- والله تعالى أعلم-: وكما بينا الآيات لأهل الشرك لعلهم ينزجروا بها ويتعظوا، فكذلك نبين الآيات لعلهم يزدادوا علما وفهما عن الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما تأويل قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: كما صرفنا الآيات والعبر والحجج في هذه السورة لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأنداد، كذلك نصرف لهم الآيات في غيرها، كيلا يقولوا لرسولنا الذي أرسلناه إليهم: «إنما تعلمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب»، فينزجروا عن تكذيبهم إياه، وتقولهم عليه الإفك والزور، ولنبين بتصريفنا الآيات الحق، لقوم يعلمون الحق إذا تبين لهم فيتبعوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بين لهم عموا عنه فلم يعقلوه، وازدادوا من الفهم به بعدا.

س: اذكر معنى قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؟

ج: المعنى-والله تعالى أعلم-: أقبل يا رسول الله على كتاب الله الذي أنزله عليك واعمل بما فيه وامتثل ما أمرت بالامتثال له واعمل ما أمرت بعمله، واجتنب ما نهيت عنه ولا تلتفت لأهل الشرك الذين يريدون صرفك عما أنت فيه من طريق الخير فربك واحد لا شريك له، ولا إله سواه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اتبع، يا محمد، ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو

قومك من عبادة الأوثان والأصنام، فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته (ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) أي اقتد به واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق، الذي لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو.

(وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعا.

س: هل قوله تعالى: (وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) منسوخ أم محكم؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية الكريمة منسوخة بقوله تعالى: (فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) بينما ذهب آخرون إلى أنها محكمة، وأن المراد بالإعراض عن المشركين الإعراض عن جدالهم إذا تمادوا فيما هم فيه والله أعلم.

س: اذكر بعض أقوال أهل العلم في تفسير قوله تعالى: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟)؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: لو أراد ربك هدايتهم واستنقاذهم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يشركوا به شيئا، ولآمنوا بك فاتبعوك وصدقوا ما جئتهم به من الحق من عند ربك (وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) ، يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولا مبلغا، ولم نبعثك حافظا عليهم ما هم عاملوه، تحصي ذلك عليهم، فإن ذلك إلينا دونك (وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) ، يقول: ولست عليهم بقيم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فما لم يجعل إليك حفظه من أمرهم.

س: اذكر بعض الأدلة على أن المهتدي من هداه الله؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وما جعلناك يا رسول الله رقيبا على هؤلاء تكتب أعمالهم وأقوالهم وتحفظها عليهم بل الله ﷻ هو الحفيظ، وكذا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ليست بموكل على أرزاقهم وعلى تدبير أمورهم بل كل ذلك إلى الله ﷻ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾أي بل له المشيئة والحكمة، فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ أي حافظا، تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي موكلٍ على أرزاقهم وأمورهم إن عليك إلا البلاغ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢]. وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ أي لا يمكنك حفظهم من عذاب الله. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي قيم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف لهم في تناول ما يجب لهم، فلست بحفيظٍ في ذلك ولا وكيلٍ في هذا، إنما أنت مبلغ. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: ولا تشتموا يا أهل الإيمان الأصنام والأوثان التي

يعبدها المشركون توقيرا للأصنام والأوثان كلا، بل حفاظا على دينكم حتى لا يسبوا الله ﷻ اعتداء منهم وبغيا وتطاولا بسبب جهلهم بالله وجهلهم عقوبة صنيعهم.

س: في قوله تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) قاعدة هامة وضحها مع ذكر مثالٍ لها؟

ج: تلك قاعدة سد الذرائع ولها أدلة متعددة وفحواها أننا امتنعنا عن سب آلهة المشركين منعا للمشركين من سب الرب ﷻ ومن الأدلة لهذه القاعدة:

قوله ﷺ(١): **«من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».**

س: وضح معنى قوله تعالى: (كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)؟

ج: **المعنى والله تعالى أعلم كما ذكر الطبري** رحمه الله: قال يقول تعالى ذكره كما زينا لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بخذلاننا إياهم عن طاعة الرحمن، كذلك زينا لكل جماعةٍ أجتمعت على عمل من الأعمال من طاعة الله ومعصيته عملهم الذي هم عليه مجتمعون ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم (فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يقول فيوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا ثم يجازيهم بها إن كان خيرا فخيرا، وإن كان شرا فشرا أو يعفو بفضله ما لم يكن شركا أو كفرا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، (كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم الخالية على الضلال (عَمَلَهُمْ) الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره. (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ) أي: معادهم ومصيرهم، (فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(١) البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (حديث ٩٠).

أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

س: وضح معنى الآية الكريمة: (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ) الآية؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم أن أهل الشرك حلفوا واجتهدوا في الحلف، وذلك يكون بتكراره أحيانا وتأكيده وتغليظه أحيانا، أقسموا على أنه إذا جاءتهم معجزةق من جنس تلك المعجزات التي أيد الله بها الأنبياء كناقة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام أو تسخير الريح لسليمان عليه السلام أو غير ذلك ليصدقن بأنها من عند الله وأنك رسول الله، فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقول لهم إن أمر الآيات والإتيان بها ليس إلى إنماء مرده إلى الله ﷻ هو الذي يأتي بالآيات إن شاء.

۞أما قوله تعالى: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فقد قيل إن ذلك خطاب للكافرين فيكون المعنى، وما يدريكم، ويكون المعنى قد اكتمل إلى هذا القدر، فيكون المعنى وما يدريكم يا أهل الكفر أنكم ستؤمنون إذا جآتكم الآيات، ثم أخبر الله ﷻ أنهم وإن جاءتهم الآيات أيضا لن يؤمنوا، فقال إنها إذا جاءت لا يؤمنون.

۞وقد قال بعض العلماء قولا آخر، فقالوا إن قوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) أي يا أهل الإيمان، يا من تمنيتم نزول الآيات حتى يؤمن هؤلاء الكفار ما يدريكم يا أهل الإيمان أن أهل الكفر سينتفعون بهذه الآيات.

على اعتبار أن حرف (لا) هنا صلة لتقوية الكلا، كما تقول لا والله وأنت تقصد والله.

ووجه آخر وما يدريكم يا أهل الإيمان لعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فيعاجلهم الله ﷻ بالعذاب ولا يمهلوا ولا يؤخروا بعد ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى إخبارا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانا مؤكدة (لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ) أي: معجزة وخارق، (لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا) أي: ليصدقنها، (قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ) أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفرا وعنادا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء

أجابكم، وإن شاء ترككم.

وقال أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل: المخاطب بما يشعركم المشركون. وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة:﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقراءة بعضهم: ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء المثناة من فوق.

وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون، أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في ﴿أَنَّهَآ ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ **[الأعراف: ١٢]**، وقوله ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ **[الأنبياء: ٩٥]**. أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم -أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصا على إيمانهم -أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الكسائي والفراء: أن« لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها- أي الآيات- إذا جاءت المشركين يؤمنون، فزيدت« لا»، كما زيدت« لا» في قول تعالى:﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ **[الأنبياء: ٩٥]**. لأن المعنى: وحرام على قريةٍ مهلكةٍ رجوعهم. وفي قول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾. والمعنى: ما منعك أن تسجد. وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة« لا» وقالوا: هو غلط وخطأ، لأنها إنما تزاد فيما لا يشكل. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا لعلم السامع، ذكره النحاس وغيره.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أننا كما صرفنا قلوب وأبصار أهل الكفر عن الإيمان، وكما حجبناهم عن الإيمان أول مرةٍ، فإننا وبعد نزول الآيات التي طلبوها

نحول بينهم وبين الإيمان أيضا لأن الهداية من الله ﷻ، ليست من الآيات وهنالك وجه آخر ذكره العلماء حاصله، ولو رددنا أهل الكفر إلى الحياة الدنيا بعد أن توفيناهم وأحييناهم يوم القيامة فعاينوا العذاب ورأوه، وتمنى العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

لو رددناهم إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر ثانية لأننا وكما صرفناهم عن الإيمان في الدنيا قبل موتهم نصرفهم عنه بعد إعادتهم إلى الدنيا أيضا قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ..﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى التأويلات في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها: أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويصرفها كيف شاء، وأن ذلك بيده يقيمه إذا شاء، ويزيغه إذا أراد وأن قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، دليل على محذوف من الكلام= وأن قوله: «كما» تشبيه ما بعده بشيء قبله.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يكون معنى الكلام: ونقلب أفئدتهم، فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبل مجيئها مرة قبل ذلك.

وإذا كان ذلك تأويله، كانت «الهاء» من قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ كناية ذكر «التقليب».

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم

فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبا لأحوالهم. وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم، (وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ) حتى يكلمهم (قُبُلًا) ومشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم، أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيها.

س: المعجزات لا تنفع إلا من كتب الله له الهداية دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجر: ١٤، ١٥].

وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [يونس: ١٠٠].

وقوله تعالى: (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: (۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) [الأنعام: ١١١].

س: اذكر بعض الأدلة على أن أمر القلوب موكول إلى الله ﷻ؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

قوله تعالى: (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ) [الأنفال: ٢٤].

قوله تعالى: (فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) [الشورى: ٢٤].

قوله تعالى: (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ) [آل عمران: ١٥١].

قوله تعالى: (لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) [القصص: ١٠].

قوله تعالى: (خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...) [البقرة: ٧].

قوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف: ٥].

قوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ...) [آل عمران: ٨].

قال تعالى: (وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا
عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ
ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ
غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢
وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ
وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ
١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ
١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ
بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ
مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ
فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا
لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ
١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ

وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ
١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ
ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ
إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١ أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ
نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ
بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢
وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا
يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ

(٢٤٩) أحمر
أسود

قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ
حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن
يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ
ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ
فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦) [الأنعام: ١١١-١٢٦].

الكلمة	معناها

﴿وَحَشَرْنَا﴾	جمعنا عليهم- سقنا إليهم.
﴿قُبُلًا﴾	عيانًا يرونه بأعينهم- أمامهم- قبيلة قبيلة - صفًّا صفًّا- جماعة جماعة- مقابلة ومواجهة.
﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾	المتمردون من الإنس والجن الذين يغوون العباد ويضلونهم.
﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾	المزخرف من القول- المُزين- المُحسَّن- تزيين الباطل باللسان.
﴿غُرُورًا﴾	خداعًا.
﴿فَذَرْهُمْ﴾	دعهم.
﴿يَفْتَرُونَ﴾	يختلقون من الإفك والزور.
﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾	ولتميل.
﴿أَفْـِٔدَةُ﴾	قلوب.
﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾	ليكتسبوا- ليعملوا.
﴿مُّقْتَرِفُونَ﴾	مكتسبون- عاملون.
﴿مُفَصَّلًا﴾	مبينًا فيه الحكم الذي تختصمون فيه.
﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾	الشاكِّين.
﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾	القرآن – وقيل: الأمور المقدرة.
﴿صِدْقًا﴾	صدقًا في الأخبار- أخبارُ حقٍّ.
﴿وَعَدْلًا﴾	عدلًا في الأحكام- أحكام عادلة.
﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾	لا مغير لقضاء الله الذي قضاه، وقدره الذي قدر.
﴿يَخْرُصُونَ﴾	يظنون – يكذبون- يتكلمون بلا علم.
﴿فَصَّلَ﴾	بيَّن.
﴿ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾	ألجأتكم إليه الضرورة.
﴿وَذَرُوا۟﴾	اتركوا- دعوا.

الكلمة	معناها

(٢٥١) أحمر
أسود

﴿ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾	المعاصي الظاهرة (التي يجاهر بها صاحبها ويعلنها).
﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾	المعاصي التي يُسر بها صاحبها- يعملها سرًّا.
﴿يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾	يعملون السيئات.
﴿سَيُجْزَوْنَ﴾	سيعاقبون.
﴿يَقْتَرِفُونَ﴾	يعملون المعاصي.
﴿لَفِسْقٌ﴾	معصية- خروج عن الطاعة.
﴿أَوْلِيَآئِهِمْ﴾	أتباعهم وأنصارهم.
﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾	ليُحاجوكم – ليخاصموكم.
﴿مَيْتًا﴾	كافرًا.
﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾	فهديناه للإيمان ورزقناه إياه.
﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾	قرآنا يهتدي به في الناس.
﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾	المراد: ظلمات الكفر والجهل.
﴿زُيِّنَ﴾	حُسِّن.
﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾	الأكابر: الكبراء؛ جمع أكبر.
﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾	يخادعوا- يحتالوا- يغدروا.
﴿ءَايَةٌ﴾	معجزة.
﴿صَغَارٌ﴾	ذلةٌ وإهانةٌ.
﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾	شديد الضيق- شاكًّا- ملتبسًا.
﴿يَصَّعَّدُ﴾	يضيق.
﴿ٱلرِّجْسَ﴾	العذاب- الشيطان- القذر- النجاسة- حل ما لا خير فيه.
﴿صِرَٰطُ﴾	طريق.
﴿يَذَّكَّرُونَ﴾	يتعظون ويعتبرون.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ...﴾ الآية.

ج: المعنى -والله أعلم-: ولو أننا نزلنا إلى هؤلاء الكفار المطالبين بالآيات الملائكة من السماء فرأوها بأعينهم، وأخبرتهم بان وعد الله حق وأحيينا لهم من مات من الأموات يخبرهم بأن هناك عذاب وحساب وجنة أو نار وبأن الله حق، وكذا لو جمعنا لهم كل خلقنا فرأوهم عيانا وجاءهم الخلق صفوفا، كل يشهد بأن وعد الله حق، وبأن الله واحد لا شريك له ما آمنوا؛ وذلك لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، وأن الإيمان من عند الله ﷻ ولكن أكثر هؤلاء القوم يجهلون أن أمر الإيمان من الله ﷻ يظنون أن إيمانهم بأيديهم يؤمنوا متى شاءوا ويكفروا متى شاءوا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين لك: «لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك»، فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك محق فيما تقول، وأن ما جئتهم به حق من عند الله، وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم لك قبلا، ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا. وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾؟

ج: في ذلك أقوال لأهل العلم:

أحدها: وجمعنا لهؤلاء الكفار كل ضامنٍ يضمن لهم أن ما وعدناهم به من الجنات حق لهم إن هم آمنوا وما أعددناه لهم من العذاب إن هم كفروا، كل ذلك حق ما آمنوا ولا صدقوا.

الثاني: ولو أننا سقنا لهؤلاء الكفار كل الآيات والحجج التي طلبوها وسألوها فرأوها بأعينهم عيانا ما آمنوا.

الثالث: ولو أننا سقنا لهؤلاء الكفار الأشياء صنوفا صنوفا، وكل المخلوقات أجناسا أجناسا وقبائل قبائل ما آمنوا ولا صدقوا.

س: قوله تعالى: (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) يجهلون ماذ؟

ج: ذلك الجهل – والله أعلم-: هو الجهل بقدرة الله والجهل بأن أمر الإيمان والهداية موكول إلى الله،؛ فالشخص لا يستطيع توفيقا لنفسه إلا إذا وفقه الله؛ فهؤلاء الذين زعموا أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم آية، واقسموا بالله على ذلك مجتهدين في الأيمان يجهلون أن أمر الإيمان والهداية من الله وبتوفيق الله، والله أعلم.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) جهلا يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب، وقال البيضاوي: أي يجهلون أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا في إيمانهم انتهى.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ)؟

ج: هذه الآية من آيات المواساة يواسي فيها ربنا نبيه محمد ﷺ ويصبره بها، فيقول الله ع له ما حاصله: وكما أننا جعلنا لك أعداء وهم شياطين الإنس والجن فقد جعلناهم- من قبلك- أعداء لعموم الأنبياء؛ فما من نبي إلا وناصبته شياطين الجن والإنس العداء، فاصبر كما صبر غيرك من الأنبياء من قبلك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسليه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثا له على الصبر على ما نال فيه: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا)، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك

وبما جئتهم به من عند ربك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداء من قومهم يؤذونهم بالجدال والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم. يقول: فاصبر أنت كما صبر أولو العزم من الرسل.

س: ما المراد بشياطين الإنس والجن؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بشياطين الإنس والجن المتمردون على طاعة الله ورسوله من الإنس والجن؛ فشياطين الإنس هم المتمردون على طاعة الله ورسوله من البشر، وشياطين الجن هم المتمردون على طاعة الله ورسوله من الجن.

الثاني: أن المراد بشياطين الإنس والجن الشياطين التي تغوي الإنس والجن، وهم ذرية إبليس، فيكون هناك إنس وجن وذرية إبليس، وذرية إبليس منهم من يغوي الإنس ومنهم من يغوي الجن.

والقول الأول أقوى، والله تعالى أعلم.

س: ما المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]؟

ج: من المستفاد من ذلك أن النفس لا تذهب حسرات على من أعرض عن طريق الله ﷻ؛ لأن الهداية من الله ﷻ.

وكذلك فيها مواساة لأهل الإيمان فيما يلاقونه من أهل العناد والشقاق من أذى، وذلك في التذكير بما حدث لأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فحتى الأنبياء، لم يتركوا، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

س: هل هناك شياطين من الإنس؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: نعم هناك شياطين من الإنس، وهم المتمردون على طاعة الله ورسوله من الإنس وحجة أصحاب هذا القول الوجه الأول الذي قدمناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾.

ومن حججهم أيضا بعض الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في هذه الصور.

الثاني: ليس هناك شياطين من الإنس وحجة أصحاب هذا القول وجه التأويل الثاني الذي قدمناه للآية الكريمة.

أخرج مسلم(١) في «صحيحه» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ، إلا وقد وكل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك؟ يا رسول الله قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**».

وفي رواية عند مسلم(٢): «**وقد كل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**».

وقد أخرج مسلم(٣) أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «**ما لك؟ يا عائشة أغرت؟**» فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك**» قالت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: «**نعم**» قلت: ومع كل إنسانٍ؟ قال: «**نعم**» قلت: ومعك؟ يا رسول الله قال: «**نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**».

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؟

ج: في ذلك قولان لأهل العلم:

أحدهما: أن المتمردين من الجن الذين هم أعداء الأنبياء يوسوسون إلى المتمردين من الإنس الذين هم اعداء الأنبياء أيضا فيزينون لهم الباطل ليجادلوا به الأنبياء، ويحسنون لهم الكلام الذي يلبسون به على الطغام من البشر.

الثاني: أن ذرية إبليس يوحي بعضها إلى بعض ويؤازر بعضهم بعضا؛ لإعانته على

(١) مسلم (٢٨١٤).
(٢) عقب الرواية السابقة.
(٣) مسلم (٢٨١٥).

أهل الإيمان من الجن والإنس فيلقي الشيطان الموكل بالإنس إلى الشيطان الموكل بالجن، وعكسه كل ما يساعده على الإضلال والإغواء من القول الباطل المزخرف والمحسن المزين.

وأورد الطبري خ بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، قال: «الزخرف» المزين، حيث زين لهم هذا الغرور، كما زين إبليس لآدم ماجاءه به وقاسمه إنه له لمن الناصحين. وقرأ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ [فصلت: ٢٥]. قال: ذلك الزخرف.

وأما «الغرور»، فإنه ما غر الإنسان فخدعه فصده عن الصواب إلى الخطأ، وعن الحق إلى الباطل، وهو مصدر من قول القائل: «غررت فلانا بكذا وكذا، فأنا أغره غرورا وغرا».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: ولو شاء الله ﷻ ما عادت الشياطين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا كادت لهم، ولا أوحى بعضهم إلى بعض، ولكن الله ﷻ جعل ذلك ابتلاء يبتلي به العباد، فيصبر الصابرون على طاعة الله وليثبت أهل الإيمان على طاعتهم لله ﷻ.

وكما قال تعالى في آية مشابهة في المعنى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ...﴾ [محمد: ٤].

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولو شئت، يا محمد، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداء من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مكرهم ويأمنوا غوائلهم وأذاهم، فعلت ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق ﴿فَذَرْهُمْ﴾، يقول: فدعهم يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، يعني: وما يختلقون من إفك وزور.

يقول له ﷺ: اصبر عليهم، فإني من وراء عقابهم على افترائهم على الله، واختلاقهم عليه الكذب والزور.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدعهم، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون، أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ....﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أن الشياطين الإنس والجن تلقي الشبه والشهوات على أوليائها ليجادلوا أهل الإيمان وغيرهم فيسلم الله ﷻ أهل الإيمان، ويقدر الله ﷻ على الذين لا يؤمنون بالآخرة أن يستمعوا لهذا الباطل وتميل قلوبهم إليه ويعتقدوه، ومن ثم يكتسبوا من الآثام ما هم مكتسبون، وليعملوا من السيئات ما هم عاملون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يقول جل ثناؤه: يوحي بعض هؤلاء الشياطين إلى بعضٍ المزين من القول بالباطل، ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء، فيفتنوهم عن دينهم، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يقول: ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ (١) اللام لام كي وقيل اللام للأمر وهو غلط فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، والإصغاء الميل يقال صغوت أصغو وصغيت أصغي

(١) وقال السمعاني في «تفسيره»: إنها لام العاقبة، كما قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: فكانت العاقبة أن يكون لهم عدوًا وحزنًا.

ويقال أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض، ويقال صغت النجوم إذا مالت للغروب وأصغت الناقة إذا مالت برأسها.

والضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ لزخرف القول أو لما ذكر سابقا من زخرف القول وغيره أي أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم ولتصغي إليه ﴿أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من الكفار والمعنى أن قلوب الكفار تميل إلى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به، وهو قوله ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ من الآثام والإقتراف والاكتساب، يقال خرج ليقترف لأهله أي ليكتسب لهم، وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه، وقرفه إذا رماه بالرمية واقترف كذب، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء أي ليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون.

وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أولا يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الفعل أي الإقتراف، فكل واحد مسبي عما قبله قاله أبو حيان.

وقال السعدني في «تفسيره».

﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولا فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظا غير وافية، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها، كائنا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

س: من قوله تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما يفيد أن أصحاب القلوب الفارغة من الإيمان يتسرب إليه الكفر أكثر من غيرهم، وضح ذلك؟

ج: نعم، فيه ما يفيد هذا المعنى، فالذين يستمعون إلى إملاءات شياطين الإنس والجن هم الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ فقلوبهم جوفاء فارغة من الإيمان؛ فلذا استقبلت هذا الكفر ووحى الشياطين، ورضيت به وعملت بمقتضاه.

أما الذين آمنوا وامتلئت قلوبهم إيمانا؛ فلا يجد وحي الشياطين إلى قلوبهم سبيلا.

س: وضح معنى قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا)؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم- قل يا رسول الله، لهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة، المتبعين للباطل من القول وللزور منه، هؤلاء الذين تميل قلوبهم إلى الباطل وتعتقده قل لهم: إن الله ﷻ هو الذي حكم على ما أنتم فيه من عبادة الأصنام والأوثان بأنه باطل، ولن أرض بحكمٍ غير حكم الله ﷻ، وهو سبحانه الذي أنزل إليكم الكتاب مبينا فيه الحلال والحرام، والتوحيد من الشرك.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ)؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم-: إن أنكر هؤلاء المشركون ما أنزل الله من الحق - وهو القرآن - فهنالك خير منهم يعلمون أن هذا القرآن نزل من عند الله حاملا الحق مبينا له عن الباطل، مظهرا لوجوه الحق والصواب، فلا تكن في شك مما أنزلناه إليك، ولا ترتاب في أنه من عند الله، أي: فلا تدخلن نفسك في عداد الشاكين.

وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ)؛ كقوله تعالى: (قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) [الإسراء: ١٠٧]؛ وكقوله تعالى: (فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ) [الأنعام: ٨٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن أنكر هؤلاء العادلون بالله الأوثان من قومك توحيد الله،

وأشركوا معه الأنداد، وجحدوا ما أنزلته إليك، وأنكروا أن يكون حقا وكذبوا به = فالذين آتيناهم الكتاب، وهو التوراة والإنجيل، من بني إسرائيل= (يعلمون أنه منزل من ربك)، يعني: القرآن وما فيه = (بالحق) يقول: فصلا بين أهل الحق والباطل، يدل على صدق الصادق في علم الله، وكذب الكاذب المفتري عليه = (فلا تكونن من الممترين)، يقول: فلا تكونن، يا محمد، من الشاكين في حقيقة الأنباء التي جاءتك من الله في هذا الكتاب، وغير ذلك مما تضمنه، لأن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)؟

ج: قال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ) قرأ أهل الكوفة كلمة بالتوحيد والباقون بالجمع والمراد العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد، والمعنى أن الله قد أتم وعده ووعيده فظهر الحق وانطمس الباطل، وقيل المراد بالكلمة أو الكلمات القرآن أي لا أحد يقدر على تحريفه كما فعل بالتوراة فيكون هذا ضمانا له من الله بالحفظ أو لا نبي ولا كتاب بعده ينسخه، ومعنى تمت بلغت الغاية.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها القرآن قاله قتادة.

والثاني: أقضيته وعداته.

والثالث: وعده ووعيده وثوابه وعقابه. وفي قوله تعالى: (صِدْقًا وَعَدْلًا) قولان:

أحدهما: صدقا فيما أخبر، وعدلا فيما قضى وقدر.

والثاني: صدقا فيما وعد وأوعد، وعدلا فيما أمر ونهي.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: لا مغير لضاء الله الذي قضاه؛ فما قدره الله لابد

وأن يقع، كما قدر في الوقت الذي قدر فيه وقوعه، والمكان الذي قدر أن يقع فيه أيضا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ) ، يقول: لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه، وذلك نظير قوله جل ثناؤه (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ) [الفتح:١٥].

فكانت إرادتهم تبديل كلام الله، مسألتهم نبي الله أن يتركهم يحضرون الحرب معه، وقولهم له ولمن معه من المؤمنين: (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ) [الفتح: ١٥].

بعد الخبر الذي كان الله أخبرهم تعالى ذكره في كتابه بقوله: (فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ) الآية، [التوبة: ٨٣]، فحاولوا تبديل كلام الله وخبره بأنهم لن يخرجوا مع نبي الله في غزاةٍ، ولن يقاتلوا معه عدوا بقولهم لهم: (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ)، فقال الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ:(يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟) بمسألتهم إياهم ذلك كلام الله وخبره: (قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ) .

فكذلك معنى قوله: (لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ)، إنما هو: لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن، فيبطل مجيئه وكونه ووقوعه على ما أخبر جل ثناؤه، لأنه لا يزيد المفترون في كتب الله ولا ينقصون منها. وذلك أن اليهود والنصارى لا شك أنهم أهل كتب الله التي أنزلها على أنبيائه، وقد أخبر جل ثناؤه أنهم يحرفون غير الذي أخبر أنه لا مبدل له.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به لما وصفها بالتمام وهو في كلامه تعالى يقتضي عدم قبول النقص والتغير، قال محمد بن كعب القرظي: لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والأخرة كقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩].

وقال ابن الجوزي في الجوزي في «زاد المسير»:

وفي قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ قولان:

أحدهما: لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها.

والثاني: لا خلف لمواعيده، ولا مغير لحكمه.

س: اذكر بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؟

ج: قال الطبري في معناها:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تطع هؤلاء العادلين بالله الأنداد، يا محمد، فيما دعوك إليه من أكل ما ذبحوا لآلهتهم، وأهلوا به لغير ربهم، وأشكالهم من أهل الزيغ والضلال، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن دين الله، ومحجة الحق والصواب، فيصدوك عن ذلك.

وإنما قال الله لنبيه: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، من بني آدم، لأنهم كانوا حينئذ كفارا ضلالا فقال له جل ثناؤه: لا تطعهم فيما دعوك إليه، فإنك إن تطعهم ضللت ضلالهم، وكنت مثلهم، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه. ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الذين نهى نبيه عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فأخبر جل ثناؤه أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم، وحسبان على صحة عزمٍ عليه كان خطأ في الحقيقة ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، يقول: ما هم إلا متخرصون، يظنون ويوقعون حزرا، لا يقين علمٍ.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي ماذا يطيعهم فيه أربعة أقوال:

أحدها: في أكل الميتة.

والثاني: في أكل ما ذبحوا للأصنام.

والثالث: في عبادة الأوثان.

والرابع: في اتباع ملل الأباء.

قلت: (مصطفى): والقول بالعموم أولى؛ فالمعنى: وإن تطع أكثر من في الأرض

–فيما هم عليه من خلافٍ للكتاب العزيز– يضلوك عن سبيل الله، والله أعلم.

قال السعدي في «تفسيره»:

يقول تعالى، لنبيه محمد ﷺ، محذرا عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئا، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحرى أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا –وإن كان خطابا للنبي ﷺ– فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه. والله تعالى أصدق قيلا وأصدق حديثا، و ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ وأعلم بمن يهتدي. ويهدي.

فيجب عليكم –أيها المؤمنون– أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية، على أنه لا يستدل على الحق، بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددا، الأعظمون –عند الله– قدرا وأجرا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

س: اذكر بعض الأدلة على قلة أهل الإيمان، وأنهم دون المشركين في العدد؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

وقوله تعالى: (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) [الشعراء: ٨].

س: وضح معنى قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: إن ربك -إن ربك يا رسول الله- هو أعلم من يحيد عن طريق الحق والصواب بسبب ما يلقيه شياطين الإنس والجن من القول المزخرف المزين، وهو أعلم بمن سيسلمه الله ويحفظه من كيد الشياطين ومن وساوس الشياطين، وما يوحون من زخرف القول الذي يخادعون به الناس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن ربك الذي نهاك أن تطيع هؤلاء العادلين بالله الأوثان، لئلا يضلوك عن سبيله، هو أعلم منك ومن جميع خلقه أي خلقه يضل عن سبيله بزخرف القول الذي يوحي الشياطين بعضهم إلى بعض، فيصدوا عن طاعته واتباع ما أمر به (وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)، يقول: وهو أعلم أيضا منك ومنهم بمن كان على استقامة وسدادٍ، لا يخفى عليه منهم أحد.

يقول: واتبع، يا محمد، ما أمرتك به، وانته عما نهيتك عنه من طاعة من نهيتك عن طاعته، فإني أعلم بالهادي والمضل من خلقي، منك.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- فكلوا- يا أهل الإيمان- الذبائح التي ذبحت وذكر اسم الله عليها عند الذبح، سواء كان الذابح مسلما أو كتابيا ما دام قد سمى الله عَزَّ وَجَلَّ عند الذبح إن كنتم مصدقين بما أنزلته على نبي محمد ﷺ.

قال السعدي في تفسير هذه الآية الكريمة:

يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا

حلها، ولا يفعلوا كما يفعل أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداعا من عند أنفسهم، وإضلالا من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله. وأنه، أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه، ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفا من الوقوع في الحرام، ودلت الآية الكريمة، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله، فما لم يفصله الله فليس بحرام.

ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ) إلى أن قال: (فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [المائدة: ٣].

س: ما الذي حرم علينا مما فصله الله في كتابه؟

ج: قال بعض العلماء: ذلك هو المذكور في قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ) [المائدة: ٣].

وفي حديث عن رسول الله ﷺ: «**إن الله حرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**».

وفي السنة أيضًا تحريم الحمر الأهلية.

وقد قال تعالى: (وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ) [الأعراف: ١٥٧].

هذا، وقد تعقب الشنقيطي خ القول القائل بأن قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ﴾ مفسر بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ...﴾ [المائدة: ٣] بدعوى أن الآية ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم ...﴾: مكية، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ...﴾ [المائدة: ٣]: مدنية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) الآية، التحقيق أنه فصله لهم بقوله: (قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً) [الأنعام: ١٤٥]،

ومعنى الآية: أي شيء يمنعكم أن تأكلوا ما ذكيتم، وذكرتم عليه اسم الله؟ ، والحال أن الله فصل لكم المحرم أكله عليكم في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية ، وليس هذا منه.

وما يزعمه كثير من المفسرين من أنه فصله لهم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، فهو غلط؛ لأن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، من سورة الأنعام، وهي مكية، فالحق هو ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قلت: (مصطفى):

وما ذكره الشنقيطي خ فيه نظر خاصة وأن ما خطأه الشنقيطي هو قول كثير من المفسرين، ووجه النظر فيما قاله الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السورة، وقد تكون مكية- في الأغلب- ولا يمنع أن تتخللها بعض الآيات المدنية وهذا وارد بكثرة، فإذا كان ذلك كذلك فلا تثريب ولا تخطئة لأهل التفسير القائلين بما ذكرناه، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وما المانع لكم من الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

وهنالك وجه آخر حاصله: وما الفائدة العائدة عليكم من الامتناع من أكل ما ذكر اسم الله عليه عند الذبح.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وإن كثيرا من الناس ليضلون غيرهم بغير علم، فيحرمون عليهم ما أحله الله لهم ويحلون لهم ما حرمه الله عليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن كثيرا من الناس [الذين] يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ليضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبا منهم لأهوائهم، واتباعا

منهم لدواعي نفوسهم، اعتداء وخلافا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾، يقول: إن ربك، يا محمد، الذي أحل لك ما أحل وحرم عليك ما حرم، هو أعلم بمن اعتدى حدوده فتجاوزها إلى خلافها، وهو لهم بالمرصاد.

قال السعدي في «تفسيره»:

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم -كما وصفهم الله لعباده- أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

س: الأهواء كثيرا ما تضل أهلها دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **[الأنعام: ١١٦]**

وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ **[المؤمنون: ٧١]**.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **[الجاثية: ٢٣]**.

وقال تعالى لنبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **[ص: ٢٦]**.

س: ما المراد بالاعتداء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾؟

ج: المراد: الاعتداء على الشرع بتحريم ما أحل اللهن وتحليل ما حرم الله، والله أعلم.

فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرم الله، وليس من حق أحدٍ أن يشرع خلاف ما شرع الله وما جاء به رسول الله ﷺ.

س: ما المراد بظاهر الإثم وباطنه؟

ج: ابتداء فظاهر الإثم هو المعاصي المعلن بها، وباطنه المعاصي في السر.

أي أن ظاهر الإثم وباطنه، علانية المعاصي وسرها، أما المعاصي المعلنة فهي عموم ما ظهر من المعاصي ويدخل فيها الكبائر وغيرها،ومنها نكاح أزواج الآباء؛ فقد كانوا يصنعون ذلك، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

ومن ظاهر الإثم أيضا الزنا بالنسوة اللواتي يجاهرون بالزنا، ويضعن الرايات على بيوتهن إشعارا بأنهن يفعلن ذلك.

۞ومنها الجمع بين الأختين في الزواج.

۞ومنها التعري والتجرد من الثياب.

۞ومنها أكل ما حرم الله من الأطعمة: كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغير ذلك جهرا.

وعموما فالمراد اقتراف المعاصي والذنوب جهرا.

أما باطن الإثم فمنه الزنا واتخاذ العشيقات وأكل الأطعمة التي حرمها الله سرا، وكذا كل معصية أسر بها الشخص وأخفاها.

والآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والله تعالى أعلم.

وقال الطبري خ : بعد أن أورد صورا لما ظهر من الإثم وما بطن:

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره تقدم إلى خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلانيته. و«الإثم» كل ما عصي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سر الزنى وعلانيته، ومعاهرة أهل الرايات وأولات الأخدان منهن، ونكاح حلائل الآباء والأمهات والبنات، والطواف بالبيت عريانا،

وكل معصية لله ظهرت أو بطنت.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان جميع ذلك «إثما»، وكان الله عم بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، جميع ما ظهر من الإثم وجميع ما بطن لم يكن لأحد أن يخص من ذلك شيئا دون شيء، إلا بحجة للعذر قاطعة.

غير أنه لو جاز أن يوجه ذلك إلى الخصوص بغير برهان، كان توجيهه إلى أنه عنى بظاهر الإثم وباطنه في هذا الموضع، ما حرم الله من المطاعم والمآكل من الميتة والدم، وما بين الله تحريمه في قوله: (حرمت عليكم الميتة) إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآيات قبلها بذكر تحريم ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكر أن يكون عنى بها ذلك، وأدخل فيها الأمر باجتناب كل ما جانسه من معاصي الله، فخرج الأمر عاما بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الإثم.

وقال السعدي في «تفسيره»:

المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم، والحرج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده. فنهى الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجبا متعينا على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

س: ما حكم اللحوم المستوردة؟

ج: اللحوم المستوردة ينبني الحكم عليها من عدة جوانب:

أولا: مكان الاستيراد:

فإذا كانت مستوردة من دول مسلمة أو من دول كتابية، فالأصل في ذلك الحل لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وإن كانت مستوردة من دول ملحدة أو مشركة؛ فالأصل أن ذبائحهم لا تؤكل.

ثانيا: طريقة التذكية: فإن كانت ذكيت التذكية الشرعية فهي حلال، وإن كانت لم تذك التذكية الشرعية فهي حرام.

فإذا علمنا يقينا أنها ذكيت تذكية شرعية حل أكلها، وإن كانت واردة من دول ملحدة ما دام اسم الله قد ذكر عليها.

س: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ عائد على ماذا؟

ج: ذلك عائد على الأكل مما لم يذكر اسم الله.

س: ما المراد بالشياطين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ ...﴾

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالشياطين: هنا شياطين الإنس، كالمجوس الذين يرون جواز أكل الميتة، وكذا اليهود الذين يفسدون على الناس دينهم، علم هؤلاء وأولئك أهل الشرك من مشركي قريش وغيرهم.

وقال آخرون: إن المراد بذلك شياطين الجن الذين يقذفون في صدور أهل الشرك صور الباطل وأساليب الكلام التي يجادلون بها أهل الشرك، والظاهر من ذلك أن المراد: كل شيطان إنسيا كان أو جنيا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المؤمنين في تحريمهم أكل الميتة، بما ذكرنا من جدالهم إياهم = وجائز أن يكون الموحون كانوا شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم= وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس= وجائز أن يكون الجنسان

كلاهما تعاونا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) [الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلب من تأويله عندي، لأن الله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعل لأنبيائه من قبله، يوحي بعضهم إلى بعض المزين من الأقوال الباطلة، ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرم الله من الميتة عليهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وإن الشياطين ليزينون لأتباعهم من أهل الكفر القول الباطل المزخرف؛ كي يجادلوا أهل الإيمان، ومن صور هذا الجدل قولهم في شأن تحريم أكل الميتة، كيف تأكلون يا أهل الإسلام ما ذبحتموه بأيديكم وتحرموا ما ذبحه الله وهي الميتة؟!

أخرج الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قال:

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الآية، يعني: عدو الله إبليس أوحى إلى أوليائه من أهل الضلالة؛ فقال لهم: خاصموا أصحاب محمد في الميتة فقولوا: «أما ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون، وأما ما قتل الله فلا تأكلون، وأنتم تزعمون أنكم تتبعون أمر الله»! فأنزل الله على نبيه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وإنا والله ما نعلمه كان شرك قط إلا بإحدى ثلاث: أن يدعو مع الله إلها آخر، أو يسجد لغير الله، أو يسمي الذبائح لغير الله.

س: ما حكم من أكل الميتة غير مستحل لأكلها؟

ج: آكل الميتة والحالة هذه مرتكب لكبيرة من الكبائر، إلا إذا كان مضطرا، فقد قال تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ...) [البقرة: ١٧٣].

س: قوله تعالى: (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أطاعوهم في ماذا؟

ج: قيل: أطاعوهم فيما يدعون إليه من الشرك بالله.

وقيل: أطاعوهم في استحلال ما حرم الله؛ فإن أكلوا الميتة مستحلين أكلها؛ فقد صاروا مثلهم مشركين، وإلى هذا الأخير ذهب الطبري خ؛ إذ قال:

وأما قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، يعني: إنكم إذا مثلهم؛ إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا فإذا أنتم أكلتموها كذلك؛ فقد صرتم مثلهم مشركين.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فدلت الآية على أن من استحل شيئا مما حرم الله تعالى صار به مشركا. وقد حرم الله سبحانه الميتة نصا، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك. قال ابن العربي: إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركا إذا أطاعه في الاعتقاد، فأما إذا أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاصٍ، فافهموه. وقد مضى في« المائدة».

وقال السعدي في «تفسيره»:

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل -بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله. فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام، يكون الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين، حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

|

س: وضح معنى قوله تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أو من كان كافرا غارقا في العمى والجهالة

والظلمة والضلالة، فأحياه الله بالإيمان ورزقه الله الهداية والإسلام، وأنزل له كتابا يستنير به ويستضيء، كمن هو غارق في الضلالة متمادٍ في الغواية لا يستبصر ولا يلتمس هداية، فهو في ظلمات الكفر يتردى ظلمةٍ إلى ظلمةٍ؟!

وقيل في المعنى أيضا: أطاعة من كان كافرا فهداه الله للإيمان وبصره الله بالقرآن أولى، أم طاعة من لا زال في الضلالة غارقا وفي الجهالة متحيرا؟

وفي معناها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] والله أعلم.

وقال أبو المظفر السمعاني في «تفسيره»:

وفي الآية قول آخر: أن معناه: أو من كان ميتا بالجهل؛ فأحييناه بالعلم، وكل جاهل ميت، وكل عالم حي، قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... وليس له قبل النشور نشور

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي.

﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضرها لهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرا: فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل

الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقا. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون، غير متساوين.

فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرءوسون، والأولون، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال.

س: من الذي زين للكافرين عملهم؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن الذي زين لهم ذلك هو الله، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

بينما ذهب قليل من أهل العلم إلى أن الذي زين لهم ذلك هو الشيطان، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] ولا تعارض؛ فالشيطان سبب في التزيين، وإنما جرى منه ما جرى، بإذن الله ﷻ و تقديره ، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

ج: المعنى: وكما زينا للكفار أكل الميتة، وأكل ما لم يذكر اسم الله عليه، زينا لهم أيضا كل أعمال السوء التي يعملونها.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: كما خذلت هذا الكافر الذي يجادلكم = أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرمت عليكم من المطاعم = عن الحق، فزينت له سوء عمله فرآه حسنا، ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زينت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النكال.

س: الله ﷻ هو الذي زين الإيمان للمؤمنين، وزين الكفر للكافرين، دلل على ذلك، مع ذكر أقوال العلماء في ذلك إن أمكن؟

ج: من الأدلة على ما ذكر ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا أوضح البيان على تكذيب الله الزاعمين أن الله فوض الأمور إلى خلقه في أعمالهم فلا صنع له في أفعالهم، وأنه قد سوى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلون إلى الطاعة والمعصية، لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان قد زين لأنبيائه وأوليائه من الضلالة والكفر نظير ما زين من ذلك لأعدائه وأهل الكفر به. وزين لأهل الكفر به من الإيمان به نظير الذي زين منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخباره جل ثناؤه أنه زين لكل عاملٍ منهم عمله ما ينبئ عن تزيين الكفر والفسوق والعصيان، وخص أعداءه وأهل الكفر بتزيين الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان به والطاعة.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وكما زينا للكافرين أعمالهم جعلنا أيضا في كل قرية من القرى الأكابر الذي هم فيها أهل إجرام، يمكروا فيها للصد عن سبيل الله وذلك تارة بزخرفٍ من القول وخداعٍ وتمويه، وتارة أخرى بالتدبير لقتل الأنبياء وأهل الصلاح، وثالثة بالمجادلة بالباطل والمحاججة بالمنكر.

ثم إن عائدة هذا المكر إنما هي عليهم بالشر والعذاب؛ فالمكر السيء لا يحيق إلا بأهله.

هذا، ويحتمل أن يكون في الآية الكريمة وجه آخر، خاصة في صدرها فيكون

المعنى، وكما جعلنا الكبراء في قريتك يا رسول الله هم المجرمون: كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم، فهكذا في كل قرية الكبراء بها هم المجرمون....فلا تأس ولا تحزن ولا تتأسف.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءها مجرميها= يعني أهل الشرك بالله والمعصية له= (ليمكروا فيها) ، بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه = (وما يمكرون) : أي ما يحيق مكرهم ذلك، إلا بأنفسهم، لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدهم عن سبيله =«وهم لا يشعرون»، يقول: لا يدرون ما قد أعد الله لهم من أليم عذابه، (١) فهم في غيهم وعتوهم على الله يتمادون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

والمراد بالمكر ها هنا: دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخبارا عن قوم نوح: (وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا) **[نوح: ٢٢]**، وكقوله تعالى: (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) **[سبأ: ٣١-٣٣]**.

ثم قال أيضًا:

وقوله تعالى: (وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ) أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه غلا على أنفسهم، كما قال تعالى: (وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ) **[العنكبوت: ١٣]**، وقال: (وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ) **[النحل: ٢٥]**.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قولــه تعــالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ) الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه جعل في كل قرية أكابر المجرمين منها ليمكروا فيها، ولم يبين المراد بالأكابر هنا، ولا كيفية مكرهم، وبين جميع ذلك في مواضع أخر: فبين أن مجرميها الأكابر هم أهل الترف، والنعمة في الدنيا، بقوله: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) [سبأ: ٣٤]، وقولــه: (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ) [الزخرف: ٢٣]. ونحو ذلك من الآيات.

وبين أن مكر الأكابر المذكور: هو أمرهم بالكفر بالله تعالى، وجعل الأنداد لــه بقولــه: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا) [سبأ: ٣٣]، وقولــه: (وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ) [نوح: ٢٢، ٢٣].

وأظهر أوجه الإعراب المذكورة في الآية عندي اثنان:

أحدهما: أن «أكابر» مضاف إلى مجرميها، وهو المفعول الأول لجعل «التي بمعنى: «صير»، والمفعول الثاني: هو الجار والمجرور، أعني: في كل قرية.

والثاني: أن مجرميها مفعول أول، و«أكابر» مفعول ثانٍ أي: جعلنا مجرميها أكابرها،و الأكابر: جمع الأكبر.

وقال صديق حسن خان في تفسيره «فتح البيان في مقاصد القرآن»:

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾أي مثل ذلك الجعل بمكة ﴿جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ ﴾ الأكابر جمع أكبر قيل هم الرؤساء والعظماء وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم، وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءها وجعل فساقها أكابر ﴿مُجۡرِمِيهَا ﴾ قال الواحدي في الآية تقديم وتأخير أي مجرميها أكابر، وإنما جعل المجرمين أكابر لأن ما فيهم من السعة أدعى لهم إلى المكر والكفر. (لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ) بالصد عن الإيمان، واللام على ظاهرها أو للعاقبة أو للعلة

مجازا، قال أبو عبيدة: المكر الخديعة والغدر والحيلة والفجور، وزاد بعضهم الغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل، قال ابن عباس: ليقولوا فيها الكذب، عن عكرمة قال: نزلت في المستهزئين، وقيل المعنى ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي، دليله (وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ) [الشورى: ٢٧].

(وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ) المكر الحيلة في مخالفة الاستقامة وأصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة أي يصرف عنها أي ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم عائد عليهم (وَمَا يَشْعُرُونَ)بذلك لفرط جهلهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا) أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم (لِيَمْكُرُواْ فِيهَا) بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم، لأنهم يمكرون، ويمكر الله والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين.

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل، حسدا منهم وبغيا.

|

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى الأكابر؟

ج: قال الطبري خ في إيضاح ذلك:

و«الأكابر»: جمع«أكبر»، كما «الأفاضل» جمع«أفضل». ولو قيل: هو جمع«كبير»، فجمع«أكابر»، لأنه قد يقال:«أكبر»، كما قيل: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا) [الكهف: ١٠٣]، واحدهم«الخاسر»، لكان صوابا. وحكي عن العرب سماعا

(٢٧٩) أحمر
أسود

«الأكابرة» و«الأصاغرة»، و«الأكابر»، و«الأصاغر»، بغير الهاء، على نية النعت، كما يقال: «هو أفضل منك». وكذلك تفعل العرب بما جاء من النعوت على« أفعل»، إذا أخرجوها إلى الأسماء، مثل جمعهم«الأحمر» و«الأسود»،«الأحامر» و«الأحامرة»، و«الأساود» و«الأساودة»، ومنه قول الشاعر:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالي، وكنت بهن قدما مولعا
الخمر واللحم السمين إدامه ... والزعفران، فلن أروح مبقعا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ﴾؟

ج: ذلك –والله أعلم– يحتمل وجوها:

أحدها: وإذا نزلت عليك آية من كتاب الله ﷻ، كتلك الآيات التي فيها تحليل لأمور وتحريم لأمور أخر، أو كتلك التي فيها الدلالات على وحدانية الله ﷻ أبي المشركون أن يؤمنوا وقالوا: لن نؤمن حتى تأتينا بمعجزة، كما أتى رسل الله السابقون أقوامهم بمعجزات، كتلك العصا التي أوتاها موسى عليه السلام، أو إحياء الموتى الذي أوتاه عيسى عليه السلام، أو الناقة العظيمة الهائلة التي أوتاها صالح عليه السلام، أو تسخير الرياح كما سخرت لسليمان عليه السلام، وغير ذلك، ويشهد لهذا المعنى قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

المعنى الثاني: وإذا أيدناك بمعجزةٍ كما طلب هؤلاء، كفروا أيضا واستمروا في كفرهم قائلين: كل منا يريد معجزة خاصة به، فكل منهم يريد أن يؤتى– لشخصه هو– معجزة كالتي أوتاها رسل الله صلوات الله وسلامة عليهم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ [المدثر: ٥٢] أي: أن كلا منهم يريد أن يوحي إليه هو نفسه، فقال تعالى: ما حاصله ليس لكم ذلك، ليس لكم أن تكونوا رسلا، وليس لكم أن تأتيكم المعجزات وفق ما أردتم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو الذي يصطفي من الناس من يشاء؛ كي يكون رسولا.

أما الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال:

يقول تعالى ذكره: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدوا عن سبيل الله ﴿ءَايَةٌ﴾، يعني: حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد من عند الله وحقيقته، قالوا لنبي الله وأصحابه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾.

يقول: يقولون: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أن الله حرمه علينا ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾، يعنون: حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

يقول تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، يعني بذلك جل ثناؤه: أن آيات الأنبياء والرسل لن يعطاها من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها. يقول جل ثناؤه: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي، ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيروا ذلك علي أنتم، لأن تخير الرسول إلى المرسل دون المرسل إليه، والله أعلم إذا أرسل رسالة بموضع رسالاته.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال صديق حسن خان «في فتح البيان»:

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ من الآيات أي حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد ﷺ والمعنى إذا جاءت الأكابر آية ﴿قَالُواْ﴾ هذه المقالة ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ وإنما قالوها حسدا منهم للنبي ﷺ، وقيل المعنى إذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ قالوا لن نصدقك حتى يأتينا جبريل ويخبرنا بصدقك يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء متبوعين لا تابعين.

وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ونظيره ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ

ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ) [المدثر: ٥٢].

قال بعضهم يسن الوقف هنا ويستجاب الدعاء بين هاتين الجلالتين.

(قلت) لعل هذا من التجارب دون المأثورات.

فأجاب الله عنهم بقوله: (ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ) أي أن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعا لها وأمينا عليها، وقد اختار أن يجعلها في محمد ﷺ صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم.

عن ابن جريج قال: قالوا لمحمد - ﷺ - حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هذا حقا لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد، (وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ) [الزخرف: ٣١].

ثم توعدهم بقوله: (سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ) أي ذل وهوان.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ)؟

ج: قال الحافظ ابن كثير خ في معناها:

وقوله: (ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ) أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: (وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ) [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم (مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ) أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيا وحسدا، وعنادًا واستكبارًا كما قال تعالى مخبرًا عنهم: (وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ) [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: (وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا) [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: (وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ) [الأنبياء: ٤١].

هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه. وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو

سفيان» حين سأله «هرقل» ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسبٍ. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به[1].

وأورد حديث:

واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[2].

وقال السعدي رحمه الله في قولهم:

﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ من النبوة والرسالة.

وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه.

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين.

فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فيمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلا وتبعا.

ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه، عند من لا يستأهله، ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية، دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه، وإن كان تعالى رحيما واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- سيحل بهؤلاء المجرمين الذي اجترموا الشرك

---

(١) البخاري (٧).
(٢) مسلم (٢٢٧٦).

واجترموا السيئات ذل وهوان من الله ﷻ وسيحل بهم مع الذل والهوان عذاب شديد بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله، وبسبب جدالهم بالباطل زخرفة القول؛ لخداع أهل الإيمان وأهل الطاعات.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معلمه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه:(سَيُصِيبُ)، يا محمد، الذين اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره (صَغَارٌ)، يعني: ذلة وهوان.

ثم قال:

وأما قوله: (صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ)، فإن معناه: سيصيبهم صغار من عند الله، كقول القائل: «سيأتيني رزقي عند الله»، بمعنى: من عند الله، يراد بذلك: سيأتيني الذي لي عند الله.

وغير جائز لمن قال: (سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ)، أن يقول: «جئت عند عبد الله»، بمعنى: جئت من عند عبد الله، لأن معنى«سيصيبهم صغار عند الله»، سيصيبهم الذي عند الله من الذل، بتكذيبهم رسوله. فليس ذلك بنظير: «جئت من عند عبد الله».

وقوله: (وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ)، يقول: يصيب هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، المستحلين ما حرم الله عليهم من الميتة، مع الصغار عذاب شديد، بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول، غرورا لأهل دين الله وطاعته.

هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله. صغار وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلا كقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠] أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: (وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ) لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا، (وَلَا يَظۡلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: (يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ) [الطارق: ٩] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينصب لكل غادرٍ لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلانٍ ابن فلانٍ»(١).

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ) ؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: أن من أراد الله أن يوفقه للإسلام والطاعة شرح صدره لقبول الإسلام، أي: جعل صدره فسيحا رحيبا واسعا قابلا لكل ما يلقى إليه من التوحيد والشهادة للرسول ﷺ بالرسالة، بل يجعله قابلا لكل تعاليم هذا الدين دين الإسلام، فرحا بذلك مسرورا راضيا مستنيرا بتعاليمه شاكرا الله على نعمته عليه بذلك(٢).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويقول تعالى ذكره: فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له (يشرح صدره للإسلام) ، يقول: فسح صدره لذلك وهونه عليه، وسهله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ) أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير، كقوله تعالى: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ) [الحجرات: ٧].

---

(١) البخاري (٦١٧٨)، ومسلم (١٧٣٥)، وله عدة طرق عن النبي ﷺ، وكذلك انظر: مسلم (حديث ١٧٣٨).
(٢) وقد قدمت شيئًا من ذلك في تفسير سورة الانشراح ترجع إليه إن شئت.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى -مبينا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله-: إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذا به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومن عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا)؟

ج: المعنى -والله أعلم-: ومن يرد الله أن يصرفه عن الهداية يضيق صدره أمامها، فلا تجد الهداية مدخلا تدخل منه إلى قلبه، فكلما سمع شيئا من تعاليم الإسلام لا يجد في صدره مكانا لقبوله، فيرد تعاليم هذا الدين ويرفض شرائعه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى، يشغله بكفره وصده عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجا.

و«الحرج»، أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان، لرين الشرك عليه. وأصله من«الحرج»، و«الحرج» جمع«حرجة»، وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء لشدة التفافها بها.

ثم ذكر الطبري خ كلاما جديرا بالنقل فقال:

وفي هذه الآية أبين البيان لمن وفق لفهمها عن أن السبب الذي به توصل إلى الإيمان والطاعة غير السبب الذي به توصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند الله، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدر من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدر من أراد إضلاله ضيقا عن الإسلام حرجا، كأنما يصعد في السماء. ومعلوم أن شرح الصدر للإيمان خلاف تضييقه له، وأنه لو كان توصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه لم يكن بين تضييقه عنه وبين شرحه له فرق، ولكان من ضيق صدره عن الإيمان قد شرح صدره له، ومن شرح صدره له فقد ضيق عنه، إذ كان موصولا

بكل واحدٍ منهما، أعني من التضييق والشرح، إلى ما يوصل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وجب أن يكون الله قد كان شرح صدر أبي جهلٍ للإيمان به وضيق صدر رسول الله ﷺ عنه، وهذا القول من أعظم الكفر بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك الدليل الواضح على أن السبب الذي به آمن المؤمنون بالله ورسله وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون بالله وعصاه العاصون، وأن كلا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جل ثناؤه أنه هو الذي يشرح صدر هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيق صدر هذا الكافر عنه إذا أراد إضلاله.

س: وضح معنى قوله تعالى: (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم-: أن الله ﷻ يجعل صدر الكافر ضيقا ضيقا شديدا فلا يصل إليه الإيمان، كالذي يريد الصعود إلى السماء ولكن لا يستطيع ذلك لشدة ذلك عليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقا حرجا. أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه، عدم إيمانهم، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، يسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى.

س: وضح معنى قوله تعالى (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)؟

ج: المعنى –الله أعلم–: وكما أننا جعلنا صدور الكفار ضيقه حرجة فلا تقبل إيمانان فكذلك يجعل العذاب على أهل الكفر والتكذيب وأيضا يسلط الله عليهم الشيطان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا، كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان فيجزيه بذلك، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الحق.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾؟

ج: معناه –والله أعلم–: وهذا الإسلام الذي بيناه لك في هذه السورة وغيرها، هو الطريق الذي ارتضاه الله لك؛ فالذين عند الله هو الإسلام، وكذا فهذا هو الطريق الموصل إلى مرضاة ربك ﷻ.

يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بينا لك، يا محمد، في هذه السورة وغيرها من سور القرآن، هو صراط ربك.

يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينا، وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه، فاثبت عليه، وحرم ما حرمته عليك، وأحلل ما أحللته لك، فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقول: لمن يتذكر ما احتج الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها. وخص بها (الذين يتذكرون)؛ لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجى والفضل.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: معتدلا موصلا إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان، ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ
ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ
وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا
مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ
ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ
وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي
وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا
غَٰفِلُونَ ١٣١ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعۡمَلُونَ ١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ
وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ
ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤
قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ
مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ

وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ
لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ
وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا
يَفۡتَرُونَ ١٣٧ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا
مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ
١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا

وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ
سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ
أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى
ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ [الأنعام: ١٢٧- ١٤٠].

الكلمة	معناها
﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾	الجنة- دار الأمان (السالمة من الآفات) – جنة الله.
﴿وَلِيُّهُم﴾	ناصرهم.
﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾	يجمعهم.
﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾	أكثرتم من إغواء بني آدم- أضللتم كثيرًا من بني آدم.
﴿أَوۡلِيَآؤُهُم﴾	أنصارهم- أصدقاؤهم.
الكلمة	معناها

﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾	مكانكم الذي تقيمون فيه.
﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾	نجعلهم أولياء لبعضهم البعض وأنصارًا لبعضهم البعض فيما هم عليه من الباطل – نتبع بعضهم بعضًا في جهنم – نسلط بعضهم على بعض.
﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾	من بعد خلقٍ آخرين كانوا قبلكم.
﴿بِمُعْجِزِينَ﴾	بفائتين – بمُرهقين ربكم – بغالبين ربكم – لن تُعجزوا ربكم بالهرب منه.
﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾	على ناحيتكم.
﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾	العاقبة الحسنة في الدار الآخرة (عاقبة دنياه خيرٌ له من دنياه).
﴿لَا يُفْلِحُ﴾	لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب.
﴿ذَرَأَ﴾	خَلَق.
﴿نَصِيبًا﴾	جزءًا – قسمًا.
﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾	أساءوا في حكمهم – ما أسوأ الحكم الذي يحكمون به.
﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾	ليهلكوهم.
﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾	وليخلطوا.
﴿حِجْرٌ﴾	حرامٌ (ممنوعة).
﴿يَفْتَرُونَ﴾	يكذبون.
﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾	لا يأكل منها إلا الذكور.
﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾	ممنوع ومحرم على أزواجنا.
﴿وَصْفَهُمْ﴾	قولهم الكاذب على الله – كذبهم (في وصفهم).
﴿سَفَهًا﴾	جهالة وقلة عقل – افتراءً كاذبًا على الله.
﴿ٱفْتِرَآءً﴾	كذبًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟

ج: المعنى –الله أعلم-: لهؤلاء الذين هداهم الله وشرح صدورهم للإسلام (دار السلام) أي جنة الله ﷻ؛ (فالدار هي الجنة، والسلام اسم من أسماء الله ﷻ)، وهو ناصرهم ومتولي جزاء لهم بما كانوا يعملون من صالح الأعمال في دنياهم.

وقد قيل: إن معنى دار السلام: دار الأمان، والله تعالى أعلم.

قال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمتذكرين. ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: الجنة، فالجنة دار الله؛ كما يقال: الكعبة بيت الله. ويجوز أن يكون المعنى: دار السلامة، أي: التي يسلم فيها من الآفات. ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْۖ﴾ أي: مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: ناصرهم ومعينهم.

قال السعدي في «تفسيره»:

وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك، أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها، ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم، بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاه، واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم-: واذكر يوم يجمع الله تعالى شياطين الإنس والجن الذين كانوا في الدنيا أولياء لبعضهم وظهراء لبعضهم يوحي بعضهم إلى بعض القول المزخرف المزين لمجادلة المرسلين والخداع المؤمنين، يوم يجمع الله هؤلاء كلهم

فيقول للجن: يا معشر الجن، يا جماعة الجن قد أغويتم كثيرا من الإنس فاتبعوكم على ضلالكم، ويا معشر الجن قد أضللتم عن طريق الله كثيرا من الإنس، وهذه الآية الكريمة في معناها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس:٦٢]

قال السعدي في «تفسيره»:

يقول تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره.

فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوهم إلى المعاصي: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ أي: من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله،

فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال، والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارا.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ مع بيان بعض صور هذا الاستمتاع؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أن البشر المتبعون للشياطين الذين والوهم وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، هؤلاء البشر يجيبون ربهم يوم القيامة قائلين: يا رينا: استمتع بعضنا ببعض في دنيانا، وبلغنا آجالنا وأعمارنا التي قدرت لنا أن نعيشها في دنيانا.

أما صور استمتاع الجن بالإنس: فهي ما يلقاه من الإنس من تعظيم له وإجلاله وتقديره والاستعاذة به واعتقاد أنه يعلم الغيب ويخبر بما هو كائن ونحو ذلك.

أما استمتاع الإنس بالجن فمنها إخباره بما يسترقه من السمع وما يعاونه به من

التفريق بين المرء وزوجه وبما يعاونه به من أمور السحر والشعوذات، وبما يصدر من الإنس من تعوذات بالجن إذا نزل بفلاةٍ من الأرض ونحو ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ) نداء مضاف.

(قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ) أي مـن الاسـتمتاع بـالإنس، فحـذف المصـدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر، يدل على ذلك قوله: (رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ) وهذا يرد قول من قال: إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس، لأن الإنس قبلوا منهم. والصحيح أن كل واحدٍ مستمتع بصاحبه.

والتقدير في العربية: استمتع بعضنا بعضا، فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم.

وقيل: كان الرجل إذا مر بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر. وفي التنزيل: (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا) [الجن: ٦]. فهذا استمتاع الإنس بالجن.

وأما استمتاع الجن بالإنس فما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر. وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون.

ومعنى الآية تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»: (وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ) لعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين وهم الإنس دون المضلين وهم الجن للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا.

س: ما المراد بالأجل الذي أجل الله لهم؟

ج: المراد -الله أعلم- أعمارهم التي كتبها لهم، أي: كتب لهم أن يعيشوها في الدنيا.

قال السعدي في «تفسيره»:

﴿بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال. فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا، بما تريد. قد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك.

وكان في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه.

س: ما المراد بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها المدة التي ما بين موتهم إلى بعثهم من قبورهم ودخولهم النار، فهذه المدة من الموت إلى دخول النار هي المستثناة كذا اختار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإلى مثل هذا جنح الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: أن مدة بقائهم في النار موكولة إلى مشيئة الله ﷻ.

ولكن جاءت آيات أخر تدل على أن بقاءهم في النار أبدي، وأنهم لن يخرجوا منها.

الثالث: أن قوله إلا ما شاء الله مختص بأهل التوحيد الذي أغويتهم الشياطين فحملتهم على فعل الكبائر واقراف المعاصي والآثام؛ فهؤلاء يبقون في النار -إذا لم يغفر الله لهم- زمنا ثم يخرجون منها، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾؟

ج: المعنى -الله أعلم-: إن ربك يا رسول الله حكيم فيما شرع من شرائع، وحكيم في تدبير الأمور وتصريف الخلق، عليم بالعواقب وعليم بالعباد وما يستحقون.

قال الطبري خ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾، في تدبيره في خلقه، وفي تصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال، وغير ذلك من أفعاله، ﴿عَلِيمٞ﴾ بعواقب تدبيره إياهم، وما إليه صائرة أمرهم من خير وشر.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وكما أننا جعلنا النار مثوى الجن الذين أضلوا الإنس، وللإنس كذلك الذين اتبعوا الجن، فكذلك في الدنيا جعلنا بعض الظالمين أولياء لبعض يناصرونهم في باطلهم، ويزخرفون القول لهم، ويهدونهم إلى طرائق الغي والضلال.

فالكافر يوالي الكافر ويناصره.

وثم قول آخر: في تأويل الآية الكريمة حاصله: وكذلك نسلط بعض الظالمين على بعض، فنسلط شياطين الجن على الظلمة من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وكذا نسلط ظلمة الإنس على بعضهم البعض.

ومن أهل العلم من أورد قولا آخر حاصله أن قوله تعالى: ﴿نُوَلِّي﴾ أي نتابع، أي نجعل بعضهم يتبع بعضا في النار.

هذا، وقد أورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة قال:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، وإنما يولي الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان. ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي.

أما الطبري نفسه فقد قال:

وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: وكذلك نجعل بعض الظالمين لبعضٍ أولياء. لأن الله ذكر قبل هذه الآية ما كان من قول المشركين، فقال جل ثناؤه: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، وأخبر جل ثناؤه: أن بعضهم أولياء بعض، ثم عقب خبره ذلك بخبره عن أن ولاية بعضهم بعضا بتوليته إياهم، فقال: وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض يستمتع بعضهم ببعض، كذلك نجعل بعضهم أولياء بعض في كل الأمور ﴿بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ)، من معاصي الله ويعملونه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعضٍ، ونهلك بعضهم ببعضٍ، وننتقم من بعضهم ببعضٍ، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى:(وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا) المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من استمتاع بعضهم ببعضٍ أجعل بعض الظالمين أولياء بعضٍ، ثم يتبرأ بعضهم من بعضٍ غدا.

ومعنى(نُوَلِّي) على هذا نجعل وليا.

قال ابن زيدٍ: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

وعنه أيضا: نسلط بعض الظلمة على بعضٍ فيهلكه ويذله. وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر.

ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم.

وقال فضيل بن عياضٍ: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالمٍ فقف، وانظر فيه متعجبا.

وقيل: المعنى نكل بعضهم إلى بعضٍ فيما يختارونه من الكفر، كما نكلهم غدا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب.

أي: كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ نكله إلى ما وكل إليه نفسه.

وقال السعدي في «تفسيره»:

(وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه،

ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولى عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ....﴾ الآية؟

ج: إيضاحه -والله أعلم-: أن الله يسأل كفرة الجن والإنس يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع، فيقول لهم: يا جماعة الجن ويا جماعة الإنس، ألم يأتكم رسل منكم، يخبرونكم بآياتي ويذكرونكم بناري، ويبشرون من أطاع رسلي بجناتي، ويحذرونكم عقابي ويدلونكم على وحدانيتي فهل أطعتموهم واتبعتم أمرهم؟

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكره يومئذ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، يقول: يخبرونكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾، يقول: يحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إياي، فتنتهوا عن معاصي.

وهذا من الله جل ثناؤه تقريع وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا

من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيد الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا ولم تعتبروا.

س: هل هناك رسل من الجن؟

ج: ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم، فقالوا: نعم، هناك رسل من الجن، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ فقالوا: من الجن رسل للجن، ومن الإنس رسل للإنس، اللهم إلا أن رسول الله محمد ﷺ بعث للثقلين: الجن والإنس على السواء؛ وذلك لقول الجن لما استمعوا قراءته: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ...﴾ [الاحقاف: ٣٠، ٣١].

ولقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١، ٢].

بينما ذهب آخرون من العلماء إلى أن الجن ليس منهم رسل وحمل هؤلاء الآية الكريمة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ على أن ذلك أطلق تغليبا، كما قال تعالى في شأن البحرين: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، واللؤلؤ والمرجان يخرجان من المالح فقط كذا قالوا، وكما قال القائل: «أكلت خبز ولبنا» واللبن إنما يشرب ولكن أطلق عليه الأكل تغليبا، والله أعلم.

هذا، وتوسط آخرون فقالوا: هناك من الجن رسل لكنهم هم الذين سمعوا الرسل البشرين وبلغوا أقوامهم ما سمعوه من المرسلين، والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ) [النساء: ١٦٣] إلى قوله: (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) [النساء: ١٦٥]، وقوله تعالى عن إبراهيم: (وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ) [العنكبوت: ٢٧] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته،

ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠]، وقال: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ) [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخبارا عنهم: (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

س: وضح معنى قوله تعالى: (قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ)؟

ج: المعنى -الله تعالى أعلم-: أن أهل الكفر لما سئلوا يوم القيامة: ألم يأتكم رسل منكم...؟ قالوا: شهدنا على أنفسنا....أي: أقررنا على أنفسنا يا ربنا بأن رسلك قد جاءتنا بآياتك الدالة على وحدانيتك، وأنذرتنا عذابك وخوفتنا نارك، ولكننا يا ربنا كذبنا بذلك وجحدنا رسالاتك وآياتك، وقد غرت هؤلاء المشركين زينة الحياة وزخارفها، وشهد هؤلاء الكفار على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريعه إياهم بقوله لهم: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا)، أنهم يقولونه..............(شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا)، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها وجحدنا رسالتها، ولم نتبع آياتك ولم نؤمن بها.

قال الله خبرا مبتدأ: وغرت هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، وأولياءهم من الجن (ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا)، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن

يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوما عالين. فاكتفى بذكر (ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا) من ذكر المعاني التي غرتهم وخدعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتفى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما ترك ذكره = يقول الله تعالى ذكره: (وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) ، يعني: هؤلاء العادلين به يوم القيامة = أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لتتم حجة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبته وأليم عذابه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالى: (وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا) أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، [وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات؛ لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا] وزينتها وشهواتها (وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) أي: يوم القيامة (أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ) أي: في ا لدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ)؟

المعنى –والله أعلم–: ذلك الذي فعلناه من إرسال الرسل؛ لأن الله ﷻ حكم عدل لم يكن ليهلك أهل القرى بسبب شركهم دون إنذار منه لهم ودون تحذير منه لهم، ولكن أرسل لهم رسله يحذرونهم وينذرونهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ)، أي: إنما أرسلنا الرسل، يا محمد، إلى من وصفت أمره، وأعلمتك خبره من مشركي الإنس والجن، يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم إلي، من أجل أن ربك لم يكن مهلك القرى بظلم.

وقد يتجه من التأويل في قوله: (بِظُلْمٍ)، وجهان:

أحدهما: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ)، أي: بشرك من أشرك، وكفر من كفر من أهلها، كما قال لقمان: (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: ١٣] (وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ)، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم، وتنذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غفلة

فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [المائدة: ١٩].

والآخر: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، يقول: لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب عندي، القول الأول: أن يكون معناه: أن لم يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم.

وذلك أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، عقيب قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، فكان في ذلك الدليل الواضح على أن نص قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أنا لا نهلك القرى بغير تذكير وتنبيه.

وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فإنه يجوز أن يكون نصبا، بمعنى: فعلنا ذلك = ويجوز أن يكون رفعا، بمعنى الابتداء، كأنه قال: ذلك كذلك.

وأما ﴿أَن﴾، فإنها في موضع نصب، بمعنى: فعلنا ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى= فإذا حذف ما كان يخفضها، تعلق بها الفعل فنصب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يعاقب أحدا بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ [تبارك: ٨، ٩] والآيات في هذا كثيرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: إنما فعلنا هذا بهم؛ لأني لم أكن أهلك القرى بظلمهم؛ أي بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم.

فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. وقيل: لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك

منهم؛ فهو مثل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد. وقد قال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؟

ج: المعنى -الله أعلم-: ولكل عامل من البشر درجات يبلغها بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فمن عمل من الصالحات أعمالا كبيرة بلغ بها أعلى الجنان، ومن عمل دون ذلك فرتبته ودرجته دون ذلك، ومن عمل السيئات أعمالا موبقة تردى بها في الجحيم حسب أعماله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته من كافري الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي من الجن والإنس؛ كما قال في آية أخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار؛ كالإنس سواء.

وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه.

ومعنى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكل عامل بطاعة درجات في الثواب.

ولكل عامل بمعصية دركاتق في العقاب.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: ليس بلاهٍ ولا ساهٍ. والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ...﴾ الآية؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وربك - يا رسول الله- الغني عن خلقه وعن عبادتهم، فلو أنهم كانوا جميعا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا، ومع أنه غني عنهم لكنه رحيم بهم ورءوف بهم يجازي المحسن خير الجزاء ويثيبه ويكرمه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: ﴿وَرَبُّكَ﴾، يا محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم. يقول عز ذكره: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم آمرهم بما أمرتهم به، وأنهم عما نهيتهم عنه، لحاجةٍ لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرأفة والرحمة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم، رءوف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم–: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتي بعد الذهاب بكم ما يشاء من الخلق كما أنشأكم من بعد خلقٍ آخرين ذهب بهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾، فإنه يقول: إن يشأ ربك، يا محمد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه ﴿ يُذْهِبْكُمْ ﴾، يقول: يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾، يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض ﴿مِنْ بَعْدِكُم ﴾، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم.

ومعنى﴿مِّن ﴾ في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: «أعطيتك من دينارك ثوبا»، بمعنى: مكان الدينار ثوبا، لا أن الثوب من الدينار بعض.

كذلك الذين خوطبوا بقوله: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم ﴾، لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنهم أنشئوا مكان خلقٍ خلف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم.

و«الذرية»«الفعلية»، من قول القائل: «ذرأ الله الخلق»، بمعنى خلقهم،«فهو يذرؤهم»، ثم ترك الهمزة فقيل: «ذرا الله»، ثم أخرج«الفعلية» بغير همز، على مثال«العبية».

وقد روي عن بعض المتقدمين أنه كان يقرأ:﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ على مثال«فعيلة».

وعن آخر أنه كان يقرأ: «ومن ذرية»، على مثال«علية».

قال أبو جعفر: والقراءة التي عليها القرأة في الأمصار: ﴿ذُرِّيَّةِ ﴾، بضم الذال، وتشديد الياء، على مثال«عبية».

وقد بينا اشتقاق ذلك فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته ههنا.

وأصل «الإنشاء»، الإحداث. يقال: «قد أنشأ فلان يحدث القوم»، بمعنى ابتدأ وأخذ فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ أي: قوما آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ -١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال السعدي في «تفسيره»:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار، كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذتموها قرارا؟ وتوطنتم بها ونسيتم، أنها دار ممر لا دار مقر. وأن أمامكم دارا، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله، ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح، وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب، فلله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات» وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون» ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة الوصول إلى هذه الدار.

قال صديق حسن خان «في فتح البيان»:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك، وقيل الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم، والعموم أولى ويدخل فيه أهل مكة دخولا أوليا ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ أي ينشئ ويوجد ﴿مِنْ بَعْدِكُم﴾ أي بعد إهلاككم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من خلقه ممن هم أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي من نسل قوم لم يكونوا على مثل صفتكم بل كانوا طائعين، قيل هم أهل سفينة نوح وذريتهم من بعدهم من القرون إلى زمنكم.

قال الواحدي والزمخشري: ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفا بهم، وقال الرازي: المراد منه خلق ثالث أو رابع، واختلفوا فيه فقيل خلقا آخر من أمثال الجن والإنس.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: إن الذي يعدكم الله به من الثواب إذا أطعتم، ومن العذاب إذا أشركتم، وكذا عموم ما يعدكم الله به لكائن وحاصل، ولن تستطيعوا فرارا ولا هربا مما يريدكم الله به فلن تعجزوا الله ﷻ بالهرب مما أراده بكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمشركين به: أيها العادلون بالله الأوثان والأصنام، إن الذي يوعدكم به ربكم من عقابه على إصراركم على كفركم، واقع بكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، يقول: لن تعجزوا ربكم هربا منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إياه قادر. يقول: فاحذروه وأنيبوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ...﴾؟

ج: المعنى -الله أعلم-: قل يا رسول الله لقومك المشركين: يا قوم، اعملوا على ناحيتكم التي أنتم عليها وإليها سائرون.

واثبتوا على ما أنتم فيه من الزيغ والضلال، أما فأنا أيضا عامل بمقتضى ما أنا فيه من الإيمان والإسلام، فأنا ثابت على إيماني عامل بما يمليه علي ديني وإيماني، وسوف تعلمون عند حلول العذاب عليكم ونزول النقم بكم من منا المحق ومن المبطل أأنا أم أنتم؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي كقوله: (وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) [هود: ١٢١- ١٢٢].

وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه أي فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، كما قال الله تعالى: (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) [المجادلة: ٢١] وقال (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ) [غافر: ٥١- ٥٢] وقال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ) [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى إخبارا عن رسله: (فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ) [إبراهيم: ١٣- ١٤] وقال تعالى: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ) [النور: ٥٥] الآية وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩] وقرأ أبو بكرٍ بالجمع «مكاناتكم». والمكانة الطريقة.

والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار.

فالجواب أن هذا تهديد، كما قال ﷻ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ١١٥].

ودل عليه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها، أي من له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة، أي الجنة. قال الزجاج: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ تمكنكم في الدنيا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: أن أهل الشرك جعلوا من ثمرات الأرض جزءا لله وجزءا للآلهة والأوثان والأصنام والأوثان والشياطين والكهنة والسحرة تركوه على حاله للأصنام والأوثان.. ولكن إذا ذهب جزء من الذي جعلوه للأصنام والأوثان والشياطين إلى الجزء الذي جعلوه لله ردوه ثانية إلى مكانه وكذا جعلوا من الأنعام: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فلبئس الحكم الذي حكموا به ولبئس الصنيع الذي صنعوا هذا، وقد وردت جملة آثار عن ابن عباس رضي الله عنهما حاصلها- وإن كان في أسانيدها ضعف- أنه قال: كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما، جعلوا منها لله سهما، وسهما لآلهتهم، وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله، ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم. وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم، أقروه ولم يردوه. فذلك قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

وفي رواية أخرى:

قال: جعلوا لله من ثمراتهم وما لهم نصيبا، وللشيطان والأوثان نصيبا. فإن سقط من ثمرة ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشيطان في

نصيب الله التقطوه وحفظوه وردوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه. فهذا ما جعلوا من الحروث وسقي الماء. وأما ما جعلوا للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة:

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾، الآية، عمد ناس من أهل الضلالة فجزؤوا من حروثهم ومواشيهم جزءا لله وجزءا لشركائهم. وكانوا إذا خالط شيء مما جزؤوا لله فيما جزءوا لشركائهم خلوه. فإذا خالط شيء مما جزؤوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ردوه على شركائهم. وكانوا إذا أصابتهم السنة استعانوا بما جزؤوا لله، وأقروا ما جزؤوا لشركائهم قال الله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

هذا، وقد أورد بعض أهل العلم قولا آخر فحواه: أنهم كانوا إذا ذبحوا شيئا على غير اسم الله أكلوه، وإن ذبحوا شيئا على اسم الله لم يأكلوه حتى يذكروا اسم آلهتهم أيضا معه، والله أعلم.

قال السمعاني في «تفسيره»:

قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ وكانوا يقسمون الحرث، فيجعلون لله نصيبا، وللأصنام نصيبا، ويقسمون الأنعام، فيجعلون لله نصيبا، وللأصنام نصيبا، ثم ما جعلوا لله، صرفوه للفقراء والمساكين، وما جعلوا للأصنام أنفقوه على الأصنام، وعلى خدم الأصنام؛ فهذا معنى قوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ فأما قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾ معنى هذا: أنهم كانوا إذا قسموا الحرث والأنعام كما وصفنا، فإذا سقط مما جعلوا لله من الحرث شيء فيما جعلوه للأصنام تركوه، وإذا سقط شيء من نصيب الأصنام، فيما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وكان إذا هلك أو انتقص مما جعلوا لله من الأنعام شيء؛ لم يبالوا به، وكان إذا هلك أو انتقص من نصيب الأصنام، جبروه مما جعلوه لله، وقالوا: الله غني، والصنم محتاج، وكانوا إذا أجدبوا وقحطوا؛ أكلوا مما

جعلوه لله، ولم يأكلوا من نصيب الأصنام.

وقال السعدي في «تفسيره»:

يخبر تعالى، عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل، وخفة الأحلام، والجهل البليغ،

وعدد ع شيئا من خرافاتهم، لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاءالسفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدح فيه أصلا فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق،

فذكر من ذلك أنهم (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا) ولشركائهم من ذلك نصيبا، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقا، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير، منتهم على الله، في جعلهم له نصيبا، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع،

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئا في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به، ولم يهتموا، ولو كان واصلا إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم -من زروعهم وثمارهم وأنعامهم، التي أوجدها الله لهم- شيء، جعلوه قسمين:

قسما قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسما جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقيرة، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم. وأظلم؟ » حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئا تركته وشركه**».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله –على زعمهم– فإنه لا يصل إليه لكونه شركا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: ساء الحكم الذي حكموا به، والصنيع الذي صنعوه، فلم يقف إجرامهم على كونهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا،ولم يقف إجرامهم أن جعلوا للأصنام والأوثان والكهان نصيبا، بل امتد إجرامهم إلى أن فضلوا آلهتهم على ربهم ﷻ، وجعل الجزء الذي لله ﷻ أقل الأجزاء، وإذا وصل منه شيء إلى نصيب الآلهة التي عبدوها مع الله ﷻ جعلوه للآلهة، أما إذا وصل جزء من الذي جعلوه للآلهة إلى ما جعلوه لله ردوه إلى آلهتهم فساء هذا الصنيع، وأساءوا بصنيعهم إلى أنفسهم؛ إذ قد حكموا عليها بالضلال.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: وقد أساءوا في حكمهم إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم، ولم يعطوني من نصيب شركائهم. وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبر عن جهلهم وضلالتهم وذهابهم عن سبيل الحق بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضلوه في إقسامهم عند أنفسهم بالقسم عليه.

قال السمعاني في «تفسيره»:

وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: لم يأتهم فيه وحي، ولا يقتضيه عقل؛ فإن القياس يقتضي التسوية– على زعمهم– بين الشريكين، لا ما حكموا به.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وكما زينت الشياطين لأهل الشرك الكلام المزخرف لجدال الأنبياء وأهل الصلاح، وكما زينت لهم أن يجعلوا للأوثان والأصنام نصيبا مما رزقهم الله، فكذلك زينت لهم الشياطين قتل الأولاد وكذا قتل البنات وحسنت ذلك لهم، فمنهم: من كان يقتل ولده خشية أن يطعم معه، ومنهم: من كان يئد البنات لا لشيء إلا لكونهن إناث، فحسنت الشياطين لهم كل ذلك؛ ليهلكوهم بهذا الصنيع، فهذه أمور موبقات تتسبب لصاحبها في دخول الجحيم، وكذلك زينت لهم الشياطين ذلك وحسنت لهم ذلك لتخليط الأمور- أمور دينهم- عليهم وجعل الحرام حلالا، والحلال حراما، ولو شاء الله ما تمكنت الشياطين من ذلك، وما أغوت بني آدم، وكذا لو شاء الله ما قتل المشركون أبناءهم فاتركهم وكذبهم فإني أكفيكهم، وأنتقم لك منهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكما زين شركاء هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام لهم ما زينوا لهم، من تصييرهم لربهم من أموالهم قسما بزعمهم، وتركهم ما وصل من القسم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردهم ما وصل من القسم الذي جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيب الله، إلى قسم شركائهم ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، من الشياطين، فحسنوا لهم وأد البنات ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾، يقول: ليهلكوهم﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا، بفعلهم ما حرم الله عليهم ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم.

يقول الله لنبيه، متوعدا لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسمونها:﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، وفي قتلهم أولادهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾، يا محمد، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وما يتقولون علي من الكذب والزور، فإني لهم بالمرصاد، ومن ورائهم العذاب والعقاب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار.

ثم قال:

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩] الآية، وكقوله ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨- ٩] وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونا وله الحكمة التامة في ذلك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

قال السعدي في «تفسيره»:

ومن سفه المشركين وضلالهم، أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم -أي: رؤساؤهم وشياطينهم- قتل أولادهم، وهو: الوأد، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجا منه لهم، وإمهالا لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لنيضروا الله شيئا.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموما، وجعلها رزقا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعا وأقوالا من تلقاء أنفسهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)؟

ج: هذا–والله أعلم–: بيان لجهل المشركين وافترائهم على الله ﷻ وتحريمهم ما شاءوا أن يحرموه وتحليلهم ما شاءوا وما أرادوا فقالوا: هذه أنعام (يريدون بذلك: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك) وحرث حجر أي: حرام على الناس أن يأكلوا منها إلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عند ركوبها، بل هي –عندهم– للآلهة فحسب، حتى إن ذبحت فلا يذكر اسم الله عليها عند الذبح، وأيضا إن حلبوها لا يذكرون اسم الله عليها عند حلبها، فعلوا ذلك كله كذبا على الله وتقولا عليه بغير علم، ونسبوا إلى الله ﷻ ما لم يقله، وما لم يحرمه وسيجزيهم الله على افترائهم عليه وكذبهم عليه.

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله – تعالى –: (وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) أي: حرام (لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ) إلا من نشاء بزعمهم) ثم بين (تحريمهم) ؛ فقال (لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ) يعني: من خدم الأصنام، وقيل: هو تحريم البحيرة والسائبة على الإناث، ولا يطعمها إلا الذكور.

(وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) هي الحوامي التي ذكرنا في المائدة، كانوا يقولون: حمت ظهورها (وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا) قيل: ذبائح كانوا يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله - تعالى - وقيل معناه: أنهم لا يركبون عليها لفعل الخير.

قال أبو وائل شقيق بن سلمة: معناه: أنهم لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الحج، إلا أنه جرت العادة بذكر اسم الله على فعل الخير، فعبر بذكر اسم الله عن فعل الخير؛ فقال: (وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ) يعني: افتراء على الله

(سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ) أي: جزاء ما كانوا يكذبون.

قال السعدي في «تفسيره»:

(هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ) أي: محرم (لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ) أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

(سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ) على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع.

س: ما المراد بالأنعام في قوله تعالى: (وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ....)؟

ج: الذي يظهر -والله تعالى أعلم-: أنها الأنعام المذكورة في قوله تعالى: (وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ...) فهي الأنعام التي أوقفوها لآلهتهم وأوثانهم: كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام؛ فهذه أنعام جعلوها وقفا على آلهتهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام، ويعينونها -محرما ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون:

(مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا) أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء.

(وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ) أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيا،

وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتا، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور

والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم جل جلاله.

س: ما المراد بالأزواج في قولهم: (وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا)؟

ج: الظاهر - والله أعلم-: أن المراد بالأزواج النساء، وهذا اختيار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد قال: والأزواج إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لا شك بنات من هن أولاده، وحلائل من هن أزواجه.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ)؟

ج: المعنى -الله أعلم-: أن أهل الشرك قالوا- كذبا وزورا- ما حوته بطون هذه الأنعام (البحائر والسوائب والوصائل) من اللبن والأجنة (جمع جنين) الذكور وحرام على النساء الأكل من لحمها والشرب من لبنها، أما إذا كان الجنين ميتا فيشترك في أكله الذكور والإناث، كذا قالوا وسيعاقبهم الله على ما صنعوا وما اختلفوا من الكذب إنه (حَكِيمٌ) في تدبير أمور خلقه (عَلِيمٌ) بما يصلحهم.

س: لماذا قيل: (خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا) ولم يقل: خالص لذكورنا؟

ج: قال الطبري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في بيان ذلك:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: أريد بذلك المبالغة في خلوص ما في بطون الأنعام التي كانوا حرموا ما في بطونها على أزواجهم، لذكورهم دون إناثهم، كما فعل ذلك «بالراوية» و«النسابة» و«العلامة»، إذا أريد بها المبالغة في وصف من كان ذلك من صفته، كما يقال: «فلان خالصة فلان، وخلصانه».

وقال -أيضًا- رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: (وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا) ، الدليل الواضح على أن تأنيث «الخالصة»، كان لما وصفت من المبالغة في وصف ما في بطون الأنعام بالخلوصة للذكور، لأنه لو كان لتأنيث الأنعام لقيل: و«محرمة على أزواجنا»، ولكن لما كان التأنيث في «الخالصة» لما ذكرت، ثم لم يقصد في «المحرم» ما قصد في «الخالصة» من المبالغة، رجع فيها إلى تذكير «ما»، واستعمال ما هو أولى به من صفته.

س: وضح معنى قوله تعالى: (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ)؟

ج: المعنى -والله أعلم- سيجزيهم الله على وصفهم السيء وتشريعهم الذي شرعوا أسوأ الجزاء.

ونقل ابن كثير -رَحِمَهُ اللَّهُ- عن عدد من أهل العلم:

(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) أي: قولهم الكذب في ذلك.

يعني قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ) الآية [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

س: وضح المراد بقوله تعالى: (قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ....)؟

ج: المعنى -والله أعلم-: قد خسر هؤلاء الجهلة قليلوا العلم والعقل، هؤلاء الذين قتلوا أولادهم جهالة ونقصا في العقل، هؤلاء الذين حرموا على أنفسهم (البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام...) تلك الأنعام التي رزقهم الله إياها، فافتروا على الله الكذب وزعموا أن الله هو الذي حرمها؛ فقد ضلوا بصينعهم هذا، وما كانوا قبل هذا الضلال مهتدين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذب، العادلون به الأوثان والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم [ما أنعمت به] عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقا من أنعامهم (سَفَهًا)، منهم.

يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقص عقول، وضعف أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضره وآجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم (ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ)، يقول: تكذبا على الله وتخرصا عليه الباطل (قَدۡ ضَلُّواْ) ، يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل (وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ) ، يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله:

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾، فقال: هذا صنيع أهل الجاهلية.

كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذو كلبه، وقوله: (وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ)، الآية، وهم أهل الجاهلية. جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلةص وحاميا، تحكما من الشياطين في أموالهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: (قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ).

قال السمعاني في «تفسيره»:

(قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ) أي: هلك وغبن الذين قتلوا أولادهم وذلك من وأد البنات، وكانوا في الجاهلية يدفنون البنات حية، حتى كان الرجل منهم يقتل ولده،

ويربي كلبه. وكان البعض يفعل ذلك دون البعض، وقيل: كان ذلك في قبيلتين: ربيعة، ومضر، كانا يدفنان البنات وهن حيات، فأما بنو كنانة وسائرهم ما كانوا يفعلون ذلك.

(سَفَهًۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ) أي: جهلا لا عن بصيرة (وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ) (وهو) ما ذكرنا من تحريم أولاد البحيرة، والوصيلة ونحو ذلك (من) الحوامى، حرموها تدينا (ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ) لأنهم كانوا يدعونه دينا من الله - تعالى - وقد كذبوا في ذلك عليه (قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ) .

قَالَ تَعَالَى:

(وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ
وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ
مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا
تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ
وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ
لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ
ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ
أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ
ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ
بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ
أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ
دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ
ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ
وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ
ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ

بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦ فَإِن كَذَّبُوكَ
فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ
لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ
ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ
شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا

تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠) [الأنعام: ١٤١-١٥٠].

الكلمة	معناها
(أَنشَأَ ﴾	خلق- أحدث- ابتدع.
(جَنَّٰتٍ ﴾	بساتين.
(مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾	ما يجعل له الناسُ عُروشًا يحمل عليها كالعنب، وقيل: (مرفوعات).
(وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾	غير مرفوعات- غير مبنيات (كالنباتات التي تخرج بالبر والجبال، ولا تحتاج إلى عروش كما يحتاج العنب).
(أُكُلُهُۥ ﴾	طَعْمه- مذَاقُهُ- ثمره.
الكلمة	معناها

(٣٢٢) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿حَمُولَةً﴾	التي يحمل عليها كالإبل(١).
﴿وَفَرۡشٗا﴾	قيل: صغار الإبل، وقيل: الأغنام، وقيل: الفرش: ما يتخذ منه الفرش كالأغنام.
﴿ٱلضَّأۡنِ﴾	(كالكبش والنعجة).
﴿ٱلۡمَعۡزِ﴾	(كالجدي والعنز).
﴿ٱلۡإِبِلِ﴾	(الجمل والناقة).
﴿ٱلۡبَقَرِ﴾	(الثور والبقرة).
﴿طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾	آكل يأكله.
﴿دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾	دماً مُنصبًّا مُهراقًا – سائلًا يسيل.
﴿رِجۡسٌ﴾	نجس.
﴿فِسۡقًا﴾	خروجًا عن الطاعة (وذلك لكونه ذبح على غير اسم الله).
﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾	ذبح على غير اسم الله ﷻ.
﴿ٱضۡطُرَّ﴾	ألجأته الضرورة.
﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾	غير باغ في أكله إياه تلذذًا به.
﴿وَلَا عَادٖ﴾	ولا متجاوز الحدَّ في الأكل، إنما يأكل ما دعته الضرورة إلى أكله.

(١) وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه عند الطبري – أنه قال: الحمولة: ما حُمل عليه من الإبل، والفرش الصغار.
وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في «تفسيره» قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: وقال عبد الرحمن ابن أسلم: الحمولة: ما تركبون، والفرش: ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل تأكلون لحمها، وتتخذون من صوفها لحافًا وفراشًا.

وعقبه ابن كثير بقوله:

وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن، يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

(٣٢٣) أحمر
أسود

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾	اليهود.
﴿ذِى ظُفُرٍۖ﴾	ما كان غير مشقوق القدم من البهائم والطيور كالإبل والنعام والبط والأوز ونحو ذلك فهذا مما لا تأكله اليهود.
﴿ٱلْحَوَايَآ﴾	المباعر – الأمعاء.
﴿بَأْسُهُۥ﴾	عذابه – عقابه.
﴿تَخْرُصُونَ﴾	تتقولون الكذب والباطل.
﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ﴾	الحجة الغالبة التي تبلغ مرادها في ثبوتها على الخصم – الحجة التي تُسكت الخصم وتقطع أعذاره وتمنعه من الكلام.
﴿هَلُمَّ﴾	هاتوا.
﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾	الشهود الذين يشهدون لكم.
﴿يَعْدِلُونَ﴾	يساوون به (الأصنام والأوثان) – يتحولون عن عبادته إلى عبادة غيره.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ...﴾الآية؟

ج: يذكر الله نعمه ومننه على خلقه، فيقول مذكرا الخلق لعلهم يتعظون ويعتبرون، وهو – لا أحد سواه – الذي خلق وأحدث بساتين وحدائق على كل الصور والأشكالن فمنها بساتين معروشات، أي: مبنيات مرفوعات، كالعنب مثلا يحتاج أن تسند أشجاره بالأخشاب، ويصبح معها كالعريش ومنها ما لا يحتاج إلى ذلك، وكذا أنشأ النخل الذي منه الرطب والتمر، والزروع عامة التي تخرج منها الحبوب والثمار، كل ذلك مختلف ثمره وطعمه، وكذا الزيتون والرمان متشابها في المنظر وغير متشابهٍ في الطعم.

وبين لنا ربنا حل هذا الطعام لنا؛ إذ قال: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، وذكرنا ربنا بالفقراء والمساكين؛ إذ قال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ ونهانا ﷻ عن التبذير والإسراف بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾، وأخبر أنه لا يحب المسرفين.

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾؟

ج: قيل في معناها ما يلي:

١ – متشابها في اللون غير متشابه في الطعم.

س: ما المراد بالحق الذي أمر الله به؛ إذ قال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بهذا الحق: هو الزكاة المفروضة التي بين رسول الله ﷺ مقاديرها، وهي العشر فيما سقته السماء، ونصف العشر بما سقي بالآلة.

الثاني: أن المراد بهذا الحق: حق آخر سوى الزكاة المفروضة، وهو أن يعطي الفقير ومن حضر الحصاد جزءا من المحصود، كالقبضة من الطعام ونحو ذلك.

الثالث: أن هذا الحق كان قبل فرض الزكاة، ثم نسخ بالزكوات المفروضات، والله أعلم.

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾؟

ج: الظاهر -والله أعلم-: أن المراد بذلك اليوم الذي يحصد فيه، وقد قال بعض العلماء إن المراد بذلك اليوم الذي يكال فيه الثمر.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

فإن قيل: هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد؟ فالجواب: إن قلنا: إنه إطعام من حضر من الفقراء، فذلك يكون يوم الحصاد وإن قلنا: إنه الزكاة، فقد ذكرت عنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد. فأما الزروع، فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد فيؤخر إلى زمان التنقية، ذكره بعض السلف. والثاني: أن اليوم ظرف للحق، لا للايتاء فكأنه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية. والثالث: أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه، إنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه. وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق يلزم بنفس نباته قبل قطعه، فأفادت الآية أن

الوجوب فيما يحصل في اليد، دون ما يتلف، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى.

س: هل يجوز تأخير إخراج زكاة الحبوب عن يوم الحصاد؟

ج: الأصل أنها تؤدي يوم الحصاد؛ إلا إذا تعذر ذلك لعدم استطاعة إيصالها أو لعدم وجود مستحقيها، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

س: هل يلزم حلول الحول على الثمار حتى تزكي؟

ج: لا يلزم حلول الحول على الثمار حتى تزكي؛ فالله يقول: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالا كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.

س: وضح معنى الإسراف الذي نهينا عنه في الآية الكريمة؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بالإسراف هنا مجاوزة الحد في الإعطاء بما يضر بصاحب المال، أي: أن الشخص يخرج كثيرا بدرجةٍ تضره وتذهب بماله، ولهذا المعنى شواهد عدة من كتاب الله ﷻ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

الثاني: أن المراد بالإسراف: الإسراف على النفس، وذلك بمنع الصدقة ومنع الحق الذي أوجبه الله ﷻ عن أهله ومستحقيه.

الثالث: أن الأمر في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ موجه للسلطان الذي يأخذ الصدقات، نهي هذا السلطان عن أخذ شيءٍ من مال الناس بغير حق، فلا يأخذ إلا القدر المأذون له في أخذه شرعا.

هذا، والظاهر من هذه الأقوال أولها؛ وذلك لأن الخطاب موجه لأرباب البساتين والثمار والنخل والزرع و...، فأمرهم الله أن يؤتوا الحق الذي عليهم ونهاهم عن الإسراف، فبعيد أن نقول: إنه موجه للسلطان، ثم إن المعنى الأشهر للإسراف: هو إخراج قدر زائدٍ يجحف بالمال، فلا نعدل عن المعنى الأشهر إلي ما دونه إلا بدليل، والله أعلم.

هذا، وقد ذهب الطبري إلى القول بالعموم- عموم معاني الإسراف- إذ قال:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾، عن جميع معاني«الإسراف»، ولم يخصص منها معنى دون معنى.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان «الإسراف» في كلام العرب: الإخطاء بإصابة الحق في العطية، إما بتجاوز حده في الزيادة، وإما بتقصير عن حده الواجب كان معلوما أن المفرق ماله مباراة، والباذله للناس حتى أجحفت به عطيته، مسرف بتجاوزه حد الله إلى ما [ليس له] . وكذلك المقصر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سهمان الصدقة إذا وجبت فيه، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه. كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون، داخلون في معنى من أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾، في عطيتكم من أموالكم ما يجحف بكم= إذ كان ما قبله من الكلام أمرا من الله بإيتاء الواجب فيه أهله يوم حصاده. فإن الآية قد كانت تنزل على رسول الله ﷺ بسبب خاص من الأمور، والحكم بها على العام، بل عامة آي القرآن كذلك. فكذلك قوله:﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

ومن الدليل على صحة ما قلنا من معنى «الإسراف» أنه على ما قلنا، قول الشاعر:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم من ولا سرف

يعني بـ«السرف»: الخطأ في العطية.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلا يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أوغرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه.

وقال السمعاني في «تفسيره»:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: لا تنفقوا الأموال في معصية الله، وكل من أنفق في معصية فهو مسرف، وقيل: هو إعطاء الكل، وذلك أن يعمد الرجل إلى جميع زرعه ونخله فيعطي الكل، ويترك عياله عالة. وروى: « أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة كانت له، فأعطى الكل؛ فنزلت الآية ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وأورد ابن الجوزي أقوالا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ حاصلها ما يلي:

الأول: أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حد يجحف به.

الثاني: أن الإسراف: يمنع الصدقة الواجبة.

الثالث: أنه الإنفاق في المعصية.

الرابع: أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام.

والخامس: أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة.

والسادس: أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة.

س: الاقتصاد في الإنفاق أمرنا الله به في جملة آيات، اذكر بعضها؟

ج: من هذه الآيات ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ

ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا) [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

قوله تعالى: (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ) [الأعراف: ٣١].

قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا). [الفرقان: ٦٧]

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)؟

ج: المعنى –والله أعلم–: كلوا يا أهل الإيمان من رزق الله ﷻ الذي رزقكم إياه من الزروع والثمار والحرث والأنعام، ولا تطيعوا الشيطان فيما حرم عليكم فقد أبان لكم الشيطان عن عداوته لكم ولأبيكم من قبلكم وذلك بالكيد الذ يكاده لأبيكم آدم عليه السلام حتى أخرجه وزوجه من الجنة، وبالكيد المستمر الذي يكيده لكم الآن لإغوائكم وإضلالكم، وحرمانكم من الحلال الطيب بما يلقيه على أوليائه لجدالكم وصرفكم عن دينكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه: كلوا مما رزقكم الله، أيها المؤمنون، فأحل لكم ثمرات حروثكم وغروسكم، ولحوم أنعامكم، إذ حرم بعض ذلك على أنفسهم المشركون بالله، فجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا وللشيطان مثله، فقالوا:(هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا)، (وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ) ، كما اتبعها باحرو البحيرة، ومسيبو السوائب، فتحرموا على أنفسكم من طيب رزق الله الذي رزقكم ما حرموه، فتطيعوا بذلك الشيطان، وتعصوا به الرحمن.

وقال رحمه الله:

إن الشيطان لكم عدو يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم(مُّبِينٌ)، قد أبان لكم عدواته، بمناصبته أباكم بالعداوة، حتى أخرجه من الجنة بكيده، وخدعه حسدا منه له، وبغيا عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله، وجعلها رزقا لكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرائقه وأومره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي: من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أي: عن الشيطان أيها الناس لكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] الآية، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

|

س: ما الأزواج الثمانية؟

ج: الأزواج الثمانية: هي المذكورة في الآيات الكريمات:

(مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ): وهما الكبش والنعجة.

(وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ): وهما الجدي والعنز.

(وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ): وهما الجمل والناقة.

(وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ) وهما الثور والبقرة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ فذلك أربعة؛ لأن كل واحد من الاثنين من الضأن زوج، فالأنثى منه زوج الذكر، والذكر منه زوج الأنثى، وكذلك ذلك من المعز ومن سائر الحيوان.

فلذلك قال جل ثناؤه: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)، كما قال: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) [الذاريات: ٤٩]؛ لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإن كانا اثنين فهما زوجان، كما قال جل ثناؤه: (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) [الأحزاب: ٣٧].

س: لماذا أطلق عليهم ثمانية أزواج، والمذكور أربعة؟

ج: لأن كل صنف من الأصناف الأربعة فيه ذكر وأنثى، والذكر يقال عنه: زوج للأنثى، فهو زوج، والأنثى يقال عنها: زوج للذكر، فهي زوج أيضا فالجمل زوج للناقة، والناقة زوج للجمل فهذان إذا زوجان، وكذا البقر والغنم والمعز.

س: وضح معنى الآية الكريمة ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم–: أنزل الله لكم ثمانية أصناف (الكبش والنعجة، والجدي والعنز، والجمل والناقةن والثور والبقرة).

أو ومن الأنعام حمولة وفرشا، وهي ثمانية أزواج.

أما قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحل الله، قل لهم: ماذا حرم الله؟ أحرم الله الكبش والجدي؟!! فإذا كان حرمهما فلماذا تأكلون لحومهما وتستمتعون بأصوافهما وجلودهما؟ أم أن الله حرم النعجة والعنز؟!! فلماذا أيضا تأكلون منهما وتستمتعون بأصوافهما؟!!

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم أن الذي حرمه الله هو الأجنة في البطون، فلماذا إذن تأكلون من الأجنة؟!!

فلن يجدوا جوابا على ذلك، فأقوالهم في كل ذلك متضاربة متناقضه، ومن ثم قل لهم: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوني بدليل يظهر أن الله حرم هذا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم: أنها محرمة.

قال السمعاني في «تفسيره»:

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هـذا في تحريمهم الوصيلة والبحيرة ونحوها، والآية في الاحتجاج عليهم، ومعنى هذا: أن الذي تدعون على الله من تحريمها إن كان بسبب الذكورة، فينبغي أن تحرم كل الذكور، وإن كان التحريم بسبب الأنوثة؛ فينبغي أن تحرم كل الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم كل ما اشتملت عليه الرحم، فأما تخصيص

التحريم بالولد السابع والخامس فمن أين؟ ! ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ أخبروني بعلم (إن كان لكم به علم) ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله، وذكر الرازي وجهين آخرين في معنى هذه الآية ونسبهما إلى نفسه فقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار، يعني أنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

والوجه الثاني أنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام مخصوصا بالإبل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة، وهي الضأن والمعز والبقر والإبل، فلم لم تحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة انتهى؟.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: قل يا رسول الله لأهل الشرك الذين حرموا ما أحل الله ﷻ وافتروا الكذب على الله، قل لهم: من أين أتاكم تحريم ما قد حرمتموه على أنفسكم وعلى غيركم، أجاءكم رسول من عند ربكم يتلو علكيم، وكان فيما تلى أن هذه الأشياء محرمة؟؟!! أم هل رأيتم ربكم ﷻ وشاهدتموه بأعينكم فأخبركم أنه حرم هذه الأشياء أم من أين أتاكم التحريم ؟!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾، فإنه أمر من الله جل ثناؤه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قص قصصهم في هذه الآيات التي مضت.

يقول له عز ذكره: قل لهم، يا محمد، أي هذه سألتكم عن تحريمه حرم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك،

فقل لهم: أخبرا قلتم: «إن الله حرم هذا عليكم»، أخبركم به رسول عن ربكم، أم شهدتم ربكم فرأيتموه فوصاكم بهذا الذي تقولون وتزورون على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من إخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يعلم إلا بوحي من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أن الله حرم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم، فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك، وقال لكم: «حرمت ذلك عليكم»، فسمعتم تحريمه منه، وعهده إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحد من هذين الأمرين.

يقول جل ثناؤه: (فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا)، يقول: فمن أشد ظلمًا لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرص على الله قيل الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، وتحليل ما لم يحلل (لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ)، يقول: ليصدهم عن سبيله (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)، يقول: لا يوفق الله للرشد من افترى على الله وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، كفرا بالله، وجحودا لنبوة نبيه محمد ﷺ، وهذا تقريع من الله جل ثناؤه العادلين به الأوثان من عبدة الأصنام، الذين بحروا البحائر، وسيبوا السوائب، ووصلوا الوصائل= وتعليم منه نبيه ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حرموا من ذلك.

فقال للمؤمنين به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، ومن الأنعام أنشأ حمولة وفرشا. ثم بين جل ثناؤه«الحمولة» و«الفرش»، فقال: «ثمانية أزواج».

وإنما نصب«الثمانية»، لأنها ترجمة عن«الحمولة» و«الفرش»، وبدل منها. كأن معنى الكلام: ومن الأنعام أنشأ ثمانية أزواج= فلما قدم قبل«الثمانية»«الحمولة» و«الفرش» بين ذلك بعد فقال: (ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ) ، على ذلك المعنى.

وقال أيضا:

ثم قال لهم: كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار واللحوم، واركبوا هذه الحمولة، أيها المؤمنون، فلا تتبعوا خطوات الشيطان في تحريم ما حرم هؤلاء الجهلة بغير أمري إياهم بذلك.

= قل، يا محمد، لهؤلاء الذين حرموا ما حرموا من الحرث والأنعام اتباعا للشيطان، من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حرم عليهم ما هم محرمون من ذلك=: آلذكرين حرم ربكم، أيها الكذبة على الله، من الضأن والمعز؟ فإنهم إن ادعوا ذلك وأقروا به، كذبوا أنفسهم وأبانوا جهلهم. لأنهم إذا قالوا: «يحرم الذكرين من ذلك»، أوجبوا تحريم كل ذكرين من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم الذكران منها وظهورها. وفي ذلك فساد دعواهم وتكذيب قولهم (أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ)، فإنهم إن قالوا: «حرم ربنا الأنثيين»، أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز على أنفسهم وظهورها.

وفي ذلك أيضًا تكذيب لهم، ودحض دعواهم أن ربهم حرم ذلك عليهم، إذ كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره (أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ)، يقول: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضأن وأنثى المعز، فلذلك قال:(أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ)، وفي ذلك أيضا لو أقروا به فقالوا:(أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ)، بطول قولهم وبيان كذبهم، لأنهم كانوا يقرون بإقرارهم بذلك أن الله حرم عليهم ذكور الضأن والمعز وإناثها، أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها.

و«ما» التي في قوله: (أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ) ، نصب عطفا بها على (ٱلْأُنثَيَيْنِ).

(نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ) ، يقول: قل لهم: خبروني بعلم ذلك على صحته: أي ذلك حرم ربكم عليكم، وكيف حرم؟ (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)، فيما تنحلونه ربكم من دعواكم، وتضيفونه إليه من تحريمكم.

وإنما هذا إعلام من الله جل ثناؤه نبيه أن كل ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله، فهو كذب على الله، وأنه لم يحرم شيئا من ذلك، وأنهم إنما اتبعوا في ذلك خطوات الشيطان، وخالفوا أمره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها

أجزاء وأنواعا: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاما، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنمٍ وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبلٍ ذكورها وإناثها، وبقرٍ كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولاده. بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلا وركوبا، وحمولة، وحلبا، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقال أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ أي: لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بن لحي بن قمعة، فإنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

|

س: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧] كيف وقد هدى الله ﷻ عددا من أهل الظلم؟

ج: لأهل العلم في ذلك جوابان:

أحدهما: أن المراد بالظالمين هنا: الظالمون الذين سبق في علم الله ﷻ أنهم سيموتون على الكفر، وقد كتبت عليهم الشقاوة.

الثاني: أن الله لا يهديهم ما داموا قائمين على ظلمهم، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً ...﴾؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا عبده ورسوله محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُل﴾ لهؤلاء

الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ أي: آكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئا مما حرمتم حراما سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجِدُ من الحيوانات شيئا حراما سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعا لمفهوم هذه الآية.

ومن الناس من يسمي ذلك نسخًا، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخا؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحا، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره، إلا شرع الله -دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو: أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في

الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها محكمة. ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ.

والثاني: أنها جاءت جوابا عن سؤال سألوه فكان الجواب بقدر السؤال، ثم حرم بعد ذلك ما حرم.

والثالث: أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذكر فيها.

والقول الثاني: أنها منسوخة بما ذكر في (المائدة) من المنخنقة والموقوذة، وفي السنة من تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير.

وقيل: إن آية (المائدة) داخلة في هذه الآية، لأن تلك الأشياء كلها ميتة.

س: هل من الدماء شيء حلال تناوله؟

ج: نعم، هناك من الدماء ما هو حلال تناوله كالدم المتبقي مع اللحم بعد الذبح، والدم الذي في العروق، وكذا فهنالك الكبد والطحال، فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: أحلت لنا ميتتان ودمان؛ أما الدمان: فالكبد الطحال، وأما الميتتان: فالسمك والجرد.

س: هل يلزم إزالة أثر الدم الذي على اللحم بعد الذبح، وكذا الدم الذي في العروق؟

ج: لا يلزم إزالة ذلك الدم، وكذا لا يتتبع الدم الذي في العروق لإزالته، لأن الله عز وجل إنما حرم الدم المسفوح، وهو: المنصب المهراق.

ومن ثم فقد روي عن عددٍ من أهل العلم أنهم قالوا لولا هذه الآية ﴿أَوۡ دَمٗا

مَّسْفُوحًا) لتتبع المسلمون عروق اللحم كما تتبعها اليهود.

س: قوله تعالى: (فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ) عائد على ماذا؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك عائد على: الخنزير؛ لأنه أقرب مذكور، وقال آخرون: إنه عائد على لحم الخنزير، وأيما كان فالمؤدي واحد فإذا كان اللحم رجسا وهو أعظم ما ينتفع به- عند من ينتفعون به- فغيره من باب أولى كالشحم ونحوه، والله أعلم.

س: ما المراد بقوله تعالى: (فِسۡقًا)؟

ج: المراد: الذبائح التي ذبحت على غير اسم الله، فهذا الصنيع يعد فسقا، فقد قال تعالى: (وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ ....) [الأنعام: ١٢١].

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)

ج: المعنى –والله أعلم-: فمن ألجأته الضروره إلى الأكل مما سبق ذكره، وأنه محرم من الميتة والدم ولحم الخنزير، فأكل من ذلك ليس تلذذا بل اضطرارا، وكذا أكل القدر الذي ينقذه من التهلكه فإن ربك غفور رحيم له، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في تأويل قوله: (فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ) والصواب من القول فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، وأن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير، أو ما أهل لغير الله به، غير باغٍ في أكله إياه تلذذا، لا لضرورة حالةٍ من الجوع، ولا عادٍ في أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه، فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك. (غَفُورٞ) فيما فعل من ذلك، فساتر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه. (رَّحِيمٞ) بإباحته إياه أكل

ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ....﴾ الآية؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: قل لهؤلاء المعرضين عن الإيمان، الذين يحرمون ما أحله الله، ويحلون ما حرم الله، قل لهم: إنني لا أجد في الوحي الذي أوحاه الله إلي والقرآن الذي أنزله الله علي شيئا محرما مما ذكرتموه، إنما الذي وجدته محرما ما كان ميتة أو دما منصبا مهراقا أو لحم خنزير فإنه رجس –أي: نجس– وكذا فيما وجدته محرما علي ما كان فسقا أهل لغير الله به، أي: ذكر عليه اسم غير اسم الله ﷻ عند الذبح.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله = والقائلين هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم= والمحرمين من أنعام أخر ظهورها= والتاركين ذكر اسم الله على أخر منها= والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم، ومحليه لذكورهم، المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله، وإضافة منهم ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرمه عليهم=: أجاءكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم= فإني لا أجد فيما أوحي إلي من كتابه وآي تنزيله، شيئا محرما على آكل يأكله مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها بزعمكم ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، قد ماتت بغير تذكية ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾، وهو المنصب = أو إلا أن يكون لحم خنزير ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾ ، يقول: أو إلا أن يكون فسقا، يعني بذلك: أو إلا أن يكون مذبوحا ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فذكر عليه اسم وثنه، فإن ذلك الذبح فسق نهى الله عنه وحرمه، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك، لأنه ميتة.

وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرمه الله، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال قد أحله الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله.

س: هل هناك اطعمة محرمة غير المذكورة في الآية الكريمة؟ وما هذه الأطعمة؟

ج: نعم، هناك أطعمة حرمت بسنة رسول الله ﷺ؛ فقد حرم النبي ﷺ لحوم الحمر الإنسية(١)، وكذا حرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير(٢)، وغير ذلك.

س: حرمت على بني إسرائيل جملة من الطيبات بسبب ذنوبهم ومعاصيهم وتعاليهم على العباد وظلمهم، دلل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

---

(١) البخاري (٤٢١٦)، ومسلم (١٤٠٧).

(٢) مسلم (١٩٣٤) من حديث ابن عباس مرفوعًا.

والبخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢) ببعضه من حديث أبي ثعلبة الخشني، ولفظه، نهى النبي ﷺ عن كل ذي مخلب من السباع.

س: ما الشحوم التي حرمها الله ﷻ على اليهود؟

ج: المراد –والله أعلم-: كل الدهون ما عدا الدهون التي استثناها الله ﷻ، والذي استثناه الله ﷻ: هو الدهن الذي جملته الظهر أو الدهون التي حملتها الحوايا، وهي المباعر والتي منها الأمعاء، وكذا أحللنا لهم الشحوم (الدهون) المختلطة بالعظام وقد ألحق بعض العلماء شحم الألية والجنب بالمختلط بالعظم وألحقه بعضهم بالذي حملته الظهور، فالله أعلم.

وعلى ذلك فالشحوم التي في الكرش كانت محرمة على اليهود.

س: ما المراد بالذي حملته الظهور؟

ج: قال الطبري خ : المراد: شحوم الجنب وما علق بالظهر فإنها لم تحرم عليهم.

س: ما المراد بالحوايا؟

ج: قال الطبري رحمه الله:

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع، واحدها «حاوياء»، و«حاوية»، و«حوية»، وهي: ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي: بنات اللبن، وهي: «المباعر»، وتسمى: «المرايض»، وفيها الأمعاء.

س: وضح معنى قوله تعالى: (ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- أن هذه الأشياء التي ذكر الله ﷻ أنه حرمها على بني إسرائيل (كالمذكور في قوله تعالى: (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ) يعني: الإبل والنعام والبط وغيرها مما لم يكن مشقوق القدمين، وكذا الشحوم المذكورة صفتها...) إنما حرمها الله ﷻ عليهم بسبب البغي والظلم كما قال سبحانه: (ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ).

وكما قال تعالى: (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ)[النساء:١٦٠،١٦١]

وليس التحريم كما زعم اليهود فنذر من يعقوب: (الذي هو إسرائيل) عليه السلام؛ وذلك لأن اليهود لم قيل لهم: حرمت عليكم هذه الأشياء لظلمكم وبغيكم ،....، قالو: لا، إنما ذلك محرم في شريعة يعقوب (الذي هو إسرائيل) عليه السلام فهو محرم كشريعة، ليس محرما بسبب الذنوبن فكذبهم الله في قيلهم هذا، وقال: (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) [آل عمران: ٩٣].

وكذبهم الله أيضًا بقوله:(ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)أي:وإنا لصادقون فيما أخبرنا به من أسباب التحريم، وإنا لصادقون في كل ما نقول ومن خالفنا فهو الكاذب.

وصدق الله وهو أصدق القائلين ومن أصدق من الله قيلا؟!! ومن أصدق من الله حديثا؟!!

قال الطبري خ في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: فهذا الذي حرمنا على الذين هادوا من الأنعام والطير، ذوات الأظافير غير المنفرجة، ومن البقر والغنم، ما حرمنا عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حرمناه.

وقال أيضًا:

وقوله: (وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنا حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه.

|

س: وما وجه العقوبة في تحريم بعض الأشياء على بني إسرائيل؟

ج: وجهها-والله أعلم-: أنهم إذا حرمت عليهم أشياء وفعلوا ما حرمه الله عليهم فقد استوجبوا بذلك عقابا وغضبا من ربهم ﷻ، ومن ثم تحل عليهم العقوبات لأسباب منها: اقترافها المآثم وفعلهم ما حرم الله ﷻ عليهم.

فلذلك -على سبيل المثال- لما حرم عليهم الصيد يوم السبت واحتالوا

واصطادوا عوقبوا بأن جعل منهم القدرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

ولذا فإن نبينا محمد ﷺ قد قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»(١) فما وجه المشقة؟

وجهها: أنه إذا أمرهم بالسواك عند كل صلاة ثم لم يستاكوا لعذبهم الله ﷻ، ولأنزل بهم العقوبة لمخالفتهم أمر نبيهم ﷺ، والله أعلم.

س: كانت العقوبات على بني إسرائيل تتمثل في أمور منها: تحريم الطيبات عليهم، وقطعا فإن هذا لا يتأتى الآن في شأن أمةٍ كأمة محمد ﷺ بل ولا في غيرها من الأمم؛ لأن الدين قد كمل ببعثة النبي ﷺ إذ الله قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] فلم يعد هناك نوع من العقوبات يتمثل في تحريم الحلال، فما صورة العقوبات التي يمكن إنزالها الآن؟

ج: العقوبات الآن للمخالفين تتمثل في أمور منها: زوال النعم عن العباد وحلول النقم بهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣] إلى غير ذلك من العقوبات، وقد تدخر العقوبات للآخرة وذلك أشد وأنكى، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؟

ج: معنى ذلك -والله أعلم-: فإن كذبك هؤلاء اليهود يا محمد فيما أخبرتهم به عما أحل الله لهم وما حرم فقل لهم: ربكم- وإن كذبتموني- رحيم بي وبمن آمن بي، وكذا هو رحيم بكم إذا لم يعاجلكم بالعقوبة بل فتح لكم باب التوبة، ولكن إذا تماديتم على غيكم وضلالكم فعذاب الله حال بكم ونقمته نازلة عليكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فإن كذبك، يا محمد، هؤلاء اليهود فيما أخبرناك

(١) البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

أنا حرمنا عليهم وحللنا لهم، كما بينا في هذه الآية(فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ)، بنا، وبمن كان به مؤمنا من عباده، ويغيرهم من خلقه (وَٰسِعَةٍ)، تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ولكن بأسه= وذلك سطوته وعذابه لا يرده إذا أحله عند غضبه على المجرمين بهم عنهم شيء = و«المجرمون» هم الذين أجرموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: فإن كذبك -يا محمد -مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: (فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ) وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ) ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنعام: ١٦٥]، وقال (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) [الرعد: ٦]، وقال تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: (غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ) [غافر: ٣]، وقال (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ) [البروج: ١٢ -١٤]، والآيات في هذا كثيرة جدا.

س: وضح معنى قوله تعالى: (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ...)؟

ج: الظاهر: أن المعنى -والله تعالى أعلم-: أن أهل الشرك قالوا مجادلين لرسولنا محمد ﷺ: عن الله رضي منا عبادة الأوثان والأصنام، ورضي منا تحليل ما أحللناه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وتحريم ما حرمناه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، و لو أراد غير ذلك منا لمنعنا منه فكذبهم الله ﷻ في قولهم: إن الله قد رضي منهم عبادة الأوثان والأصنام وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فالله لا يرضى بذلك من عباده وهم في قبلهم هذا وافتراءهم هذا وتكذيبهم

الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله ﷻ قد سلكوا ملك من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلها المعاندة المجادلة لهم، فاستمر بهم تكذيبهم إلى أن حل بهم بأس ربهم ونزلت بهم نقمته ولحق بهم عذاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ) وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريشٍ: (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) يقول: قالوا احتجازا من الإذعان للحق بالباطل من الحجة لما تبين لهم الحق، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم وتحريمهم ما كانوا يحرمون من الحروث والأنعام، على ما قد بين تعالى ذكره في الآيات الماضية قبل ذلك: (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا) وما بعد ذلك: لو أراد الله منا الإيمان به وإفراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكا، ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا ما نحرمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون، لأنه قادر على أن يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فعل شيءٍ من ذلك سبيل، إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به وإلى القول بتحليل ما حرمنا، وإما بأن يلطف بنا بتوفيقه فنصير إلى الإقرار بوحدانيته وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام، وإلى تحليل ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرم من الحروث والأنعام، فلم يحل بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك.

قال الله مكذبًا لهم في قيلهم: إن الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك وتحريم ما نحرم، ورادا عليهم باطل ما احتجوا به من حجتهم في ذلك: (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) يقول: كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد ما جئتهم به من الحق والبيان، كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طغوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله وواضح حججه، وردوا عليهم نصائحهم. (حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا) يقول: حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعطبوا بذوقهم إياه، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة، يقول: وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم إن هم لم ينيبوا

فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: وما برهانك على أن الله تعالى إنما كذب من قيل هؤلاء المشركين قولهم: «رضي الله منا عبادة الأوثان، وارأد منا تحريم ما حرمنا من الحروث والأنعام»، دون أن يكون تكذيبه إياهم كان على قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، وعلى وصفهم إياه بأنه قد شاء شركهم وشرك آبائهم، وتحريمهم ما كانوا يحرمون؟

قيل له: الدلالة على ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم سلكوا في تكذيبهم نبيهم محمدا ﷺ فيما آتاهم به من عند الله = من النهي عن عبادة شيء غير الله تعالى ذكره، وتحريم غير ما حرم الله في كتابه وعلى لسان رسوله = مسلك أسلافهم من الأمم الخالية المكذبة الله ورسوله. والتكذيب منهم إنما كان لمكذب، ولو كان ذلك خبرا من الله عن كذبهم في قيلهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، لقال:﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، بتخفيف «الذال»، وكان ينسبهم في قيلهم ذلك إلى الكذب على الله، لا إلى التكذيب مع علل كثيرة يطول بذكرها الكتاب، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبثت بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ كما في قوله ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وكذلك التي في «النحل» مثل هذه سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾ أي: بأن الله [تعالى] راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه

وتبرزوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: إذا لزمتهم الحجة، وتيقنوا باطل ما هم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله لو شاء الله ما أشركنا، فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل فكأنهم قالوا: لو لم يرض ما نحن عليه، لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفيكم: إنهم ضالون، وإنما هم على المشيئة أيضا؟

فلا حجة لهم، لأنهم تعلقوا بالمشيئة، وتركوا الأمر، ومشيئة الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعم مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر، وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الذين زعموا أن الله ﷻ رضي منهم الشرك الذي هم عليه ورضي منهم تحليل ما حرم عليهم وتحريم ما أحل لهم، قل لهم: هل عندكم علم بأن الله ﷻ ضي بذلك فلتظهروا لنا هذا العلم، أوحي أوحاه الله إليكم؟! أم أنزل ذلك على لسان رسولٍ قبلي؟!! أم ماذا؟

كلا، فما حدث شيء من ذلك ولكنكم ما تتبعون حقا، إنما تتبعون الظنون الباطلة والأماني الخادعة وما أنتم بصادقين في قيلكم فما أنتم إلا تتقولون الباطل على الله ﷻ وتفترون الكذب عليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام المحرمين ما هم له محرمون من الحروث والأنعام، القائلين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، ولكن رضي منا ما نحن عليه من الشرك

وتحريم ما نحرم: ﴿هَلۡ عِندَكُم﴾ بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون، علم يقين من خبر من يقطع خبره العذر، أو حجةٍ توجب لنا اليقين من العلم، ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾؟ يقول: فتظهروا ذلك لنا وتبينوه، كما بينا لكم مواضع خطأ قولكم وفعلكم، وتناقض ذلك واستحالته في المعقول والمسموع. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يقول له: قل لهم: إن تقولون ما تقولون أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون، وتحرمون من الحروث والأنعام ما تحرمون إلا ظنا وحسبانا أنه حق، وأنكم على حق وهو باطل، وأنتم على باطلٍ. ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ يقول: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ﴾ وما أنتم في ذلك كله ﴿إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾، يقول: إلا تتقولون الباطل على الله ظنا بغير يقينٍ علمٍ ولا برهانٍ واضحٍ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم–: قل يا رسول الله لهؤلاء الذين عجزوا عن الإتيان بعلمٍ يثبت لهم صحة ما قالوه وتقولوه على الله، قل لهم: إن الحجة البالغة إنما هي لله على خلقه فقوله سبحانه غالب لقول الأقوال وقاطع لكل الأعذار، ولكنه سبحانه أراد لكم الزيغ ولو شاء لهداكم ووفقكم لقبول الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين على ربهم الكذب، في تحريمهم ما حرموا من الحروث والأنعام، إن عجزوا عن إقامة الحجة عند قيلك لهم: ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ بما تدعون على ربكم ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾، وعن إخراج علم ذلك لك وإظهاره، وهم لا شك عن ذلك عجزة، وعن إظهاره مقصرون، لأنه باطل لا حقيقة له ﴿فَلِلَّهِ﴾، الذي حرم عليكم أن تشركوا به شيئا، وأن تتبعوا خطوات الشيطان في أموالكم من الحروث والأنعام ﴿ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾، دونكم أيها المشركون. ويعني بـ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على من احتج بها عليه من خلقه، وقطع عذره إذا انتهت إليه فيما جعلت حجة فيه.

﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، يقول: فلو شاء ربكم لوفقكم أجمعين للإجماع على

إفراده بالعبادة، والبراءة من الأنداد والآلهة، والدينونة بتحريم ما حرم الله وتحليل ما حلله الله، وترك اتباع خطوات الشيطان، وغير ذلك من طاعاته، ولكنه لم يشأ ذلك، فخالف بين خلقه فيما شاء منهم، فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول [تعالى] لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم -يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

قال الضحاك: لا حجة لأحدٍ عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء الذين تخاصمهم ويجادلونك من أهل الشرك والافتراء: هاتوا يا هؤلاء شهودكم الذين يشهدون لكم أن الله حرم ما تذكرونه من المحرمات كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، فإن أتوا بشهداء زور يشهدون لهم بذلك فلا تشهد معهم ولا تنساق وراء ما تمليه عليهم أهواؤهم وشياطينهم ولا تنخدع بآراء هؤلاء المكذبين بالآيات المنكرين للبعث والحساب والثواب والعقاب هؤلاء الذين جعلوا لله أندادا وأمثالا ونظراء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله لنبيه: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ يقول: يا محمد، فإن جاءوك بشهداء يشهدون أن الله حرم ما يزعمون أن الله حرمه عليهم. ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، فإنهم كذبة وشهود زورٍ في

شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جل ثناؤه نبيه ﷺ، والمراد به أصحابه والمؤمنون به. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقول: ولا تتابعهم على ما هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله في تحريم ما حرم وتحليل ما أحل لهم، ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يقول: ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة، فتكذب بما هم به مكذبون من إحياء الله خلقه بعد مماتهم، ونشره إياهم بعد فنائهم. ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعث بعد الممات، وجحودهم قيام الساعة بالله، يعدلون الأوثان والأصنام، فيجعلونها له عدلا، ويتخذونها له ندا يعبدونها من دونه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه، ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلا.

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهؤلاء المشركين: هاتوهم وأحضروهم.

قال السدي: أروني شهداءكم وهلم اسم فعل يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع عند أهل الحجاز وأهل نجد يقولون هلما هلمي هلموا فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ والأصل عند الخليل ها ضمت إليها لم.

وقال غيره أصلها هل زيدت عليه الميم، وفي كتاب العين للخليل أن أصلها هل أؤم أي هل أقصدك، ثم كثر استعمالهم لها، وهذا أيضا من باب التبكيت لهم حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرم تلك الأشياء مع علمه أنه لا شهود لهم

لتلزمهم الحجة، ويظهر ضلالهم، وأنه لا متمسك لهم سوى تقليدهم، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة إليهم الدالة على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم.

قَالَ تَعَالَى:
(قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ
وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ
وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا
تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ
حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ
نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ
ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا
صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن
سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ
مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ
أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ
لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ
مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ

سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ
يَصۡدِفُونَ ١٥٧ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ
رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا
يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ
إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ
دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ
ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ
عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ١٦٠ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا

(٣٥٢) أحمر
أسود

قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا
شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣ قُلْ أَغَيْرَ
ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا
عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ
ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ
ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ١٦٥)
[الأنعام: ١٥١-١٦٥].

الكلمة	معناها

(٣٥٣) أحمر
أسود

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾	أن تشركوا.
﴿إِمْلَٰقٍ﴾	فقر- جوع.
﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾	ما فحش من الأقوال والأعمال.
﴿مَا ظَهَرَ﴾	ما أُعلن.
﴿وَمَا بَطَنَ﴾	ما خفي.
﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾	إلا للأسباب التي أباح الله فيها القتل.
﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	إلا بالطريقة التي هي أفضل.
﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾	حتى يبلغ الحُلم (حتى يحتلم) والعقل والرشاد.
﴿وَأَوْفُوا۟﴾	أتموا- أعطوهم الحقوق تامةً.
﴿بِٱلْقِسْطِ﴾	بالعدل.
﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	لا نحمل نفسًا فوق طاقتها- لا نؤاخذ نفسًا بما لا تطيقه ولا تستطيعه.
﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾	تكلموا بالحق- احكموا بالحق.
﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾	من الأقارب والأرحام.
﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾	قوموا بأوامر الله ﷻ وانتهوا عما نهاكم عنه.
﴿تَذَكَّرُونَ﴾	تتذكرون عواقب الأمور فتنزجرون عمَّا أنتم فيه من الشرك والعصيان- تتعظون وتعتبرون.
﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾	طريقي الموصل إلى مرضاتي الذي لا اعوجاج فيه ولا ميل ولا انحراف، وهو: طريق الإسلام.
﴿ٱلسُّبُلَ﴾	الضلالات-الطرق-الملل الأخرى غير ملة الإسلام
	كثيرةٌ بركته- كثير خيره.
﴿مُبَارَكٌ﴾	اجعلوه إمامًا وقائدًا لكم تتبعونه وتعملون بما فيه –
﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾	امتثلوا أمره واجتنبوا نهيه وصدِّقوا أخباره.

الكلمة	معناها

(٣٥٤) أحمر
أسود

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	ليرحمكم ربكم فينجيكم من عذابه وأليم عقابه ويسكنكم فسيح جناته.
﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾	عن تلاوتهم- دراسة أخبارهم والاطلاع عليها- ما يتلونه من الكتب التي أنزل الله لهم.
﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾	حجة من ربكم واضحة ظاهرة-يحتج بها عليكم إذا أنكرتم
﴿وَصَدَفَ﴾	أعرض عنها.
﴿يَصْدِفُونَ﴾	يُعْرِضون.
﴿كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾	عملت أعمال برٍّ وهي مومنة- انتفعت بإيمانها.
﴿شِيَعًا﴾	فِرقًا- أحزابًا.
﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾	لا يبخسون شيئًا من حقوقهم.
﴿قِيَمًا﴾	مستقيمًا- قويمًا.
﴿حَنِيفًا﴾	مائلًا عن الشرك إلى التوحيد.
﴿وَنُسُكِي﴾	ذبحي، ومن النسك: الذبح (في الحج والعمرة)- وقيل: النسك العبادة.
﴿وَمَحْيَايَ﴾	حياتي.
﴿وَمَمَاتِي﴾	وفاتي.
﴿أَبْغِي﴾	أطلب.
﴿رَبًّا﴾	سيدًا- مُدبرًا يدبر أمري- معلمًا يصلح شأني- إلهًا.
﴿وَلَا تَكْسِبُ﴾	لا تجترح إثمًا إلا عليها.
﴿وَلَا تَزِرُ﴾	لا تحمل – لا تأثم.
﴿وَازِرَةٌ﴾	حاملةٌ- آثمةٌ.
﴿وِزْرَ﴾	حمل.
﴿خَلَٰٓئِفَ﴾	جمع خليفة- تخلفون غيركم – تأتون من بعدهم.
﴿غَفُورٌ﴾	ساتر ذنوب من ابتلى.

س: هل لهذه الآية: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...) نظائر في التوراة؟

ج: أخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب الأحبار رجلا يقرأ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ فقال: والذي نفس كعب بيده، إن هذا لأول شيء في التوراة: «بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: قل يا رسول الله لهؤلاء المفترين الذين كذبوا على الله وحرموا ما لم يحرمه الله ﷻ: يا هؤلاء تعالوا أقرأ عليكم من الكتاب المنزل على من عند الله ﷻ ما حرمه ربكم عليكم، أتل عليكم ذلك الحق، لا بالكذب ولا بالافتراء كما صنعتم أنتم وكما تقولتم بالباطل، ولكن اقرأه عليكم كما أنزل علي، إن الذي حرمه ربكم عليكم الشرك به.

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ معناه: أن تشركوا به شيئا، فمن العلماء من قال إن (لا) صلة لتقوية الكلام؛ كقوله تعالى:﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢].

ومنهم من قال: إن المعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، أتل أن لا تشركوا به شيئا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما «أن» في قوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، فرفع، لأن معنى الكلام: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، هو أن لا تشركوا به شيئا.

وإذا كان ذلك معناه، كان في قوله: (تشركوا)، وجهان:

الجزم بالنهي، وتوجيهه «لا» إلى معنى النهي.

والنصب، على توجيه الكلام إلى الخبر، ونصب ﴿تُشۡرِكُواْ﴾، بـ«أن لا»، كما يقال: «أمرتك أن لا تقوم».

وإن شئت جعلت «أن» في موضع نصبٍ، ردا على «ما» وبيانا عنها، ويكون في قوله:

(تشركوا) ، أيضا من وجهي الإعراب، نحو ما كان فيه منه. و«أن» في موضع رفع.

ويكون تأويل الكلام حينئذٍ: قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، أتل أن لا تشركوا به شيئا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما تفسيرها فيقول تعالى: لنبيه ورسوله محمدٍ ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم (قُلْ) لهم (تَعَالَوْا) أي هلموا وأقبلوا (أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ولا ظنا بل وحيا منه وأمرا من عنده (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) وكأن في الكلام محذوفا دل عليه السياق، وتقديره وأوصاكم (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) ولهذا قال في آخر الآية: (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال السمعاني في «تفسيره»:

قوله - تعالى -: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) لأنهم سألوه أيش الذي حرم الله - تعالى -؟ فنزل قوله - تعالى -: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) فإن قال قائل: الله - تعالى - ما حرم ترك الشرك بل أمر ربه، فما معنى قوله: (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)؟ .

فيه جوابان: أحدهما: أن قوله « لا » صلة، وتقديره : أن تشركوا؛ فعلى هذا استقام الكلام.

والثاني: أن قوله: (تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) كلام تام. (ثم) قوله: (عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا) ابتداء كلام. وإذا قدر هكذا استقام الكلام أيضا.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) «ما» بمعنى «الذي» .

وفي «لا» قولان:

أحدهما: أنها زائدة كقوله تعالى: ألا تسجد.

والثاني: أنها ليست زائدة، وإنما هي باقية فعلى هذا القول، في تقدير الكلام ثلاثة

أقوال:

أحدها: أن يكون قوله: «أن لا تشركوا» ، محمولا على المعنى فتقديره: أتل عليكم أن لا تشركوا، أي أتل تحريم الشرك.

والثاني: أن يكون المعنى: أوصيكم أن لا تشركوا، لأن قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ محمول على معنى: أوصيكم بالوالدين إحسانا، ذكرهما الزجاج.

والثالث: أن الكلام تم عند قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾. ثم في قوله: «عليكم» قولان:

أحدهما: أنها إغراء، كقوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فالتقدير: عليكم أن لا تشركوا، ذكره ابن الانباري.

والثاني: أن يكون بمعنى: فرض عليكم، ووجب عليكم أن لا تشركوا. وفي هذا الشرك قولان:

أحدهما: أنه ادعاء شريك مع الله ﷻ.

والثاني: أنه طاعة غيره في معصيته.

|

س: ما المراد بالشرك، وما حقيقته؟

ج: قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أويصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدا، مخلصا لله في جميع أحواله.

|

س: اذكر بعض الآيات المحذرة من الشرك؟

ج: الآيات الواردة في ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

قوله تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج: ٣١].

قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) [فصلت: ٦].

قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ....) فبدأ بالشرك.

قوله تعالى: (إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) [المائدة: ٧٢].

|

س: كثيرا ما يقرن الأمر بالإحسان للوالدين مع الأمر بعبادة الله ﷻ، وكذا يقرن النهي عن الشرك بالنهي عن العقوق، اذكر بعض أدلة ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: (۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا).

وقوله تعالى: (۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) [الإسراء: ٢٣].

ووصية لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٣، ١٤].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**، وكان متكئا فجلس فقال: **ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت.

وعند البخاري(٢) ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر-

(١) البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).
(٢) البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

أوسئل عن الكبائر – فقال: «**الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين**».

فقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قال: «**قول الزور، أو شهادة الزور**» قال شعبة: فأكثر ظني أنه قال: شهادة الزور.

فجاء العقوق –في ترتيب الجرائم– بعد الشرك بالله ﷻ، فكما أن بر الوالدين جاء بعد الأمر بالتوحيد، في أعمال البر، فكذلك ففي المقابل جاء النهي ن العقوق وبيان خطره بعد النهي عن الشرك. فسبحان الله، جاء العقوق قبل الزنا والقتل والعياذ بالله، وبلا شك فللعقوق مراتب ودركات.

س: في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ مقدر محذوف وضحه؟

ج: هذا المقدر هو وأوصى بالوالدين إحسانا، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ﴾؟

ج: **المعنى –الله أعلم–**: لا تقتلوا أولادكم بسبب فقرٍ ألم بكم، أو خشية فقرٍ تتوقعونه بسببهم؛ فإن الله هو رازقكم ورازقهم.

ولقد ذكر النبي ﷺ الكبائر فقال: «..**وأن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعودٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١). ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ

---

(١) البخاري (حديث٤٤٧٧)، ومسلم (حديث ٨٦).

ﭐلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا) [الفرقان:٦٨].

وقوله: (مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ) قال ابن عباسٍ، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: (وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ) [الإسراء:٣١]، أي: خشية حصول فقرٍ، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: (نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ) فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا قال: (نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ)؛ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

|

س: وضح المراد بالفواحش ما ظهر منها وما بطن؟

ج: الفواحش: ما فحش من الأقوال والأفعال، وقد تطلق على الزنا خاصة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد تطلق على نكاح امرأة الأب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢].

والمعنى إجمالًا: لا تقتربوا من الفواحش عموما ولا تفعلوها سواء الظاهر منها المعلن، أو المخفي منها الباطن، هذا، ومن العلماء من قال: إن ظاهر الفواحش: كان منه نكاح البغايا اللواتي يعلقن رايات على البيوت، والباطن: الزنا واتخاذ العشيقات.

وقيل المراد بظاهر الفواحش: الجمع بين الأختين في الزواج والباطن: الزنا، والله أعلم.

قال السمعاني في «تفسيره»:

(وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ) هذا نهي عن أنواع الزنا سرا وعلنا، وكانت الزواني في الجاهلية على نحوين: كانت لبعضهم رايات على الأبواب، علما لمن أراد الزنا؛ كن يزنين علنا، وأخريات كن يزنين سرا. فهذا المراد بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

س: اذكر بعض الأدلة الزاجرة عن الفواحش؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾ [النجم: ٣٢].

وفي الحديث: «أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»(١).

س: ما المراد بالنفس التي حرمها الله ﷻ؟

ج: المراد: النفس المسلمة، أو النفس الذمية المعاهدة.

س: ما المراد بالحق الذي به تقتل نفس مسلمة؟

ج: من ذلك ما ورد عن رسول الله؛ إذ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢).

وكذا منه ما ورد في شأن قطاع الطريق المفسدين في الأرض؛ إذ الله تعالى قد قال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

ومن ذلك أيضًا قتال الفئة الباغية، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

س: اذكر بعض الوارد في النهي عن قتل الذمي المعاهد؟

(١) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) البخاري (حديث ٦٨٧٨)، ومسلم (حديث ١٦٧٦).

ج: من ذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما»(١).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم- هذه الأمور التي تلوناها عليكم؛ إذ قلنا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ هي وصايا عظيمة، وصى بها الله عباده على العموم ليعملوا بها، وليعقلوا ما وصاكم ربهم به.

قال الطبري رحمه الله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصانا والكافرين بها أن نعمل جميعا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم.

س: اذكر بإيجاز بعض علامات البلوغ؟

ج: من ذلك ما يلي:

الاحتلام: وذلك لما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وأما الصبي فينقطع عنه اليتم إذا احتلم»(٢).

الإنبات: أي: إنبات شعر حول العانة؛ وذلك لأن سعد بن معاذ لما حكم -رضي الله عنه- في اليهود أن تقتل مقاتلتهم كانوا ينظرون إلى الصبي المشكوك في أمره إذا وجدوا شعرا قد نبت له حول فرجه (أي: شعر العانة) قتل، وإلا ترك.

الثالث: بلوغ الخامسة عشر؛ وذلك لأن ابن عمر رضي الله عنهما عرض على النبي ﷺ يوم أحد وعمره أربعة عشر عامًا فرده النبي ﷺ، وعرض عليه يوم الأحزاب وعمره خمسة عشر عامًا فقبله(٣) النبي ﷺ.

قال الشنقيطي خ في «أضواء البيان»:

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة: كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية،

---

(١) البخاري (٦٩١٤).
(٢) أحمد (١/٢٢٤ـ ٢٩٤ـ ٣٠٨).
(٣) البخاري (٤٠٩٧).

وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة.

|

س: اذكر بعض الآيات المحذرة من أكل أموال اليتامى ظلما؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ومن السبع الموبقات: كما ذكر رسول الله ﷺ: «**أكل مال اليتيم**»(١).

|

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؟

ج: المراد بذلك -والله تعالى أعلم-: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق، وذلك كاستثماره في شيءٍ حلال أو الإتجار به في تجارة حلال لصالح اليتيم.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إنما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلة مراعيه وضعف مالكه أقوى. وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

أربعة أقوال: أحدها: أنه أكل الوصي المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته، قاله ابن عباس، وابن زيد.

والثاني: التجارة فيه، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدي.

والثالث: أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه، قاله ابن السائب.

والرابع: أنه حفظه عليه، وتثميره له، قاله الزجاج. قال: و «حتى» محمولة على المعنى فالمعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، فاذا بلغ أشده، فادفعوه إليه.

(١) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

س: ما المراد ببلوغ الأشد؟

ج: قال بعض العلماء: المراد: بلوغ الحلم، وقال آخرون: بل المراد ببلوغ الأشد بلوغ الثلاثين عاما.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف. وذلك أن معنى الكلام: (وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ)، فإذا بلغ أشده فآنستم منه رشدا، فادفعوا إليه ماله لأنه جل ثناؤه لم ينه أن يقرب مال اليتيم في حال يتمه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، ليحل لوليه بعد بلوغه أشده أن يقربه بالتي هي أسوأ، ولكنه نهاهم أن يقربوه حياطة منه له، وحفظا عليه، ليسلموه إليه إذا بلغ أشده.

س: إذا بلغ اليتيم الحلم ولم يكن مع ذلك رشيدا، هل يدفع إليه المال؟

ج: ذهب إلى جواز إعطائه ماله في الحالة هذه فريق من العلماء؛ وذلك لقول الله تعالى: (حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ) فقالوا: إذا بلغ الأشد دفع إليه ماله، وأولوا الأشد بأنه بلوغ النكاح.

بينما ذهب آخرون من أهل العلم إلى أن: اليتيم لا يعطي المال، -وإن بلغ الأشد- إلا إذا آنسنا منه رشدا؛ وذلك قوله تعالى: (وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ...) [النساء: ٦].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ...)؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وأتموا يا من تبيعون سلعكم للناس المكاييل والموازين، فإذا كلتم للناس فأعطوهم حقوقهم كاملة مستوفاة بالعدل لا تبخسوهم شيئا منها، وكذا إذا وزنتم لهم فأتموا لهم حقوقهم.

س: لماذا عقب قوله تعالى: (وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ)؟

ج: في ذلك وجهان-والله تعالى أعلم-:

أحدها: أن الله أمر البائع بإيفاء الكيل والميزان بالعدل،ولم يأمره بأكثر من ذلك

فقد علم الله ﷻ أن نفوس بني آدم شحيحة فقد لا تطيب بإعطاء الشخص أكثر من حقه، فأمر الشخص بإيفاء الناس حقوقهم، ولم يؤمر بأكثر من ذلك.

وكذا المشتري قد علم الله أن نفسه لا تطيب بأن يأخذ أقل من حقه، فكان له حقه وليس عليه أن يأخذ أقل من حقه.

وهذا اختيار الطبري خ فقد قال:

وأما قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فإنه يقول: لا نكلف نفسا، من إيفاء الكيل والوزن، إلا ما يسعها فيحل لها ولا تحرج فيه.

وذلك أن الله جل ثناؤه، علم من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له، فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له، ولم يكلفه الزيادة، لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر الذي له الحق، بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما في النقصان عنه من ضيق نفسه.

فلم يكلف نفسا منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الوجه الثاني: أن البالغ قد يبالغ في تحري إقامة الكيل والميزان، ومع ذلك يشعر أنه قد أساء أو ظلم أو زاد أو نقص فيوسوس له شيطانه، ويوقعه في الحرج والعنت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ع: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وإذا قلتم قولا تقضون به بين الناس فقولوا الحق والعدل، ولو كان هذا القول ليس في صالح قراباتكم وأرحكم، أي ولو كان المقضي عليه بهذا القول قريب لكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل

للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا ووصاكم بها ربكم وأمركم بالعمل بها، لا بالبحائر والسوائب والوصائل والحام وقتل الأولاد ووأد البنات واتباع خطوات الشيطان. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين ووصاكم بها وعهد إليكم فيها، لتتذكروا عواقب أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها، لتتذكروا عواقب أمركم وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتنزجروا عنها وترتدعوا وتنيبوا إلى طاعة ربكم.

وقال السعدي في تفسيره: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ﴾ قولا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم. بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه. وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه.

|

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾؟

ج: المراد بذلك –والله تعالى أعلم–: جميع العهود التي أخذها الله ﷻ عليكم على لسانه نبيه ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: ذلكم الذي ذكرناكم به من هذه الأمور وتلك الوصايا إنما ذكرناكم بها لعلكم تتذكرون عقوبة ما أنتم عليه مقدمون من المعاصي

إذا أنتم خالفتم أوامرنا وخطأ ما أنتم عليه قائمون فتنزجرون عن فعل المعاصي وارتكاب الكبائر.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾؟

ج: معنى ذلك –والله أعلم–: وأن هذا الذي بينته لكم مما حرمته عليكم إن سرتم عليه فحرمتم ما حرمت عليكم وأحللتم ما أحللته لكم وابتعتم ما تلوته عليكم فقد سرتم على صراطي المستقيم فالزموا هذا الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى جنة الله ﷻ ويصرفكم عن ناره، ولا تسلكوا سبل أهل الزيغ والكفر والضلالات فتصدكم عن طريق الله وتصرفكم عن طريق جنته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وهذا الذي وصاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين الآيتين من قوله:﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾، وأمركم بالوفاء به، هو «صراطه» يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ، يعني: قويما لا اعوجاج به عن الحق ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ ، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجا تسلكونه، فاتبعوه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، يقول: ولا تسلكوا طريقا سواه، ولا تركبوا منهجا غيره، ولا تبغوا دينا خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، يقول: فيشتت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، يعني: عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم.

س: هل ورد عن رسول الله ﷺ حديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾؟

ج: نعم ورد في هذا ما أخرجه الإمام أحمد(١) في مسنده بسندٍ حسنٍ وكذا أخرجه غيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيما**»، قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: «**هذه السبل، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: ذلك الذي ذكرناه لكم ووصيناكم به إنما وصيناكم به لعلكمن تمتثلوه فتتقون النار وتتقون العذاب.

قال الطبري رحمه الله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله لكم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ركبم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه.

س: كثيرا ما يقرن بين القرآن الكريم والتوراة عند التذكير بهما أو ذكرهما، دلل على ذلك وبين سبب ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ...﴾ وهذا في القرآن الكريمن ثم قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ ...﴾ [الأنعام: ٩١] إلى قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾.

وقول الجن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ

(١) أحمد (١/ ٤٣٥) وفي سنده بعض الاختلاف، ولكنه يحسَّن لمجموع طرقه، وانظر: «المنتخب» لعبد الله بن حميد بتحقيقي رقم (١١٣٩).

يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ) [القصص: ٤٨].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ) عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: (ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ) وكثيرا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: (وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا) [الأحقاف:١٢]، وقوله [في] أول هذه السورة: (قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ) [الآية:٩١]، وبعدها (قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ) الآية [الأنعام:٩١]، وقال تعالى مخبرا عن المشركين: (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ) قال تعالى: (أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ) [القصص:٤٨]، وقال تعالى مخبرا عن الجن أنهم قالوا: (قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ) [الأحقاف:٣٠].

س: ما الكتاب الذي آتاه الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: الكتاب هو التوراة.

س: كيف قيل: (ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ)، بعد قوله تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ)، ومعلوم أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قبل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن المعنى ليس هو الذي ذهب إليه هذا الذاهب، ولكن المعنى: ثم قل لأمتك -بعد أن قلت لهم: (تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ) - قد آتى الله موسى الكتاب.....والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: (ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ)، ثم قل بعد ذلك يا محمد: آتى

ربك موسى الكتاب فترك ذكر «قل»، إذ كان قد تقدم في أول القصة ما يدل على أنه مراد فيها، وذلك قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فقص ما حرم عليهم وأحل، ثم قال: ثم قل: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا﴾، فحذف «قل» لدلالة قوله: «قل» عليه، وأنه مراد في الكلام.

وإنما قلنا: ذلك مراد في الكلام، لأن محمدًا ﷺ لا شك أنه بعث بعد موسى بدهر طويل، وأنه إنما أمر بتلاوة هذه الآيات على من أمر بتلاوتها عليه بعد مبعثه. ومعلوم أن موسى أوتي الكتاب من قبل أمر الله محمدا بتلاوة هذه الآيات على من أمر بتلاوتها عليه. و«ثم» في كلام العرب حرف يدل على أن ما بعده من الكلام والخبر، بعد الذي قبلها.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: ثم قل يا محمد- بعد أن قلت لأمتك: ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾-قل لهم أيضا: قد آتى ربك موسى عليه السلام التوراة إتماما لنعمنا عليه جزاء لإحسانه الذي أحسن.

وهناك معنى آخر ذكره بعض العلماء تفسيرا لقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: فضيلة منا تفضلنا بها على موسى عليه السلام جزاء لأتباعه المؤمنين به الذي أحسنوا، فآتينا موسى عليه السلام التوراة فضيلة منا عليه ثم هداية للذين أحسنوا يستنيرون بها ويهتدون.

وقال غيرهم: ثم آتينا موسى التوراة إظهارا منا لفضيلته على قومه كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أما الطبري رحمه الله فق قال:

فتأويل الكلام إذا: ثم أتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده وأيادينا قبله، تتم به كرامتنا عليه على إحسانه وطاعته ربه وقيامه بما كلفه من شرائع دينه، وتبيينا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم.

أما الحافظ ابن كثير خ فقد قال:

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملًا، جامعًا يحتاج إليه في شريعته، كقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال السعدي في «تفسيره»:

فأخبر أنه آتي: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ وهو: التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالا لإحسانه، ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى.

من جملتها وتمامها: إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: لعل بني إسرائيل - بعد إتياني موسى التوراة بما فيها من وعظٍ ونضح وإرشاد- يستضيئون بها ويوقنون بالبعث بعد الموت، فيقدموا أعمالا صالحة يلقون بها ربهم ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه يعني: إيتائي موسى الكتاب تماما لكرامة الله موسى، على إحسان موسى، وتفصيلا لشرائع دينه، وهدى لمن اتبعه، ورحمة لمن كان منهم ضالا لينجيه الله به من الضلالة، وليؤمن بلقاء ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيم من الكفر به، وبلقائه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدق بما جاءه به نبيه موسى ﷺ.

س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾: وما المراد بالطائفتين؟

ج: أما الكتاب فالمراد به: الكتابان: التوراة والإنجيل، والمراد بالطائفتين: اليهود (أنزلت التوراة على نبيهم موسى عليه السلام)، والنصارى (وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾؟

ج: قيل معناها: كراهة أن تقولوا.

وقيل معناها: أن لا تقولوا.

والمعنى على كل الأحوال: لكي لا تتعلوا بعلةٍ وتقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؟

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أننا أنزلنا هذا الكتاب المبارك على نبي الله محمد ﷺ يتلوه عليكم؛ لئلا تعتلوا يوم القيامة بالعلل؛ فتقولوا يوم القيامة معتذرين عن الإيمان، إنما أنزلت الكتب على الطوائف من قبلنا ولم تنزل علينا، أنزلت التوراة لليهود، وأنزل الإنجيل للنصارى ولم نكن على علم بتلاوتهم، ولا ندري ما هي ولا ما فيها فقطعا لمثل هذه الأعذار أنزلنا هذا الكتاب المبارك يتلوه عليكم رسول الله ﷺ، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد لئلا يقول المشركون: «لم ينزل علينا كتاب فنتبعه، ولم نؤمر ولم ننه، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر، إذ لم يأت من الله كتاب ولا رسول»، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا = فإنهما اليهود والنصارى، وكذلك قال أهل التأويل.

وقال أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما (وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ) ، فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن تلاوة الطائفتين الكتاب الذي أنزلت عليهم«غافلين»، لا ندري ما هي، ولا نعلم ما يقرؤون وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نعن به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة. فقطع الله بإنزاله القرآن على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك.

س: وضح معنى قوله تعالى: (أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ)؟

ج: المعنى –والله أعلم– أننا أنزلنا هذا الكتاب المبارك أيضا؛ لئلا تتعللوا بعدم نزوله عليكم وتبقوا على شرككم؛ فأنزلنا هذا الكتاب قطعا لأعذاركم، وحتى لا تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فها هو الكتاب قد أتاكم فاسلكوا سبل الهداية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ) أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: (وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا) [فاطر:٤٢]، وهكذا قال هاهنا: (فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ) يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمدٍ ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ)؟

ج: المعنى –الله أعلم–: فأي شخصٍ أظلم من شخصٍ كذب بآيات الله التي أنزلها على نبيه محمد ﷺ وأعرض عنها، فهؤلاء المكذبون المعرضون سيجزيهم الله أسوأ

صور العذاب، وأشد صنوف العذاب؛ بسبب إعراضهم الذي كانوا يعرضون وتكذيبهم الذي كانوا يكذبون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: فمن أخطأ فعلا وأشد عدوانا منكم، أيها المشركون، المكذبون بحجج الله وأدلته وهي آياته ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، يقول: وأعرض عنها بعد ما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدق بحقيقتها.

وأخرج جل ثناؤه الخبر بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، مخرج الخبر عن الغائب، والمعني به المخاطبون به من مشركي قريش.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، يقول: سيثيب الله الذين يعرضون عن آياته وحججه ولا يتدبرونها، ولا يتعرفون حقيقتها فيؤمنوا بما دلتهم عليه من توحيد الله، وحقيقة نبوة نبيه، وصدق ما جاءهم به من عند ربهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، يقول: شديد العقاب، وذلك عذاب النار التي أعدها الله لكفرة خلقه به ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾، يقول: يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يعرضون عن آياته في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: ماذا ينتظر هؤلاء المشركون عباد الصنم والوثن؟!، ماذا ينتظر هؤلاء المشركون عموما؟!

هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة بالعذاب عند قبض الأرواح؟! أو هل ينتظرون مجيء ربك يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

أو ماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون بعض المعجزات التي إذا جاءت لم تنفع نفس بإيمان حينئذٍ؛ وذلك كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك؟

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، بالموت فتقبض أرواحهم أو أن يأتيهم ربك، يا محمد، بين خلقه في موقف القيامة ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، يقول: أو أن يأتيهم بعض آيات ربك. وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوع الشمس من مغربها.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، قال: يصبحون والشمس والقمر من هاهنا من قبل المغرب، كالبعيرين القرينين = زاد ابن حميد في حديثه: «فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا»، وقال: «كالبعيرين المقترنين».

س: ما المراد بآيات ربك المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾؟

ج: من ذلك: طلوع الشمس من مغربها. بل نقل السمعاني الإجماع على ذلك(١)، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها**» ثم قرأ الآية(٢).

ونحوه في الصحيحين(٣) هو حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟**» قلت: لا أدري، قال: «**إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث، جئت، وذلك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ...﴾».

وذكر بعض العلماء أيضا من الآيات: الدابة، كما قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

ومن ذلك أيضًا- كما ذكر بعض أهل العلم – يأجوج ومأجوج.

---

(١) كما في تفسير أبي المظفر السمعاني، وفيه ضعف إلا في رواية شاذة عن معاذ بن جبل أنه: خروج الدجال وخروج يأجوج ومأجوج.

(٢) البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (٢٤٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٣) البخاري (٤٧٢٤)، ومسلم (١٥٩) بنحوه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا)؟

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: إن هؤلاء المشركين إذا أخروا الإيمان فلم يؤمنوا إلى أن أتتهم بعض المعجزات: كطلوع الشمس من مغربها فلن ينتفعوا حينئذٍ بإيمانٍ، وكذا الذين تركوا صالح الأعمال إلى أن تأتيهم العجزات كطلوع الشمس من مغربها لن ينتفعوا بعمل صالحٍ بعد طلوعها من مغربها، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا)، فإنه يعني: أو عملت في تصديقها بالله خيرا، من عمل صالح يصدق قيله ويحققه، من قبل طلوع الشمس من مغربها. لا ينفع كافرا لم يكن آمن بالله قبل طلوعها كذلك، إيمانه بالله إن آمن وصدق بالله ورسله، لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم، كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله، لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع من كان بالله وبرسله مصدقا، ولفرائض الله مضيعا، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها أعماله إن عمل، وكسبه إن اكتسب، لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ) [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى متوعدًا للكافرين به والمخالفين لرسوله والمكذبين آياته، والصادين عن سبيله: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ) وذلك كائن يوم القيامة (أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ) وذلك قبل يوم القيامة، كائن من أمارات الساعة وأراطها البخاري في تفسير هذه الآية.

وأورد حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين:** (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ)» (١).

وأورد جملة أحاديث أخر.

وقال أيضًا:

فقوله تعالى: (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ) أي: إذا أنشأ الكافر إيمانا يومئذٍ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنا قبل ذلك، فإن كان مصلحا في عمله فهو بخيرٍ عظيمٍ، وإن كان مخلطا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: (أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ) أي: ولا يقبل منها كسب عملٍ صالحٍ إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك.

س: وضح معنى قوله تعالى: (قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ)؟

ج: المعنى –والله أعلم–: قل لهؤلاء المعرضين عن الإيمان، ولهؤلاء الذين تركوا العمل الصالح: أنتظروا قضاء الله فينا وفيكم فإنا منتظرون قضاء الله فينا وفيكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكم

(١) صحيح، وقد تقدم.

لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها، فتطوى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلموا حينئذ المحق منا من المبطل، والمسيء من المحسن، والصادق من الكاذب، وتتبينوا عند ذلك بمن يحيق عذاب الله وأليم نكاله، ومن الناجي منا ومنكم ومن الهالك - إنا منتظرو ذلك، ليجزل الله لنا ثوابه على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادة له، وإفرادناه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقتٍ لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها كما قال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤، ٨٥].

|

س: اذكر الأشراط الكبرى للساعة؟

ج: من هذه الأشراط ما أخرجه مسلم(١) في «صحيحة» من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكر الساعة قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات**» فذكر: «**الدخان والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك: نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**».

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ «أضواء البيان» (٣/ ٣١٤): (وأشراط الساعة الكبرى: العشرة، وهي: نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان،

---

(١) مسلم (٢٩٠١).

ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة، والخسف.

قلت: وينبغي أن يدرج مع هذا كله نزول عيسى عليه السلام.

تنبيه: لا يمتنع أن تتخلل الأشراط الصغرى الأشراط الكبرى، فلا يمتنع مثلا أيام الدجال أن يكثر الزنا ويحدث ارتداد في طوائف المسلمين وتفشو التجارة مثلا، إلى غير ذلك من الأشراط الصغرى المتقدمة).

س: ما حكم من تاب عند معاينة الموت؟ (١)

ج: ذهب فريق من أهل العلم إلى أن توبة من عاين الموت لا تقبل؛ لقوله تعالى: (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ) **[النساء: ١٨]**.

ولقوله تعالى لفرعون لما أدركه الغرق فقال: (ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) **[يونس: ٩٠]** فقال الله: (ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ) **[يونس: ٩١]**.

وقوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا).

س: من هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا؟

ج: قيل: هم اليهود والنصارى.

وقيل: هم أهل البدع من أمة محمد ﷺ.

وقيل: هي شاملة للجميع.

قال الطبري رحمه الله:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فرقًا فيه وأحزابًا شيعًا، وأنه ليس منهم. ولا هم منه، لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن

---

(١) أي: معاينة الموت فقد قال بعض العلماء: إن المراد بها رؤية مقعده من الجنة أو النار.

يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦١].

فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك ووثني يهودي ونصراني ومتحنف، مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضل به عن الصراط المستقيم والدين القيم ملة إبراهيم المسلم، فهو بريء من محمد ﷺ، ومحمد منه بريء، وهو داخل في عموم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقا كأهل الملل والنحل – وهي الأهواء والضلالات –فالله قد برأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى:١٣]، وفي الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»(١).

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ﴾.

س: ذكر بعض أهل العلم قراءتين في قوله تعالى: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اذكرهما، مع بيان معنى كل قراءة؟

ج: أما القراءة الأولى التي ذكروها فهي:

فارقوا دينهم أي: ارتدوا عن دينهم.

أما الثانية فهي: فرقوا دينهم أي: تفرقوا واختلفوا فتهود قوم وتنصر غيرهم

(١) البخاري (٣٤٤٣) بلفظ البخاري «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» ومسلم (٢٣٦٥).

وتمجس آخرون، وابتدع فريق آخر كذلك، والله أعلم.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، قد قرأت بكل واحدةٍ منهما أئمة من القراء، وهما متفقتا المعنى غير مختلفتيه. وذلك أن كل ضال فلدينه مفارق، وقد فرق الأحزاب دين الله الذي ارتضاه لعباده، فتهود بعض، وتنصر آخرون، وتمجس بعض، وذلك هو التفريق بعينه ومصير أهله شيعا متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحق مفارقون وله مفرقون، فبأي ذلك قرأ القارئ فهو للحق مصيب، غير أني أختار القراءة بالذي عليه عظم القراء، وذلك تشديد الراء من (فرقوا).

س: كيف فرقوا دينهم وكانوا شيعًا؟

ج: قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئا، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: لست مسؤلا عنهم ولا عن شيء عن أمرهم، وقيل: لست منهم في شيء أي: أنت بريء منهم وبريء من أعمالهم.

وقيل: لم تؤمر بقتالهم، ثم نسخت بعد بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، إعلام من الله نبيه محمدًا ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من مشركي

قومه، ومن اليهود والنصارى. وليس في إعلامه ذلك ما يوجب أن يكون نهاه عن قتالهم، لأنه غير محال أن في الكلام: «لست من دين اليهود والنصارى في شيء فقاتلهم. فإن أمرهم إلى الله في أن يتفضل على من شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك من أراد إهلاكه منهم كافرا فيقبض روحه، أو يقتله بيدك على كفره، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون عند مقدمهم عليه».

وإذ كان غير مستحيل اجتماع الأمر بقتالهم، وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يكن في الآية دليل واضح على أنها منسوخة، ولا ورد بأنها منسوخة عن الرسول خبر كان غير جائز أن يقضى عليها بأنها منسوخة، حتى تقوم حجة موجبة صحة القول بذلك، لما قد بينا من أن المنسوخ هو ما لم يجز اجتماعه وناسخه في حال واحدة، في كتابنا كتاب: «اللطيف عن أصول الأحكام.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان»: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ أي من تفرقهم أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من الأشياء فلا يلزمك من ذلك شيء ولا تخاطب به إنما عليك البلاغ، وهو مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من غشنا فليس منا»(١) أي نحن برآء منه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾؟

ج: معنى ذلك -والله أعلم-: إنما أمر حسابهم إلى الله إن شاء عاقب وإن شاء عفا، أما أهل الشرك فقد أخبر سبحانه: أن الشرك لا يغفر، أما أهل البدع فواقعون تحت المشيئة.

وقيل: إنما أمر هدايتهم إلى الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإنه يقول: أنا الذي إلي أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك، دونك ودون كل أحد. إما بالعقوبة إن أقاموا على ضلالتهم وفرقتهم دينهم فأهلكهم بها،

---

(١) مسلم (١٠١).

وإما بالعفو عنهم بالتوبة عليهم والتفضل مني عليهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ، (١) يقول: ثم أخبرهم في الآخرة عند ورودهم علي يوم القيامة بما كانوا يفعلون، فأجازي كلا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ثم أخبر جل ثناؤه ما مبلغ جزائه من جازى منهم بالإحسان أو بالإساءة فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

س: ما المراد بالحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى: أن المراد بالحسنة هنا: قول لا إله إلا الله، والمراد بالسيئة: الشرك بالله، وذهب آخرون إلى شيء أعم من ذلك فقالوا: المراد بالجنة: الإيمان بالله ﷻ والإقرار بوحدانيته والتصديق برسوله ﷺ، والمراد بالسيئة: الشرك بالله وتكذيب رسله.

وذهب آخرون إلى أعم من ذلك كله فقالوا: المراد بالحسنة: عموم الحسنات والمراد بالسيئة: عموم السيئات، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من وافى ربه يوم القيامة في موقف الحساب، من هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا، بالتوبة والإيمان والإقلاع عما هو عليه مقيم من ضلالته، وذلك هو الحسنة التي ذكرها الله فقال: من جاء بها فله عشر أمثالها.

ويعني بقوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، يقول: ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق والكفر بالله، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيئ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾،

يقول: ولا يظلم الله الفريقين، لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازي المحسن بالإساءة والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له، لأنه جل ثناؤه حكيم لا يضع شيئا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحدا إلا بما يستحق من الجزاء.

س: اذكر بعض الأحاديث الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعفٍ**».

وفي الصحيحين[٢] أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﻷ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسناتٍ إلى سبع مائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**».

س: ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قال: هذه للأعراب وللمهاجرين سبعمائة، فهل هذا صحيح عن أبي سعيد؟

ج: نعم، هذا صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، أخرجه الطبري[٣].

---

(١) البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).
(٢) البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).
(٣) الطبري (١٤٩٨).

س: كيف يكون لقول: لا إله إلا الله عشرة أمثال؟ إذ الله قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: أن كلمة لا إله إلا الله لها ثواب يستحقه قائلها، إلا أن الله ﷻ يجعل له عشرة أمثال هذا الثواب، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال: قلت: فهل لقول: «لا إله إلا الله» من الحسنات مثل؟

قيل: له مثل هو غيره، [ولكن له مثل هو قول لا إله إلا الله]، وذلك هو الذي وعد الله جل ثناؤه من أتاه به أن يجازيه عليه من الثواب بمثل عشرة أضعاف ما يستحقه قائله. وكذلك ذلك فيمن جاء بالسيئة التي هي الشرك، إلا أنه لا يجازى صاحبها عليها إلا ما يستحقه عليها من غير إضعافه عليه.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم- قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين ولغيرهم: إن الله ﷻ أرشدني وسددني ووفقني لسلوك طريقا مستقيما، طريق الدين المستقيم الموصل إلى الله ع، ذلكم الطريق الذي سلكه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، سلكت هذا الطريق طريق توحيد الله ﷻ، مائلا عن الشرك إلى التوحيد معلنا عن توحيدي لخالقي ومولاي، نافيا عن نفسي الشرك بالله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقول: قل لهم: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له. ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ يقول: مستقيما. ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يقول: دين إبراهيم. ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ يقول: مستقيما. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقول: وما كان من المشركين بالله، يعني إبراهيم صلوات الله عليه، لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا نبيه ﷺ سيد المرسلين: أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج يه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائما ثابتا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وليس يلزم من كونه [عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ] أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قام بها قياما عظيما، وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

|

س: ما صحة هذا الحديث؟

ج: عن ابن أبزى، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين**»(١).

|

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ...﴾ الآية؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم

---

(١) صحيح أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦)، ولفظه: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**».

الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، يقول: وذبحي ﴿وَمَحْيَايَ﴾، يقول: وحياتي ﴿وَمَمَاتِي﴾ يقول: ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: أن ذلك كله له خالصا دون ما أشركتم به، أيها المشركون، من الأوثان ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصا ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾، يقول: وبذلك أمرني ربي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، يقول: وأنا أول من أقر وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى مخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

س: كيف قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، وثم مسلمون قبل نبينا ﷺ؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن المراد: وأنا أول المسلمين من هذه الآمة.

وقال آخرون: المعنى: وأنا أول الممتثلين أمرك السامعين المطيعين لك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال قتادة: أي: من هذه الأمة.

وهو كما قال: فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوته إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ

(٣٨٨) أحمر
أسود

فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ [المائدة: ٤٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضا، إلى أن نسخت بشريعة محمدٍ ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاتٍ ديننا واحد» فإن أولاد العلات هم الإخوة من أبٍ واحدٍ وأمهاتٍ شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباءٍ شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أبٍ واحدٍ وأم واحدةٍ. والله أعلم.

س: ما صحة الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ كان يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ وما موطنه الذي كان يقال فيه؟ وما لفظه؟

ج: ذلك حديث صحيح[١] أخرجه مسلم في «صحيحه»، وكان النبي ﷺ يقوله في استفتاح صلاة الليل من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي لذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما**

(١) مسلم (حديث ٧٧١).

أنا من المشركين، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾....» الحديث.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾؟

ج: المعنى والله أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين المعرضين عن طاعة الله ﷻ وعن عبادته: أغير الله أطلب سيدا يسودني ومدبرا يدبر أمري ومصلحا يصلح شئوني، والله هو رب كل شيء، ومصلح شأنه ومدبر أمره.

وكل نفس عملت سوءا فإنما تجزي به وتتحمله دون غيرها ممن لم يشارك فيه، ولا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى، ولا تأثم نفس لكون نفس أخرى قد أثمت.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، الداعيك إلى عبادة الأصنام واتباع خطوات الشيطان ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾، يقول: أسوى الله أطلب سيدا يسودني؟﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يقول: وهو سيد كل شيء دونه ومدبره ومصلحه﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، يقول: ولا تجترح نفس إثما إلا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتت من معصية الله ع، وركبت من الخطيئة، سواها، بل كل ذي إثم فهو المعاقب بإثمه والمأخوذ بذنبه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، يقول: ولا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها، وعليه تعاقب، دون إثم أخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشركين الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقول هذا القول لهم. يقول: قل لهم: إنا لسنا مأخوذين بآثامكم، وعليكم عقوبة إجرامكم، ولنا جزاء أعمالنا. وهذا كما أمره الله جل ثناؤه في موضع آخر أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أطلب ربا سواه، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يربني ويحفظني

ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيءٍ ومليكه، وله الخلق والأمر.

ففي هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا [في القرآن] كما قال تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا: (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ) [الفاتحة: ٥]، وقوله (فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ) [هود: ١٢٣]، وقوله (قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ) [الملك: ٢٩]، وقوله(رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا)[المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: (وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ) مع ذكر مختصر لمعنى الآية الكريمة؟

ج: في معناها ما يلي:

قوله تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ) [فاطر: ١٨].

وقوله تعالى: (أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ...) [النجم: ٣٦-٣٨].

وقوله تعالى: (كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ....) [المدثر: ٣٨، ٣٩].

أما عن معنى الآية الكريمة، فيقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحدٍ على أحدٍ. وهذا من عدله تعالى، كما قال: (وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ) [فاطر: ١٨]، وقوله (فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا) [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: (كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ...) [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفسٍ مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما

قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته ثم قال: ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شر.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تؤخذ بما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها فكل نفس كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها. وهو مثل قوله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ﴿وِزْرَ﴾ حمل ﴿أُخْرَىٰ﴾ ولا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: أن كل نفس فعلت فعلا إنما تتحمل جزاء فعلها ثم توافي بها يوم القيامة وترجع إليه فيخبرها بعملها الذي عملت، ومعتقدها الذي اعتقدت، والصحيح من ذلك كله والباطل منه، ووجه الصواب ووجه الخطأ، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان: كل عامل منا ومنكم فله ثواب عمله، وعليه وزره، فاعملوا ما أنتم عاملوه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾، أيها الناس ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾، يقول: ثم إليه مصيركم ومنقلبكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ﴾، في الدنيا، ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ من الأديان والملل،إذ كان بعضكم يدين باليهودية، وبعض بالنصرانية، وبعض بالمجوسية، وبعض بعبادة الأصنام وادعاء الشركاء مع الله والأنداد، ثم يجازي جميعكم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر، فتعلموا حينئذ من المحسن

منا والمسيء.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٥، ٢٦].

س: قوله تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلائف لمن؟

ج: قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وللمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض؛ قاله ابن عباس.

والثاني: أن بعضهم يخلف بعضا؛ قاله ابن قتيبة.

والثالث: أن أمة محمد خلفت سائر الأمم، ذكره الزجاج.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم-: والله الذي جعلكم خلائف لقوم آخرين كانوا في الأرض فأتيتم من بعدهم، وفضل بعضكم على بعض فجعل منكم الغني والفقير، والطويل والقصير، والقوي والضعيف والدميم والجميل، والوجيه والوضيع، إلى غير ذلك من صور التفضيل، كل ذلك ابتلاء من الله ﷻ، يبتلي بعضكم ببعض ويختبر بعضكم ببعض، فينظر هل رضي الفقير بقضاء الله وصبر، أم تسخط الأقدار وكفر.

وهل حمد الغني وشكر، أم أنه طغى، وبطر، وهكذا الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما قوله: (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ)، فإنه يقول: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضله بما أعطاه من المال والغنى، على هذا الفقير فيما خوله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيد والقوة على هذا الضعيف الواهن القوى، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ) أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرنٍ، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيدٍ وغيره، كما قال: (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ) [النمل: ٦٢]، وقوله (إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: ٣٠]، وقوله (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [الأعراف: ١٢٩].

وقوله: (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ) أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا) [الزخرف: ٣٢]، وقوله [تعالى]: (ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) [الإسراء: ٢١].

قوله: (لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ) أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

وقد روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيدٍ الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في**

(١) مسلم (٢٧٤٢).

النساء».

وقال صديق حسن خان «فتح البيان»:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الخلق والرزق والقوة والضعف والعلم والعقل والجهل والحسن والقبح والغنى والفقر والشرف والوضع، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل، فإن الله سبحانه منزه عن صفات النقص.

س: وضح معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟

ج: قال الطبري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في معناها:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: (إِنَّ رَبَّكَ)، يا محمد، لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أمره فيما أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطوله، توليًا وإدبارًا عنه، مع إنعامه عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السالفة (وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ)، يقول: وإنه لساتر ذنوب من ابتلى منه إقبالا إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بنعمة، واختباره إياه بأمره ونهيه، فمغط عليه فيها، وتارك فضيحته بها في موقف الحساب (رَّحِيمٌ) بتركه عقوبته على سالف ذنوبه التي سلفت بينه وبينه، إذ تاب وأناب إليه قبل لقائه ومصيره إليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه، وخالف رسله (وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) لمن والاه، واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب.

س: كثيرا ما يُذكر الله ﷻ بواسع رحمته ومغفرته وكذلك يذكر بمؤاخذته وأليم عقابه، وضح ذلك؟

ج: نعم، كثيرًا ما يحدث هذا تذكير بسعة رحمة الله ومغفرته، وكذا أليم عقابه وشدة مؤاخذته، وذلك حتى لا يقنط شخص من رحمة الله، ولا يتجرأ شخص على

معصية الله، وقد ذكرنا الله بذلك كثيرا في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وقوله ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وأورد حديث أبي هريرة(١)، عن النبي ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**».

(١) مسلم (حديث ٢٧٥٥).